بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القـــرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : مسعد بن مسفر بن مفرح القحطاني كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه في تخصص : العقيدة

عنوان الأطروحة : ((الشيخ عبد الغني النابلسي وآراؤه الاعتقادية والصوفية – عرض ونقد في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه – والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٦/٣/١٤١٨هـ – بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث قد تم عمل اللازم، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : د/ أحمد سعد حمدان الغامدي	الاسم د/ محمود أحمد خفاجي	الاسم : د/ علي بن حسن بن ناصر الألمعي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

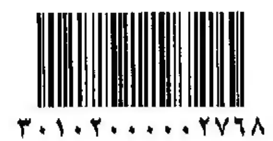
يعتمد

رئيس قسم العقيدة

الاسم : د/ أحمد بن عطية الزهراني

التوقيع :

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى بمكة المكرمة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية

عرض ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في العقيدة

إعداد الطالب
سعيد بن مسفر بن مفرح القحطاني



إشراف الأستاذ الدكتور
أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي

الجزء الأول

١٤١٧هـ



ملخص رسالة دكتوراه في العقيدة

العنوان: عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية، عرض ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة.

تتكون الرسالة من مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

أولاً: المقدمة تحدثت فيها عن دواعي اختيار الموضوع وخطة البحث والمنهج الذي سرت عليه، ومدى الفائدة التي حصلت عليها من ورائه.

ثانياً: الباب الأول، ويتكون من خمسة فصول، تحت كل فصل عدة مباحث تناولت فيه عصر المؤلف والحالة السياسية والاجتماعية والعلمية فيه كما عرضت لنشأة الشيخ عبدالقادر وحياته وأبرز مشايخه وتلاميذه ومؤلفاته ومكانته العلمية ومنهجه في توضيح العقيدة.

ثالثاً: الباب الثاني، عرضت فيه آراء الشيخ عبدالقادر الاعتقادية ضمن ستة فصول تحدثت فيها عن الإيمان وقضاياه، وعن التوحيد وأنواعه، وعن النبوات ومسائلها، وعن اليوم الآخر ومقدماته، وعن البدعة وما يتعلق بها، وعن طاعة ولاة الأمور وعدم جواز الخروج عليهم.

رابعاً: الباب الثالث، وقد ناقشت فيه آراء الشيخ عبدالقادر الصوفية، من خلال ستة فصول حيث تحدثت عن مفهوم التصوف ونشأته، وعن التصوف عند الجيلاني، والآداب عند المتصوفة، والولاية والكرامة، والأحوال والمقامات وعن نشأة الطريقة القادرية.

خامساً: الخاتمة، وقد ضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال بحثي وهي:

١ـ أن الشيخ عبدالقادر الجيلاني سلفي العقيدة على منهج أهل السنة والجماعة في جميع قضايا العقيدة.

٢ـ أن الشيخ عبدالقادر من مشايخ الصوفية بمفهومها المعتدل والأقرب إلى السنة، والتي تعتمد على الكتاب والسنة مع التركيز على أعمال القلوب والزهد والعبادة.

٣ـ أن معظم ما نسب إلى الشيخ عبدالقادر من الكرامات مبالغ فيه والقليل هو الثابت مما لا يتعارض مع الدليل الشرعي والنظر العقلي.

٤ـ أن الأبرأ للذمةوالأدرأ للمفاسدوالأبعدعن الافتراق هوجمع كلمةالمسلمين على المسمى الذي سماهم الله به دون الحاجة إلى شعارات ومسميات ما أنزل الله بها من سلطان. والله الموفق.

الطالب	المشرف على الرسالة	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
سعيد بن مسفر القحطاني	د. أحمد بن سعد الغامدي	د. محمد سعيد محمد حسن
		٩/٢/١٤١٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين وبعد.

فإن دراسة آراء عظماء الرجال وأكابر علماء الأمة مهمة صعبة ووظيفة شاقة تحتاج إلى من يرتقي بمستوى تفكيره ليتعمق في فهم أفكارهم ومعرفة مقاصدهم وعرض آرائهم، والظروف التي أحاطت بهم وأثّرت فيهم وبالتالي الوصول إلى معرفة النتائج وفهمها فهماً واعياً لا يتوقف على سطحيات الأمور وهوامش الفكر.

ولقد أكرمني الله بالعمل خلال الثلاثين عاماً الماضية في مجال الدعوة بحيث أمكنني الاطلاع على العديد من الكتب والتعرف على العديد من العلماء من أعلام الأمة، ومنهم الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ والذي يعد من أبرز الشخصيات الإسلامية التي عاشت في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري لما اشتهر به من العلم والصلاح وقد ارتبط اسمه بإحدى الطرق الصوفية الواسعة الانتشار في العديد من دول شمال أفريقيا ومصر والشام والعراق وبعض البلدان الأخرى.

وعندما أشار علي الأستاذ الدكتور محمود خفاجي ـ حفظه الله ـ باختيار شخصية الشيخ عبدالقادر الجيلاني للحديث عن آرائه الاعتقادية عادت بي الذاكرة إلى ما سبق أن سمعته من شيخي في القراءات فضيلة الشيخ عبيدالله بن عطا الأفغاني أستاذ القراءات بكلية الدعوة وأصول الدين بالمدينة المنورة والذي ذكر أنه دخل إلى بغداد

قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وأنه زار المدرسة القادرية وشاهد ضريح الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وقد كُتب على جدار قبته بعض الأبيات الشركية باللغة الفارسية وهي:

بادو شاهي هاردو عالم　　شيخ عبدالقادر هست
سروري أولاد آدم　　شيخ عبدالقادر هست
آف تابو باه تابو　　عرش وكرسي وقلم
زير بائي شيخ　　عبدالقادر هست

وترجمتها باللغة العربية كالتالي:

ملك الداريـن　　الشيخ عبدالقادر
سيد ولد آدم　　الشيخ عبدالقادر
الشمس والقمر　　والعرش والكرسي والقلم
تحت قدم　　الشيخ عبدالقادر

فتأكد لي أهمية دراسة آرائه الاعتقادية، ولكنني ترددت وقلت في نفسي ما هي الفائدة العلمية التي ستعود عليَّ من وراء ذلك حيث كنت أود أن أبحث موضوعاً يتيح لي فرصة دراسة العديد من قضايا العقيدة ومسائل الدين، للاستفادة منها في حياتي العملية والدعوية.

لكني عندما شرعت في وضع خطة البحث أيقنت أن هذا الأسلوب أعني دراسة الآراء الاعتقادية للأعلام من أعظم الوسائل لإثراء الباحث علمياً، فقد أتاح لي هذا البحث دراسة أكثر القضايا والمسائل العقدية، ومعرفة عقيدة السلف فيها وأدلتهم.

وبالنسبة للشيخ عبدالقادر الجيلاني فلست أول من حاول هذه المحاولة فقد ترجم له المؤرخون وتحدث عنه الباحثون غير أن الجانب الاعتقادي من حياة وفكر الشيخ عبدالقادر لم ينل حظه من

الدراسة والتحقيق سواءاً من الكُتَّاب القدامىٰ أو المعاصرين. إذ ربما يأتي ذكره أو عرض بعض آرائه دون تحقيق في صحة الأقوال التي نسبت إليه مما لا يعطي الصورة الصحيحة عنه.

عندها قررت أن أقوم بهذه الدراسة لبيان آرائه الاعتقادية وعرضها على عقيدة أهل السنة والجماعة على قدر الوسع وتوافر المراجع وقمت بوضع خطة البحث وتقدمت بها لنيل درجة الدكتوراه من كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى ـ قسم العقيدة.

وقد كنت أظن أن هذا الموضوع كافٍ غير أن مجلس قسم العقيدة بالكلية رأى أن يُضاف إلى البحث دراسة آرائه الصوفية باعتبار أن أبرز ما هو معروف عنه لدى الخاصة والعامة هو التصوف ودراسة آرائه دون التعرض للتصوف خلل لابدَّ من تلافيه فجرى إلزامي بإجراء الدراسة الأخرى أعني آراءه الصوفية إلى جانب آرائه الاعتقادية فرضخت للأمر الواقع رغم علمي بصعوبة ذلك ولكن لم يكن بوسعي أن أعمل شيئاً سوى الاستعانة بالله ثم الشروع في البحث وفق المنهج التالي:

١ـ الاعتماد على مؤلفات الشيخ عبدالقادر الجيلاني في عرض عقيدته وآرائه الصوفية.

٢ـ الاستفادة من تراجم الشيخ عبدالقادر المثبتة في كتب التاريخ والسير.

٣ـ عرض عقيدة السلف من خلال المصادر الأصيلة.

٤ـ الاعتماد على الأحاديث المخرجة في الصحيحين في الاستدلال إذا وجد الدليل فيهما أو في أحدهما.

٥ـ العودة إلى كتب السنة الأخرى إذا لم أجد بغيتي في الصحيحين أو

في أحدهما. مع بيان درجة الحديث وأقوال المحدثين فيه.

٦ـ تقديم تمهيد موجز في بداية كل مسألة للتعريف بها.

٧ـ عرض آراء الشيخ عبدالقادر الجيلاني الاعتقادية أو الصوفية.

٨ـ إيراد أقوال علماء السلف وآرائهم لمقارنة كلام الشيخ عبدالقادر بها، وبيان أوجه الخلاف أو التوافق مع التعليق والترجيح والتدليل بعيداً عن التعصب في مناقشة الآراء.

٩ـ إيراد الأدلة التي اعتمد عليها أهل السنة والجماعة فيما ذهبوا إليه من الكتاب والسنة.

١٠ـ حرصت على عدم الإكثار من الحواشي والإحالات واكتفيت بذكر رقم الآية واسم السورة بالنسبة للآيات القرآنية ورقم الحديث بالنسبة للأحاديث النبوية التي في الصحيحين حسب الترقيم المثبت في فتح الباري وشرح مسلم للنووي.

١١ـ ترجمت للأعلام الذين ورد ذكرهم في الرسالة عدا كبار الصحابة والأئمة الأربعة وأصحاب الكتب الستة، فقد اكتفيت بشهرتهم وتتم الترجمة عند ذكر المترجم له للمرة الأولى وعندما يتكرر ذكره لا أشير إلى سبق الترجمة تفادياً لكثرة الحواشي ولوجود الأسماء في فهرس التراجم.

١٢ـ قمت بتعريف الفرق التي ورد ذكرها في الرسالة بشكل موجز.

١٣ـ شرحت المفردات الغريبة الواردة في ثنايا الرسالة من كتب المعاجم اللغوية.

١٤ـ كتبت خاتمة موجزة تضمنت أهم النتائج التي وصلت إليها من خلال البحث.

١٥ـ وضعت الفهارس العلمية التي توضح مضمون الرسالة بيسر

وسهولة وتشمل:

أ ـ فهرس الآيات القرآنية مرتباً حسب ترتيب سور القرآن.

ب ـ فهرس الأحاديث النبوية مرتباً حسب الحروف الهجائية في طرف الحديث.

جـ ـ فهرس الأعلام المترجم لهم مرتباً حسب الحروف الهجائية.

د ـ فهرس الفرق والطوائف مرتباً حسب الحروف الهجائية.

هـ ـ فهرس المصادر والمراجع مرتباً حسب الحروف الهجائية لاسم الكتاب.

و ـ فهرس الموضوعات.

أما الخطة التي وضعتها للبحث فقد اشتملت على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

تحدثت في المقدمة عن أهمية الموضوع وسبب اختياره ومنهجي في البحث والخطة التي سرت عليها.

وخصصت الباب الأول للتعريف بحياة الشيخ عبدالقادر الجيلاني في خمسة فصول تحت كل فصل عدة مباحث.

وفي الباب الثاني عرضت آراءه الاعتقادية في ستة فصول وفي كل فصل عدة مباحث.

وفي الباب الثالث والأخير عرضت آراءه الصوفية في ستة فصول، تحت كل فصل عدة مباحث.

وأخيراً ختمت البحث بخاتمة موجزة أوضحت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

هذا هو جهدي المتواضع الذي لا أدعي فيه الكمال بل هو

جهد بشري ينتابه النقص ويعتريه الخلل خصوصاً وأن الوصول إلى هامات الأعلام الشامخة لأخذ القياسات الدقيقة لتفصيل اللباس المناسب الذي يسع هذه العظمة دون ضيق خانق أو سعة مخلة ليس أمراً سهلاً ولا هيناً.

ولكن حسبي أنني بذلت جهدي وأضنيت نفسي وأمضيت الساعات الطوال في الليل والنهار بين أكداس الكتب ورفوف المكتبات.

وقبل أن أختم مقدمتي هذه أرى لزاماً عليَّ أن أعترف بالفضل الكبير لله ثم للرعاية العظيمة التي لقيتها من الشيخ الدكتور/ محمود خفاجي الذي كان له الفضل في إعانتي على اختيار الموضوع ووضع خطته والدلالة على مراجعه والتوجيه لمتطلباته.

كما أشكر شيخي والمشرف على رسالتي الأستاذ الدكتور أحمد سعد حمدان الغامدي، الذي غمرني بلطفه ومحضني خالص نصحه حتى استفدت كثيراً من علمه الغزير وتواضعه الجمّ فأسأل الله أن يجزيه خير الجزاء وأن يبارك له في عمره وعلمه، وأن يمتع بحياته في الدنيا وأن يكرم مثواه في الآخره.

كما أشكر صاحبي الفضيلة الشيخ الدكتور / محمود أحمد خفاجي
الشيخ الدكتور / علي بن حسن الألمعي

لتكرمهما بالموافقة على مناقشتي في هذه الرسالة.

كما أشكر جامعة أم القرى ممثلة في كلية الدعوة وأصول الدين لما تقدمه من تسهيلات للدارسين بها على إداء رسالتهم وتحقيق طموحاتهم.

وختاماً أسأل الله عز وجل أن يرزقنا جميعاً الإخلاص وأن يوفقنا للإصابة وأن يحسن لنا الخواتيم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الأول

عصره وحياته

وتحته خمسة فصول:

الفصل الأول : عصره

الفصل الثاني : نشأته وحياته

الفصل الثالث : شيوخه وتلاميذه

الفصل الرابع: مؤلفاته ومكانته العلمية

الفصل الخامس: منهجه في توضيح العقيدة

الفصل الأول

عصـــــره

وتحته ثلاثة مباحث:

المبحـــث الأول: الحالة السياسية

المبحـــث الثاني: الحالة الاجتماعية

المبحـــث الثالث: الحالة العلمية

تمهيد

اعتاد بعض الباحثين أن يتحدثوا عن العصر الذي عاش فيه العالم أو الشيخ الذي يقصدون الحديث عن شخصيته وذلك للوقوف على الظروف التي عاشها وعاصرها لما لها من تأثير على شأنه وتكوينه وأفكاره وسلوكه.

وحديثنا عن عصر الشيخ عبدالقادر الجيلاني لن يكون اتباعاً لذلك العرف أو تقليداً لهذه العادة وإنما سيكون استجابة للحاجة الملحة والضرورة المقتضية التي تحتم بيان مدى تأثير الشيخ عبدالقادر وتأثره في العصر الذي عاشه والذي سبق ظهور صلاح الدين الأيوبي[(١)] وقيامه بالجهاد لاسترداد القدس ودحر الصليبيين وإعلاء دين الله عز وجل وذلك لإيضاح مدى تأثير العلماء والمصلحين وقدرتهم على التغيير وتهيئة الأمة للقيام بدورها في الإصلاح والوقوف في وجه الأخطار التي تحدق بها.

وما أشبه الليلة بالبارحة وما أشبه هذا العصر بالعصر الذي سبق عصر الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى علماء ربانيين يعالجون أمراضها ويصلحون أخطاءها ويوجهون خطاها. ويردونها إلى الجادة الصحيحة بعد أن زلت بها

---

(١) أبوالمظفر يوسف بن أيوب التكريتي صلاح الدين الأيوبي المجاهد العظيم والملك الشجاع، تملك بعد نور الدين زنكي واتسعت بلاده وكان خليقاً بالإمارة مهيباً حازماً ورعاً زاهداً ذا همة كبيرة في إقامة الجهاد حتى فتح الله عليه ونصر به دينه وقمع به أعداءه توفي رحمه الله سنة ٥٨٩هـ.
سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٧٨).

الأقدام إلاَّ ما رحم الله ولم تأخذ العبرة من الدروس القاسية والمحن المؤلمة التي تعرضت لها عبر تاريخها الطويل كلما انحرفت عن منهج الله وحادت عن طريقه.

إن صلاح الدين الذي أنقذ الله به القدس من يد الصليبيين الحاقدين، لم يكن شخصية معجزة تملك عصاً سحرية تستطيع قلب الموازين وإحداث المعجزات وإنما كان قائداً مؤمناً شجاعاً محنكاً نادى بصوته القوي فاستجابت له الأمة الحية والتفَّت حوله ولبَّت نداءه وهبَّت وراءه طالبة إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة.

وهذه الحياة التي توافرت في تلك الأمة قد عملت على إذكائها عدة عوامل لعل من أبرزها وجود العلماء والدعاة الذين جمعوا كلمتها ولموا شعثها وأعادوا بناء ثقتها بنفسها، وبيان دورها في هذه الحياة وأنها إنما كانت خير أمة أخرجت للناس لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله فإذا تخلت عن هذا الدور وتقاعست عن هذه المهمة سلبت هذه الخيرية وهانت على الناس كهوانها على الله.

المبحث الأول
الحالة السياسية

عاش الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ في الفترة الواقعة ما بين عامي ٤٧٠هـ حتى ٥٦١هـ وقد تميزت هذه الفترة بالاضطراب السياسي وكثرة الأحداث والتقلبات السياسية وعندما انتقل الشيخ إلى بغداد سنة ٤٨٨هـ كان ذلك بعد سقوط دولة بني بويه الشيعية ووصول سلاطين السلاجقة إلى الحكم في بغداد وقيام دولتهم السنية وذلك في عهد الخليفة العباسي المستظهر بالله والذي لم يكن يملك من الخلافة إلاَّ اسمها لأن السلطة كانت بيد أمراء الجند ورؤساء القبائل وترتب على هذا قيام الفتنة والتنافس بين سلاطين السلاجقة فعاث الجند فساداً في بغداد وصادروا الأموال ونهبت المتاجر وذاق الناس آلام الجوع والخوف[(١)].

وقد عاصر الشيخ عبدالقادر خمسة من خلفاء بني العباس هم:

١ـ المستظهر بالله الذي ينتهي نسبه إلى هارون الرشيد، ولد سنة ٤٧٠هـ وبويع له بالخلافة سنة ٤٨٧هـ، ومات سنة ٥١٢هـ، ومدة خلافته ٢٤ عاماً، وكان كريم الأخلاق حافظاً للقرآن فصيحاً بليغاً وقد وقعت في أول عهده فتنة بين السنة والروافض فأحرقت محال كثيرة وقتل ناس كثير[(٢)].

٢ـ المسترشد بن المستظهر، ولي الخلافة بعد والده سنة ٥١٢هـ

---

(١) المنتظم لابن الجوزي (٩/١٤١).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٢/١٥٦).

وكان رجلاً قوياً شجاعاً مقداماً بعيد الهمة عذب الكلام كثير العبادة محبوباً لدى العامة والخاصة قتله الباطنيون سنة ٥٢٩هـ، وقطعوه قطعاً بعد أن دامت خلافته سبعة عشر عاماً(١).

٣ـ بعده تولى الخلافة الراشد بالله سنة ٥٢٩هـ وفي عهده ظهر الرفض قليلاً، وكانت مدة خلافته قصيرة جدًّا دامت أحد عشر شهراً، بعدها جرى خلعه بفتيا الفقهاء، ثم قُتل غيلة على أيدي بعض الباطنيين.(٢)

٤ـ المقتفي لأمر الله، بويع بالخلافة بعد خلع الراشد وكان شهماً مقداماً مات سنة ٥٥٥هـ.(٣)

٥ـ المستنجد بالله الذي بويع بالخلافة بعد موت والده وكان رجلاً صالحاً، توفي سنة ٥٦٦هـ(٤).

وبالجملة فقد اتسمت تلك الفترة بالاضطراب السياسي لوجود النزاعات الحادة بين الخلفاء في بغداد والباطنيين في مصر مما أتاح لبعض الأمراء الاستقلال بإماراتهم كما حدث في الشام ثم حصل التنافس والنزاع بين هؤلاء الأمراء(٥).

وقد كان لهذا الحال أثره في نفس الشيخ عبدالقادر وشخصيته حيث فضَّل أن يبقى جهده محصوراً في حلقات العلم والتربية الروحية وتزهيد الناس في أمور الدنيا إلى جانب قيامه أحياناً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الجو المضطرب الذي يعتبر

---

(١) المصدر السابق (١٢/ ٢٢٣).
(٢) المصدر السابق (١٢/ ٢٢٤).
(٣) المصدر السابق (١٢/ ٢٥٩).
(٤) المصدر السابق (١٢/ ٢٨١).
(٥) المصدر السابق (١٣/ ٦).

القيام فيه بذلك ضرباً من ضروب الجهاد[١].

ولعل من المناسب وأنا أتحدث عن الناحية السياسية في ذلك العصر إبان قيام الخلافة العباسية أن أُشير إلى بعض المخالفات التي وقعت من معظم الخلفاء ومنها:

١ـ الإسراف في الأموال العامة وتبديد مقدرات وثروات الأمة وصرفها في غير المصارف الشرعية وإنفاقها على الشعراء والمداحين الذين كان الأولى بهم أن يحثى في وجوههم التراب بالإضافة إلى المبالغة في ترف العيش وبناء القصور.

٢ـ توليتهم لمن ليس أهلاً للولاية ممن رقّ دينه وقلت كفاءته واعتمادهم في الغالب على بعض من لا يوثق بدينهم وتوليتهم أهم الولايات ووضعهم في المناصب القيادية الحساسة التي كان الأجدر بها أهل الصلاح والتقوى لأن في إسناد الأمانات إلى غير أهلها خيانة للأمة وإضاعة لأمنها وأمانها وتعريضها للضعف والانهيار.

٣ـ تقريبهم لأهل الفسق والمجون في مجالسهم ونواديهم والابتعاد عن مجالسة الصالحين وعقلاء الأمة من أهل العلم والفضل ممن يحمل هموم الأمة ويرعى مصالحها.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ٢٧٠).

المبحث الثاني
الحالة الاجتماعية

من الغالب أن ترتبط الحالة الاجتماعية في أي عصر بالوضع السياسي السائد ولما كانت هذه الفترة قد تميزت بكثرة التقلبات السياسية وكثرة الخلفاء وضخامة الأحداث واختلاط المسلمين بغيرهم من الكفرة. فقد أدى ذلك إلى تنوع الحياة الاجتماعية، وعدم استقرارها على وتيرة واحدة.

ففي عهد المستنجد بالله تذكر كتب التاريخ أنه كان حسن السيرة مع الرعية وأن الناس كانوا في عهده في رغد من العيش للعدل الذي كان يسوس الناس به كما أنه ألغى كثيراً من المكوس والضرائب(١).

أما في العهود الأخرى للخلفاء فقد ساءت الأحوال وفشا الجوع وارتفعت الأسعار وهلك كثير من الناس(٢).

وباستقراء أحوال الناس في تلك الفترة يمكن تقسيمهم إلى ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: طبقة الحكام وهم العباسيون في بغداد والفاطميون في مصر، وبعض الأمراء في بلاد الشام، فهؤلاء كانوا يعيشون في غاية التمتع بالشهوات والاستغراق في الملذات وتحصيل أكبر قدر ممكن من أسباب الرفاهية ومن أمثلة ذلك ما نقله المؤرخون إذ يصف ابن

---

(١) الكامل لابن الأثير (٩/١٠٩).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٣/٢٦).

كثير[١] جهاز ابنة السلطان ملك شاه سنة ٤٨٠هـ فيقول:

«في المحرم منها نقل جهاز ابنة السلطان ملك شاه إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجلَّلة بالديباج الرومي غالبها أواني الذهب والفضة، وعلى أربع وسبعين بغلة مجللة بأنواع الديباج الملكي وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقاً من الفضة فيها أنواع من الجواهر والحلي وبين يدي البغال ثلاث وثلاثون فرساً عليها مراكب الذهب ومرصعة بالجواهر ومهد عظيم مجلل بالديباج الملكي عليه صفائح الذهب مرصع بالجوهر[٢].

ويتحدث عن حياة أبي نصر أحمد بن مروان الكردي والي بلاد بكر وميا فارقين المتوفى سنة ٤٥٣هـ فيقول:

«كان عنده خمسمائة سرية سوى من يخدمهن وعنده خمسمائة خادم وكان عنده من المغنيات شيء كثير كل واحدة مشتراها خمسة آلاف دينار وأكثر وكان يحضر في مجلسه من آلات اللهو والأواني مايساوي مائتي ألف دينار»[٣].

الطبقة الثانية: طبقة العلماء وهؤلاء كان لهم دور في تربية الأمة ودعوتها إلى الحق وإعادة ثقتها بنفسها وهو ماستتحدث عنه

---

(١) عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير. ولد سنة ٧٠٠هـ، وقدم دمشق وله سبع سنوات، وحفظ مختصر ابن الحاجب، ثم صاهر المزي، وصحب ابن تيمية، وكان كثير الاستحضار، وقليل النسيان جيد الفهم، وقد انتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير له مصنفات كثيرة منها «البداية والنهاية» و«تفسير القرآن العظيم» توفي سنة ٧٧٤هـ.
شذرات الذهب لابن العماد (٦/ ٢٣١).

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٢/١٤٤).

(٣) المرجع السابق (١٢/ ٨٧).

بإذن الله عند الكلام على الحالة العلمية.

الطبقة الثالثة: عامة الناس وهؤلاء عانوا كثيراً بسبب الحروب وسوء الأحوال المعيشية وكثرة الفساد مما حملهم إلى الانصراف والاهتمام بمتطلبات حياتهم الضرورية التي تدورحول الغذاء والكساء والمأوى.

وقد أدى هذا إلى انتشار النفاق وسقوط الأخلاق وانهيار القيم وأصبح الحديث عن المثل العليا إما وسيلة يتكسب بها بعض الوعاظ والخطباء أو مثاليات وخيالات ليس لها رصيد في الواقع سوى الاستخفاف بها وعدم الانتباه لها وتزامن هذا الفساد مع شيوع ألوان من اللهو كمصارعة الحمام وانتشار الملاهي والجواري والمغنيات.[1]

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ١٠٥).

المبحث الثالث
الحالة العلمية

كانت فترة حياة الشيخ عبدالقادر الجيلاني من أفضل الفترات الزمنية التي كثر فيها العلماء الأجلاء، ليس في بغداد وحدها، بل في جميع مدن العالم الإسلامي وقد كان لهؤلاء العلماء دور كبير في إثراء الفكر الإسلامي والمكتبة الإسلامية بكثير من المؤلفات النافعة التي لا يزال العلماء عالة عليها حتى يومنا هذا، ومن يستقرىء كتب التراجم والسير يلاحظ كثرة العلماء وكثرة المؤلفات ومن أبرزهم الشيخ عبدالقادر الجيلاني والذي سندرسه في هذه الرسالة.

وكذلك الإمام ابن الجوزي الحافظ المفسر مفخرة العراق، وعلاَّمة عصره، والذي كان رأساً في التذكير والوعظ وبحراً في كثير من العلوم، وكان حسن السيرة صنَّف الكثير من الكتب في التفسير والحديث والتاريخ[1].

والشيخ عبدالله بن أحمد بن قدامة المولود سنة ٥٤١هـ، والذي كان إماماً في القرآن وتفسيره، إماماً في علم الحديث ومشكلاته، إماماً في الفقه بل أوحد زمانه فيه إماماً في علم الخلاف، أوحد زمانه في الفرائض، إماماً في أصول الفقه والنحو والحساب[2].

والشيخ أبوالفتح عمر بن محمد بن الحاجب المحدث البارع

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ٢١/٣٦٥) وذيل طبقات الحنابلة (١/٣٩٩).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٢/١٦٩) وذيل طبقات الحنابلة لابن رجل (٢/١٣٦).

صاحب المعجم الكبير كان فيه دين وخير وله حفظ وذكاء وهمة عالية في طلب الحديث[١].

والشيخ أبوعمر بن الصلاح الإمام الحافظ مفتي الشام ومحدثها، كان عابداً زاهداً ورعاً[٢].

والشيخ المنذري الحافظ الكبير صاحب المؤلفات الكثيرة المشهورة، طلب العلم حتى برع فيه وأصبح عديم النظير في فنونه وكان حجة ثبتاً ورعاً[٣].

والشيخ أبوشامة الإمام العالم الحافظ المحدث الفقيه المؤرخ صاحب التصانيف العديدة كان ديِّناً أميناً[٤].

كما شهد هذا العصر حركة ثقافية واسعة ساعدت على قيامها الظروف السياسية والفكرية السائدة في تلك الفترة حيث كان الصراع السياسي والعقائدي بين المسلمين والنصارى وكذا النزاع بين أهل السنة الممثلين سياسياً بالخلافة العباسية وبين الشيعة الممثلين سياسياً بالحكم الفاطمي في مصر بالإضافة إلى ما اتسم به هذا العصر من الخلافات المذهبية الفقهية، وقيام علماء كل مذهب ببذل الجهد في نشر مذهبهم من خلال التأليف والدخول في صراعات مذهبية قسَّمت الأمة إلى فرق متناحرة متنافرة أشبه ما تكون بالأحزاب والجماعات في زماننا.

وقد أفرز هذا المفهوم المذهبي للإسلام، أو المفهوم الحزبي بالمصطلح المعاصر آثاراً خطيرة في ميادين الفكر والتربية والاجتماع

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٧٠).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ١٦٨).
(٣) المصدر السابق (١٣/ ٢١٢).
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ٢٥٠).

والسياسة أجملها الدكتور ماجد عرسان الكيلاني فيما يلي:

١ـ الآثار الفكرية: حيث تحددت أطر الإنتاج الفكري في حدود المذهب فصارت المؤلفات إما اجتراراً وتكراراً لأفكار من سبقوا من رجال المذاهب، أو إطراءاً وإشادةً بتضحياتهم وجهادهم. وظهرت كتب الطبقات المذهبية مثل طبقات الحنابلة، وطبقات الشافعية، كما ظهرت الشروح والحواشي والمختصرات في حين لم تنل المشكلات المعاصرة والحاجات القائمة التي تتعلق بالأمة آنذاك إلاَّ إشارات هامشية محدودة.

كما أفرز هذا التعصب المذهبي نوعاً من الإرهاب الفكري ضد المستنيرين من أصحاب المذاهب نفسها وإلزامهم بعدم التفاعل الفكري مع غيرهم من خارج المذهب، إلاَّ أن أخطر هذه الآثار الفكرية هو انقطاع أتباع المذاهب عن الاتصال المباشر بالقرآن الكريم والسنة المطهرة والتوجه إلى مؤلفات رجال المذاهب باعتبارها تمثل الفهم الصحيح للكتاب والسنة.

٢ـ الآثار التربوية: لقد تسرَّب شيوخ المذاهب إلى المدارس وأثروا فيها وفي مناهجها وأهدافها وأدى هذا إلى فساد أهداف التعليم وغاياته وأصبحت تدور حول تأهيل الدارسين لشغل مناصب الإفتاء والقضاء والهيمنة عليها. وبذلك ضاق مفهوم العلم واقتصر على فقه العبادات والمعاملات في حدود الأطر المذهبية.

٣ـ الآثار الاجتماعية: لقد شكلت المذاهب طوائف اجتماعية أشبه ما تكون بالأحزاب المتناحرة وأصبح المذهب الواحديضم أخلاطاً من الناس منهم المشايخ والتجار والطلبة والعوام وكانت تربط هؤلاء رابطة هشة تقوم على الشكلية والمظهر أكثر من المضمون

والجوهر إذ كان يكفي للانتماء المذهبي أن يحضر الاجتماعات وأن يكدس كتب المذهب وأن يتزيا بزي أهله.

٤ـ الآثار السياسية: حين تحولت أهداف العمل الإسلامي على يد المذاهب عن السعي لتمكين الشريعة وهيمنة الإسلام إلى تمكين رجال المذاهب أصبحت السمة البارزة للنشاط السياسي هي مشاركة زعماء المذاهب في إدارات الدولة وتنافسهم في التقرب إلى السلاطين وقيام أصحاب المطامع الشخصية بالانتساب إلى المذاهب لتحقيق مطامعهم، فإذا تولى أحد قادة المذاهب منصباً ركَّزهمه على تمكين أهل مذهبه والنيل من أتباع المذاهب الأخرى[١].

وهكذا نلاحظ مدى ما ألحقته الصراعات المذهبية من أضرار بالغة بالنشاط العلمي والحالة العلمية في ذلك العصر إلاَّ أن ذلك لا يعني عدم وجود نخبة من العلماء والمربين الذين ركَّزوا على الجوانب التربوية والتعليمية وتأسيس المدارس ويعتبر الشيخ عبدالقادر الجيلاني نموذجاً لهؤلاء العلماء، فقد أفنى جزءاً كبيراً من حياته في العلم والتعليم والتربية والتوجيه والدعوة والوعظ مما كان له أكبر الأثر في صياغة المجتمع وتهيئته وإعداده للقيام بالمهمات الجسام التي قام بها بعد إعلان الجهاد ورفع رايته لدحر العدوان الصليبي حيث قاد هو والعلماء في عصره انتفاضة روحية إيمانية أوقفت التيارات الفلسفية الوافدة وخففت من هيمنة الصراع المذهبي والتي كانت سبباً في انتقال الدين من القلوب إلى العقول وحولته من

---

(١) «هكذا ظهر جيل صلاح الدين» للدكتور ماجد عرسان الكيلاني (١٩ـ٣١) بتصرف.

عقيدة يقينية إلى مسائل منطقية ومجادلات فقهية فحمل الشيخ عبدالقادر راية التغيير ودعم حملته بوعظه المؤثر والمعتمد على الكتاب والسنة وعمل على إحياء وتقوية العاطفة الدينية وتحويل الأمة إلى ميادين العمل والإعراض عن المناقشات والجدل.

الفصل الثاني

نشأته وحياته

وتحته مبحثان:

المبحث الأول: اسمه وكنيته ولقبه وولادته ووفاته

المبحث الثاني: طلبه للعلم ورحلاته

المبحث الأول
اسمه وكنيته ولقبه وولادته ووفاته

١ـ اسمه: هو عبدالقادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن أبي عبدالله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبدالله بن موسى الجون بن عبدالله المحض.

ويلقب أيضاً بالمجل بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ[١].

وبالرغم من ورود ما يوحي بعدم صحة نسبته إلى علي بن أبي طالب كما في الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب[٢] حيث يقول ما نصه: «وبعض الناس ينكر نسبته إلى علي بن أبي طالب»[٣]. إلاَّ أننا لن نطيل الحديث حول هذه القضية التي لا طائل من ورائها إذ المهم في حياة الإنسان عمله وكسبه لا أصله ونسبه؛ ولأن الشيخ الجيلاني نفسه لم يكن يهتمّ بهذا الأمر ولم تكن لديه الرغبة في الظهور بل يغلب عليه التواضع والزهد حتى في الأنساب والألقاب. ولذا كان يقول عندما يُعرِّف عن نفسه «متفقه من جيلان»[٤] ثم لما

---

(١) انظر: بهجة الأسرار للشطنوفي ٨٨، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/٤٣٩). والأعلام للزركلي (٤/٤٧).

(٢) عبدالرحمن بن أحمد بن رجب أبوالفرج حافظ للحديث ولد في بغداد ونشأ وتوفي في دمشق له مصنفات كثيرة منها: جامع العلوم والحكم، والقواعد الفقهية، ولطائف المعارف، وذيل طبقات الحنابلة وغيرها.
الأعلام للزركلي (٣/ ٢٩٥).

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٠).

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٤٤٤).

أصبح شيخاً مشهوراً أغنته شهرته وشيوع ذكره عن نسبه مع احتمال صحة انتسابه إلى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ لضعف أدلة الطاعنين وندرتهم وقوة أدلت المشبتين وكثرتهم[١].

٢ـ كنيته ولقبه: تكاد تجمع كتب السير والتراجم على أن كنيته أبومحمد ونسبته الجيلاني أو الجيلي فمثلاً عندما يترجم له ابن الأثير[٢] في الكامل فيقول: هو عبدالقادر بن أبي صالح أبومحمد الجيلي[٣].

ويوافقه ابن كثير في البداية والنهاية حيث يقول: هو الشيخ عبدالقادر بن أبي صالح أبومحمد الجيلي[٤].

أما الذهبي في سير أعلام النبلاء فيقول عند ترجمته له: «عبدالقادر بن أبي عبدالله بن جنكي دوست الجيلي»[٥].

ويزيد الزركلي في الأعلام فيقول عنه: «عبدالقادر بن موسى بن عبدالله بن جنكي دوست الحسني أبومحمد محي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي»[٦].

أما الألقاب التي أطلقت عليه فهي كثيرة توحي بدلالات متعددة، وهي تشبه في عصرنا الإجازات العلمية أو الميداليات

(١) انظر: بهجة الأسرار للشطنوفي (٨٨) وما بعدها.
(٢) الشيخ الإمام العلامة علي بن محمد بن الأثير. مؤلف كتاب الكامل في التاريخ ولد سنة ٥٥٠هـ كان إماماً علامة إخبارياً أديباً، أقبل في آخر عمره على دراسة الحديث. وكان منزله مأوى لطلبة العلم يجتمع فيه الفضلاء. توفي سنة ٦٣٠هـ. سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٥٣.
(٣) الكامل لابن الأثير (١١/٩٢٣).
(٤) البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ٢٧٠).
(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/٤٣٩).
(٦) الأعلام للزركلي (٤/٤٧).

والأوسمة التي تمنح للعلماء والعظماء إقراراً بفضلهم وبياناً لعلو منزلتهم.

فمن الألقاب التي أُطلقت عليه لقب الإمام، أطلقه عليه السمعاني[١] فقال: إمام الحنابلة وشيخهم في عصره. نقله عنه ابن رجب[٢].

ومنها لقب شيخ الإسلام أطلقه عليه الذهبي[٣] حين ترجم له في سير أعلام النبلاء[٤].

كما أطلق عليه المتصوفة ألقاباً كثيرة من ألقابهم مثل القطب والغوث[٥] والباز الأشهب وغيرها مما سنذكره في ثنايا هذه الرسالة

---

(١) محمد بن منصور بن محمد السمعاني حافظ محدث فقيه أديب توفي بمرو سنة ٥١٠. سير أعلام النبلاء ١٩/٣٧٢.

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١/٢٩١).

(٣) الإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي. ولد سنة ٦٧٣هـ قال عنه التاج السبكي: شيخنا وأستاذنا محدث العصر، وشيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال في كل سبيل، كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يخبر عنها إخبار من حضرها. له مصنفات عديدة منها تاريخ الإسلام وسير أعلام النبلاء وتذكرة الحفاظ وغيرها. مات سنة ٧٤٨هـ.
شذرات الذهب ٦/١٥٣.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/٤٣٩).

(٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «أما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة مثل الغوث بمكة والأوتاد الأربعة والأقطاب السبعة والأبدال الأربعين والنجباء الثلاثمائة فهذه أسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالى ولا هي مأثورة عن النبي ﷺ بإسناد صحيح ولا ضعيف. وأما لفظ الغوث والغياث فلا يستحقه إلاّ الله فهو غياث المستغيثين فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره لا بملك مقرب ولا نبي مرسل ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر عنهم ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة والثلاثمائة إلى السبعين والسبعون إلى الأربعين والأربعون إلى السبعة والسبعة إلى الأربعة والأربعة إلى الغوث فهو =

عند الحديث عن آرائه الصوفية.

٣ـ ولادته ووفاته: ولد الشيخ عبدالقادر في بلدة جيلان وهي بلاد متفرقة وراء طبرستان ويقال لها: كيل وكيلان، والنسبة إليها جيلي وجيلاني وكيلاني وذلك سنة إحدى وسبعين وأربعمائة للهجرة[١].

وقيل: إنه ولد سنة سبعين وأربعمائة هجرية وقد أخذت هذه الرواية من قوله لما سئل عن مولده: لا أعلمه حقيقة لكني قدمت بغداد في السنة التي مات فيها التميمي وعمري إذ ذاك ثماني عشر سنة[٢].

والتميمي هو أبومحمد رزق الله بن عبدالوهاب بن عبدالعزيز بن الحرث بن أسد المتوفى سنة ٤٨٨هـ[٣].

أما وفاة الشيخ عبدالقادر فقد كانت ليلة السبت الثامن من ربيع الآخر سنة إحدى وستين وخمسمائة بعد المغرب، ودفن بمدرسته بعد أن شيعه خلقٌ لا يحصون[٤].

= كاذب ضال مشرك.
الفتاوى (١١/ ٤٣٣ ـ ٤٣٨). بتصرف.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٤٣٩).
(٢) بهجة الأسرار للشطنوفي (٨٨).
(٣) المصدر السابق، ٨٨.
(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٤٥٠).

المبحث الثاني
طلبه للعلم ورحلاته

كانت بغداد في ذلك الوقت من أعظم مراكز العلم في العالم الإسلامي. وكانت تزخر بكوكبة عظيمة من العلماء في مختلف الفنون.

ولما كانت الرحلة في طلب العلم عادة متبعة مارسها طلبة العلم في مراحل طلبهم للعلم وانتقلوا من بلادهم وأهليهم وهجروا مصالحهم ومنافعهم رغبة في التزود من معين العلم والمعرفة والذي كانت وسائله في ذلك الوقت غير متاحة بالمقدار الذي توفرت لطلاب العلم في عهدنا الحاضر. فقد رحل الشيخ عبدالقادر الجيلاني من بلده ومسقط رأسه جيلان إلى بغداد حيث دخلها سنة ٤٨٨هـ وعمره آنذاك ثماني عشرة سنة كما تقدم والتقى في بغداد بمجموعة من مشاهير العلماء الذين نهل من مناهلهم واستفاد من معارفهم حتى أصبح عالماً في مختلف العلوم إذ يصفه الذهبي في ترجمته له بأنه «الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام وعلم الأولياء ومحي الدين»[1].

وكما يصفه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة بأنه «شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف»[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٤٣٩).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٠).

وقد أمضى في طلب العلم اثنتين وثلاثين سنة درس فيها مختلف علوم الشريعة ثم جلس للتعليم والوعظ سنة ٥٢٠هـ[١].

وكان خلال فترة طلبه للعلم رغم طولها يعاني من ضيق العيش ويكابد مرارة الحرمان إلاَّ أن ذلك لم يفت من عزيمته ولم يعوقه عن المثابرة في طلب العلم، وقد نقل ابن رجب ما يصوِّر لنا تلك المعاناة من كلام الشيخ نفسه حيث يقول:

«وكنت أقتات الخرنوب[٢] الشوك وقمامة البقل وورق الخس من جانب النهر والشط وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد أن بقيت أياماً لم آكل طعاماً بل كنت أتتبع المنبوذات أطعمها فخرجت يوماً من شدة الجوع لعلى أجد ورق الخس أو البقل أو غير ذلك فأتقوت به فما ذهبت إلى موضع إلاَّ وغيري قد سبقني إليه. وإن وجدت أجد الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حياءاً.

فرجعت أمشي وسط البلد لا أدرك منبوذاً إلاَّ وقد سبقت إليه حتى وصلت إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد وقد أجهدني الضعف وعجزت عن التماسك فدخلت إليه ووقعت في جانب منه وقد كدت أصافح الموت إذ دخل شاب أعجمي ومعه خبز صاف وشواء وجلس يأكل فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أن أفتح فمي من شدة الجوع حتى أنكرت ذلك على نفسي فقلت: ماهذا وقلت ما ههنا إلاَّ الله أو ما قضاه علي من الموت إذ التفت إليَّ العجمي فرآني فقال: بسم الله ياأخي فأبيت فأقسم عليَّ فبادرت نفسي فخالفتها

(١) المصدر السابق (١/ ٢٩١).

(٢) الخرنوب: شجر بري ذو شوك ذو حمل كالتفاح لكنه بشع. القاموس المحيط للفيروزآبادي (١٠١).

فأقسم أيضاً فأجبته فأكلت متقاصراً فأخذ يسألني ما شغلك ومن أين أنت وبمن تَعْرَفُ فقلت: أنا متفقه من جيلان فقال: وأنا من جيلان فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبدالقادر فقلت: أنا هو فأضطرب وتغيَّر وجهه وقال: والله لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي فسألت عنك فلم يرشدني أحد ونفدت نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلاَّ مما كان لك معي وقد حلَّت لي الميتة وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء فكل طيباً فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي فقلت له: وما ذاك فقال: أمك وجَّهت لك معي ثمانية دنانير فاشتريت منها هذا للاضطرار فأنا معتذر إليك فسكتُّه وطيبت نفسه ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة فقبله وانصرف»[1].

وهكذا نلمس مدى الجهد والتعب الذي كان يبذله طلبة العلم ومدى الصبر وقوة التحمل التي كان يتحلى بها أولئك الرجال لتحقيق رغبتهم في نيل العلم وتحصيله وإن الإنسان ليشعر بالألم والأسى حين يقارن هذه الأحوال بحالنا في هذه الأزمنة وما حصل من التكاسل والتخاذل وضعف الهمم وخمول الإرادة رغم وفرة الإمكانات من الكتب والمراجع والأدوات فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

وهذه القصة التي أوردها الشيخ عبدالقادر رحمه الله فيها كرامة له رحمه الله حيث تنقل من مكان إلى مكان حتى انتهى إلى هذا المسجد وفيه يلتقي برسالة من أمه رفَع الله عز وجل عنه بها تلك المشقة وأنقذه بها من الهلاك.

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٨).

الفصل الثالث

شيوخه وتلاميذه

وتحته مبحثان:

المبحث الأول: شيوخه

المبحث الثاني: تلاميذه

المبحث الأول

شيوخه

للشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله شيوخ كثيرون أخذ عنهم العلم والعمل وسأقتصر هنا على إيراد أشهر مشايخه ومن أراد الوقوف على شيوخه فعليه بمراجعة تراجمه في الكتب الوارد ذكرها في ترجمته.

أولاً: شيوخه في دراسة القرآن الكريم:

لم تذكر المراجع التي بين يدي شيئاً عمن قام بتحفيظه القرآن الكريم ولكنها أشارت إلى أنه أتم دراسته للقرآن في جيلان قبل رحيله إلى بغداد حيث يقول صاحب قلائد الجواهر في ترجمته:

«وبعد أن أتم دراسته للقرآن الكريم حفظاً وعلوماً قصد أشياخ الأئمة أعلام الأمة» ويقول: «تفقه بعد أن قرأ القرآن الكريم حتى أتقنه وعمر بدراسته سره وعلنه»[(١)].

أما دراسته للتفسير فيظهر لي أنها تمت على يد شيوخه في الفقه والحديث لأن هؤلاء العلماء كانوا على إلمام ودراية بالقرآن الكريم وتفسيره بلا شك شأنهم في ذلك شأن علماء السلف رحمهم الله تعالى الذين كانوا بمثابة الموسوعات العلمية في معظم الفنون والمعارف.

(١) قلائد الجواهر للتادفي (٤).

ثانياً شيوخه في الفقه وأصوله:

١ـ أبوالخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن بن أحمد الكلوذاني أبوطالب البغدادي: المولود سنة ٤٣٢هـ والمتوفى سنة ٥١٠هـ وهو أحد أئمة المذهب الحنبلي وأعيانه كان عالماً بالحديث والفقه مذهباً وأصولاً وخلافاً عظيم التحقيق والتدقيق فيه وكان مفتياً صالحاً وعابداً ورعاً حسن العشرة، له نظم رائق وله كتاب الهداية، وكتاب رؤوس المسائل، وكتاب أصول الفقه، وصفه الذهبي حين ترجم له في السير بأنه العلامة الورع شيخ الحنابلة وقال عنه بأنه من أفاضل العلماء خيراً صادقاً حسن الخلق حلو النادرة من أذكياء الرجال[1].

٢ـ أبوسعيد: المبارك بن علي المخرمي شيخ الحنابلة تفقه بالقاضي أبي يعلى وبنى مدرسة باب الأزج درّس بها بعده تلميذه الشيخ عبدالقادر الجيلاني بعد أن طوّرها وأدخل عليها بعض التوسعة والتجديد، وكان نزيهاً عفيفاً، وقد فتحت عليه الدنيا، فبنى داراً وحماماً وبستاناً، مات سنة ٥١٣هـ[2].

٣ـ أبوالوفاء علي بن عقيل بن عبدالله البغدادي: الإمام العلامة البحر شيخ الحنابلة الحنبلي المتكلم صاحب التصانيف ولد سنة ٤٣١هـ وكان يتوقد ذكاءاً وكان بحر معارف وكنز فضائل لم يكن له في زمانه نظير على بدعته[3].

---

(١) الذيل على الطبقات لابن رجب (١/١١٦). وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/٣٤٨). وشذرات الذهب لابن العماد (٤/٢٧).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/٤٢٨). وشذرات الذهب (٤/٤٠). والذيل على الطبقات (١/١٦٦).

(٣) يشير الذهبي إلى مجالسته للمعتزلة حتى وقع في حبائلهم وتجسّر على تأويل =

وقد نقل عنه الذهبي قوله: «عصمني الله في شبابي بأنواع من العصمة وقصر محبتي على العلم وما خالطت لعاباً قط ولا عاشرت إلاَّ أمثالي من طلبة العلم. وأنا الآن في عشر الثمانين أجد من الحرص على العلم أشد مما كنت أجده وأنا ابن العشرين وبلغت لاثنتي عشرة سنة وأنا اليوم لا أرى نقصاً في الخاطر والفكر والحفظ وحدَّة النظر بالعين لرؤية الأهلة الخفية إلاَّ أن القوة ضعيفة[1].

قال ابن الجوزي[2]: كان ابن عقيل ديناً حافظاً للحدود توفي له ابنان فظهر منه من الصبر ما يتعجب منه وكان كريماً ينفق ما يجد وما خلَّف سوى كتبه وثياب بدنه توفي سنة ٥١٣هـ[3].

وينقل الذهبي عن أبي المظفر سبط ابن الجوزي قول ابن عقيل: حججت فالتقطت عقد لؤلؤ في خيط أحمر فإذا شيخ أعمى ينشده ويبذل لملتقطه مائة دينار فرددته عليه فقال: خذ الدنانير فامتنعت وخرجت إلى الشام وزرت القدس وقصدت بغداد فأويت بحلب إلى مسجد وأنا بردان جائع فقدموني فصليت بهم فأطعموني وكان أول رمضان فقالوا: إمامنا توفي فصل بنا هذا الشهر ففعلت فقالوا: لإمامنا بنت فتزوجت بها وأقمت معها سنة وأولدتها ولداً ذكراً فمرضت في نفاسها فتأملتها يوماً فإذا في عنقها العقد بعينه

- النصوص نسأل الله السلامة والعافية.
سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٤٤٧).

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٤٤٦). وشذرات الذهب لابن العماد (٤/ ٣٥).

(٢) الإمام العلامة أبوالفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي الحنبلي الواعظ صاحب التصانيف الكثيرة له عبادة ونسك وجمال وطلق وحسن معاشرة وطيب مظهر مات رحمه الله سنة ٥٩٧. سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦٥.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٤٤٧). وشذرات الذهب لابن العماد (٤/ ٣٥). والذيل على الطبقات لابن رجب (١/ ١٤٢).

بخيطه الأحمر فقلت لها: لهذا قصة وحكيت لها، فبكت وقالت: أنت هو والله لقد كان أبي يبكي ويقول: اللهم ارزق بنتي مثل الذي رد العقد عليَّ وقد استجاب الله منه ثم ماتت فأخذت العقد والميراث وعدت إلى بغداد[١].

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/٤٤٩).

ثالثاً شيخه في التصوف:

ـ حماد بن مسلم الدباس[١] صحبه الشيخ عبدالقادر الجيلاني في بداية حياته وتأدب بآدابه، وتأثر به كثيراً، وكان يجد جفاءاً وصلفاً منه في التعامل يقول في ذلك: وكنت إذا غبت عنه لطلب العلم ورجعت إليه يقول لي: إيش جاء بك إلينا، أنت فقيه سر إلى الفقهاء. فأسكت وكان يؤذيني أذية كبيرة ويضربني وإذا غبت عنه لطلب العلم وجئت إليه يقول: قد جاءنا اليوم الخبز الكثير والفالوذج وأكلنا وما خبأنا لك شيئاً فطمع فيَّ أصحابه لكثرة ما يرونه يؤذيني وجعلوا يقولون: أنت فقيه إيش تعمل هنا أو إيش جاء بك إلينا»[٢].

ويبدو أن أسلوب حماد بن مسلم كان يقوم على المجاهدة ولذا كان يقصد من وراء هذا التعامل الشديد إلى امتحان قدرته ومدى تحمله وصبره لأن التصوف بطبعه يعتمد على الصمود أُمام المغريات وشهوات النفس.

ونستطيع أن نجزم بصحة تتلمذ الشيخ عبدالقادر الجيلاني على حماد الدباس لاسيما وقد ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء فقال: «كان الشيخ عبدالقادر من تلامذته»[٣]. كما أشار إلى ذلك ابن العماد في شذرات الذهب بقوله: «الشيخ حماد بن مسلم بن ددوه الدباس

---

(١) حماد بن مسلم الدباس: الزاهد كان أمياً لا يكتب له أصحاب وأحوال وكرامات، وكان شيخ العارفين في زمانه، زاول أكثر المهن والصنائع في طلب الحلال. مات سنة ٥٢٥هـ.
سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٥٩٤). وشذرات الذهب (٤/ ٧٣).

(٢) قلائد الجواهر (١٢).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٥٩٦).

أبوعبدالله الرحبي الزاهد شيخ الشيخ عبدالقادر الجيلاني»[١].

وأيضاً فقد أثنى شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] على الجيلاني وشيخه حماد حيث قال: فأمر الشيخ عبدالقادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة رضي الله عنهم: بأنه لا يريد السالك مراداً قط وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها بل يجري فعله فيه فيكون هو مراد الحق[٣].

(١) شذرات الذهب (٤/ ٧٣).

(٢) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني الإمام شيخ الإسلام ولد في حران وانتقل به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. سجن مرات من أجل فتاواه كان داعية إصلاح في الدين آية في التفسير والعقائد والأصول، فصيح اللسان، مكثراً من التصنيف» توفي في سجن القلعة بدمشق سنة ٧٢٨هـ.
الأعلام للزركلي (١/ ١٤٤).

(٣) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٥١٦).

رابعاً شيوخه في الحديث:

١ـ أبومحمد جعفر بن أحمد البغدادي السراج: الشيخ الإمام البارع المحدث المسند بقية المشايخ كتب بخطه الكثير وصنَّف الكتب كان صدوقاً ألَّف في فنون شتَّى وكان ممن يفتخر برؤيته ورواياته لديانته ودرايته ثقة مأمون عالم صالح ولد سنة ٤١٧هـ وتوفي سنة ٥٠٠هـ(١).

٢ـ أبوالقاسم علي بن أحمد بن محمد بن بيان البغدادي كان صحيح السماع ولا يعرف في الإسلام محدث وازاه في قدم السماع ولد سنة ٤١٣هـ وتوفي سنة ٥١٠هـ.(٢)

٣ـ أبوعبدالله يحيى بن الإمام أبوعلي الحسن بن أحمد بن البناء البغدادي الحنبلي: كان الحافظ عبدالله بن عيسى الأندلسي يثني عليه ويمدحه ويطريه ويصفه بالعلم والفضل وحسن الأخلاق وترك الفضول وعمارة المسجد وملازمته ولد سنة ٤٥٣هـ، وتوفي سنة ٥٣١هـ(٣).

هؤلاء سبعة من شيوخه الذين اشتهر بالأخذ عنهم وكان لهم الأثر الكبير في حياته.

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٢٢٨). وشذرات الذهب (٣/ ٤١١).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٢٥٩).
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٦).

المبحث الثاني

تلاميـــذه

لقد كان لجلوس الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ للتدريس والوعظ وملازمته لمدرسته سبب كبير في كثرة تلاميذه وتخريجه أفواجاً كثيرة من العلماء في شتى العلوم والمعارف.

وعندما ترجم له ابن الجوزي في المنتظم لم يذكر أحداً من تلاميذه وإنما اكتفى بالإشارة إلى كثرة إقبال الناس عليه وكثرة التائبين على يديه مع طول مكثه واعظاً ومدرساً حتى مات[١].

أما الشطنوفي فقد أورد مائة وسبعة عشر اسماً ممن تتلمذوا على يديه بعد أن قال: وانتمى إليه جمع عظيم من العلماء وتتلمذ له خلق كثير من الفقهاء ولو شرعنا نذكر كل الأعيان ممن انتمى إليه وأخذ عنه العلم أو سمع منه ومن ذريته وغيرهم لكثر العدد[٢].

وقد أورد الذهبي في سير أعلام النبلاء عدداً ممن تتلمذ على الشيخ عبدالقادر وأجاز له[٣].

وسوف نقتصر على ذكر من برز واشتهر وصارت له الإمامة لنعرف مدى انتشار أثر الشيخ عبدالقادر العلمي، ومنهم:

١ـ القاضي أبوالمحاسن عمر بن علي بن الخضر القرشي: الحافظ، فقيه حافظ عالم عنى بالحديث، وسمع بدمشق، وحلب،

---

(١) انظر: المنتظم لابن الجوزي (١٠/٢١٩).

(٢) بهجة الأسرار للشطنوفي (١٠٦، ١٧٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٤٠).

وحران، والموصل، والكوفة، وبغداد، والحرمين، ورزق الفهم ولي القضاء ومات سنة ٥٧٥هـ[١].

٢ـ تقي الدين أبومحمد عبدالغني بن عبدالواحد بن علي بن سرور المقدسي الإمام العالم الحافظ الكبير الصادق القدوة العابد الأثري: لم يزل يطلب ويسمع ويكتب ويسهر ويدأب ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتقي الله ويتعبد ويصوم وينشر العلم إلى أن مات سافر إلى بغداد هو وابن خاله الموفق في أول سنة ٥٦١هـ فكانا يخرجان معاً ويذهب أحدهما في صحبة رفيقه إلى درسه وسماعه وكان الحافظ يميل إلى الحديث، والموفق يريد الفقه، فلما رآهما العقلاء على التصوف وقلّة المخالطة أحبوهما وأحسنوا إليهما وحصَّلا علماً جماً، فأقاما ببغداد نحو أربع وستين سنة، ونزلا أولاً عند الشيخ عبدالقادر الجيلاني فأحسن إليهما ثم مات بعد قدومهما بخمسين ليلة له مصنفات كثيرة وكان آية في الحفظ آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، مات رحمه الله سنة ٦٠٠هـ[٢].

٣ـ موفق الدين أبومحمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي: صاحب المغني الشيخ الإمام القدوة العلامة المجتهد، شيخ الإسلام، كان إمام الحنابلة بجامع دمشق، وكان ثقة حجة نبيلاً، غزير الفضل، نزيهاً، ورعاً عابداً على قانون السلف عليه النور والوقار، ينتفع الرجل برؤيته قبل أن يسمع كلامه، قال عنه

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد (٤/ ٢٥٢). وسير أعلام النبلاء (٢١/ ١٠٥).

(٢) شذرات الذهب لابن العماد (٤/ ٣٤٥). وسير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٤٣). والذيل على الطبقات لابن رجب (٢/ ٥).

ابن الحاجب: هو إمام الأئمة ومفتي الأمة خصَّه الله بالفضل الوافر والخاطر الماطر، والعلم الكامل، طنَّت بذكره الأمصار، وضنَّت بمثله الأعصار أخذ بمجاميع الحقائق النقلية والعقلية. قدم بغداد هو والحافظ فأقاما عند الشيخ عبدالقادر خمسين ليلة، ومات ثم أقاما عند ابن الجوزي، ثم انتقلا إلى رباط النعَّال. صنَّف كتبه المغني والكافي والمقنع والعمدة ولد سنة ٥٤١هـ، وحفظ القرآن كان من بحور العلم وأذكياء العالم[١].

وممن تتلمذ على الشيخ عبدالقادر الجيلاني أولاده وكان له من الأولاد تسعة وأربعون ولداً سبعة وعشرون ذكراً، والباقي بنات، وكان يقول: إذا ولد لي ولد أَخَذْتُه على يدي وأقول هذا ميت، فأخرجه من قلبي فإذا مات لم يؤثر عندي موته شيئاً[٢].

وقد عاش منهم عدد كبير وأخذوا عن والدهم العلم والمعارف وتفرقوا في البلاد ومن أبرز أولاده في العلم:

٤ـ عبدالرزاق بن عبدالقادر الجيلاني: الشيخ الإمام المحدث الحنبلي الزاهد، كان زاهداً عابداً ثقة قانعاً باليسير فقيهاً ورعاً كثير العبادة صابراً على فقره على منهاج السلف، وكانت جنازته مشهودة، ولد رحمه الله سنة ٥٢٨هـ وتوفي سنة ٦٠٣هـ.[٣]

٥ـ عبدالوهاب بن عبدالقادر الجيلاني: الفقيه الحنبلي الواعظ ولد سنة ٥٢٢هـ وسمع من كثير من العلماء، ومنهم والده الذي قرأ

(١) الذيل على الطبقات لابن رجب (٢/ ١٣٣). وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٢/ ١٦٥).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٤٤٧).

(٣) الذيل على الطبقات لابن رجب ٢(٤٠). وسير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٢٦). وشذرات الذهب (٥/ ٩).

عليه الفقه حتى برع، وقد قام بالتدريس بمدرسة والده نيابة عنه في حياته وبعد وفاته، ثم نزعت منه لابن الجوزي، ثم ردت إليه. وكان كيِّساً ظريفاً ولم يكن في أولاد أبيه أفقه منه، له كلام حسن في مسائل الخلاف فصيحاً في الوعظ وإيراد الملح مع عذوبة الألفاظ ذا مزح ودعابة وكياسة توفي سنة ٥٩٣هـ[١].

(١) شذرات الذهب لابن العماد (٤/ ٣١٤).

الفصل الرابع

مؤلفاته ومكانته العلمية

وتحته مبحثان:

المبحث الأول: مؤلفاته

المبحث الثاني: مكانته العلمية

المبحث الأول

مؤلفاتـه

لقد اشتغل الشيخ عبدالقادر الجيلاني بالوعظ والتدريس وأمضى معظم حياته في العلم والتعليم وكان اهتمامه بالتأليف والتدوين محدوداً ولو أنه صنَّف علومه ومعارفه كغيره من العلماء في عصره وفي العصور التي سبقته والتي جاءت بعده، لترك لنا ثروة علمية كبيرة من المؤلفات النافعة في العلوم التي مرَّ أنه من أهل الإتقان فيها.

ولكن يبدو أن جانب الوعظ والتربية والاهتمام بالسلوك والعبادة قد استحوذ على جانب من حياته وليس هو وحده الذي سلك هذا المسلك فإن كثيراً من أهل الفضل والصلاح والعلم والإتقان لم يكن لهم اهتمام بالتأليف والتدوين وهذا واضح في سير الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين رحمهم الله ومعظم العلماء في القرون المفضلة، ولعلَّ مرجع ذلك إلى بعض الأسباب منها:

١ـ إحساسه بعدم الحاجة إلى التدوين وشعوره بأن المكتبة الإسلامية قد أتخمت بالعديد من المؤلفات والمصنفات في شتى ميادين العلم.

٢ـ عدم وجود الوقت الكافي للتأليف في ظل إقبال الناس على دروسه واستماعهم إلى مواعظه.

٣ـ اشتغاله فيما يتبقى له من الوقت بأداء العبادات والتقرب إلى الله بكثرة الأعمال الصالحة من تهجد وتلاوة وذكر.

٤ـ شعوره بأن الآثار العلمية ليست مقصورة على المؤلفات فقط، فقد يترك العالم آثاراً علمية نافعة، ويغرس غرساً يكون أثره ونفعه أفضل من نفع المؤلفات وهذا ما حصل للشيخ عبدالقادر فقد ترك مدرسة كبيرة عامرة ببغداد لها مكانتها العلمية وشهرتها الواسعة في علوم الشريعة ولاتزال بقايا تلك المدرسة موجودة إلى اليوم وبها مكتبة تحتوي على العديد من المخطوطات النادرة[١] وكم كنت أتمنى لو أُتيحت لي فرصة الاطلاع على تلك المدرسة وتلك المكتبة وما فيها من المخطوطات ولكن الظروف السياسية التي أعقبت غزو العراق للكويت وفرض العزلة والمقاطعة عليه حالت دون ذلك.

(١) مدارس بغداد في العصر العباسي/ عماد عبدالسلام (١٥٤).

صبره على التعليم وجلده :

كان الشيخ عبدالقادر الجيلاني قوي الاشتغال بالتدريس عالماً متقناً وكان يتكلم في ثلاثة عشر علماً، وكانوا يقرؤون عليه في مدرسته درساً من التفسير ودرساً من الحديث ودرساً من المذاهب، ودرساً من الخلاف، وكانوا يقرؤون عليه طرفي النهار التفسير وعلوم المذهب والخلاف والأصول والنحو وكان يعلم القرآن بالقراءات بعد الظهر وكان يفتي على مذهب الإمام أحمد بن حنبل والإمام الشافعي ـ رحمهما الله ـ وكانت فتواه تعرض على العلماء بالعراق فتعجبهم أشد الإعجاب(١).

أما مجالس وعظه وقدرته على التأثير والجذب وكثرة إقبال الناس على سماع مواعظه فقد ذكر ذلك معظم من ترجم له من المؤرخين وكتَّاب السير وذكروا أن الملوك والسلاطين والوزراء كانوا يحضرون مجالس وعظه، أما العلماء الذين كانوا يجلسون في حلقات مواعظه فلا يأتي عليهم حصر وقد عُدَّ في بعض مجالسه أربعمائة محبرة(٢).

ويبدو أن سبب ذلك ما ذكره الشيخ أبوالحسن الندوي بقوله: كان صاحب نفس زكية وهمة قوية مؤثرة وعلى جانب عظيم من الزهد والقناعة والعزوف عن الشهوات، يجد ضعاف الإيمان في مجالسه قوة اليقين وحرارة الإيمان، ويجد أهل الشك والارتياب السكينة والإذعان، ويجد أصحاب النفوس القلقة والقلوب الجريحة

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (١٠٩).

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ٢٧٠). والذيل على الطبقات لابن رجب (١/ ٢٩٠).

المنكسرة الهدوء والعزاء والسلوان ويجد هواة الحقائق والمعارف وأصحاب الدراسات.العلوم الدقيقة والنكت اللطيفة، ويجد أصحاب البطالة والعطلة وأصحاب القلوب الخامدة ما يملؤهم حماسة وإيماناً وما يحفزهم إلى العمل والجهاد، ويجد عباد الملذات والشهوات والمترفون في الحياة الذين تجرأوا على المعاصي والمحارم مايبعث فيهم الإقلاع والندامة والتوبة والإنابة.

وبالجملة يجد كل أحد في مجالسه غناءه ودواءه وغذاءه وشفاءه ويقف كمنارة عالية من الإيمان والعلم في بحر الظلمات والجاهلية يأوي إليها الغرقى ويهتدي بها الحائرون ويخلف الأنبياء في دعاء الخلق إلى الله، ودعوة الناس إلى دار السلام وإخراجهم من الظلمات إلى النور»[١].

وهذا يعني أن الشيخ عبدالقادر كان يخاطب جميع فئات المجتمع وهذه ميزة من الميزات العظيمة التي يجب أن يتحلَّىٰ بها من يتصدىٰ للدعوة إلى الله حتى يعم نفعه ويصل خيره إلى أكبر عدد من الناس.

ومع هذا فإن اشتغال الشيخ عبدالقادر بالعلم والوعظ والتدريس لم يمنعه من التأليف، والتصنيف، فقد ترك ثروة علمية تناولت مختلف العلوم وهذه المؤلفات يمكن تقسيمها إلى قسمين:

القسم الأول: ما صنَّفه وكتبه بنفسه وهذا قام بتصنيفه استجابة لإلحاح إخوانه وتلاميذه حيث يقول في مقدمة كتابه «الغنية»: «ألح عليَّ بعض أصحابي وشدّد في الخطاب في تصنيف هذا الكتاب لحسن ظنه في الإصابة والصواب والله هو العاصم في الأقوال

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام لأبي الحسن الندوي (١/ ٢٥١).

والأفعال، والمطلع على الضمائر والنيات والمنعم المتفضل بتسهيل ما أراد وإليه عزَّ وجلَّ الالتجاء بتطهير القلوب من الرياء والنفاق، وإبدال السيئات بالحسنات إنه غافر للذنوب والخطيئات وقابل التوبة من العباد، فلما رأيت صدق رغبته في معرفة الآداب الشرعية من الفرائض والسنن والهيئات ومعرفة الصانع عز وجل بالآيات والعلامات».

إلى أن قال: «فأجبته إلى ذلك وسارعت مشمراً مبتغياً محتسباً للثواب راجياً للنجاة في يوم الحساب إلى جمع هذا الكتاب بتوفيق رب الأرباب الملهم للصواب»[١].

القسم الثاني: لم يقم بتأليفه بنفسه وإنما قام بعض طلاَّبه بجمعه وترتيبه من أقواله وأوراده وأذكاره وإن كان هذا القسم قد نسب إليه فيما بعد من قبل بعض المؤرخين والنساخ وسوف نتحدث عن كل قسم على حدة بمشيئة الله تعالى.

أولاً: القسم الذي قام بتأليفه بنفسه، وهو ثلاثة كتب فقط:

١ـ الغنية لطالبي الحق عز وجل. ويتكوَّن من جزئين مقسمة إلى خمسة أقسام:

القسم الأول: في الفقه وأنواع العبادات كالصلاة والزكاة والصيام، والحج والآداب والأذكار.

القسم الثاني: في العقيدة وقضايا الإيمان والتوحيد، والنبوات، والمعاد، وأهل البدع من الفرق الضالة والنحل والملل المنحرفة.

القسم الثالث: بعض المجالس المتعلقة بالقرآن الكريم والتوبة

---

(١) الغنية للجيلاني (١/١).

والتقوى، وصفة الجنة والنار، وفضائل بعض الشهور والأيام.

القسم الرابع: تفصيلات بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالصيام والصلاة والدعاء.

القسم الخامس: في التصوف وآداب المريدين وآداب الصحبة وجملة من الأحوال والمقامات.

وهذا الكتاب من أحسن كتب الفقه والعقائد والآداب كتبه بأسلوب سهل وبعبارة مبسطة وعزَّزه بالأدلة الصريحة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لولا ما احتوى عليه من بعض الصلوات المبتدعة والأذكار والأدعية مما سيتم التنبيه عليه في ثنايا هذه الرسالة بمشيئة الله تعالى.

وهذا الكتاب قد نسبه إليه غالب من ترجم له. قال ابن كثير في البداية والنهاية: «وقد صنَّف كتاب الغنية وفتوح الغيب وفيهما أشياء حسنة وذكر فيهما أحاديث ضعيفة وموضوعة»[١].

ويقول ابن رجب في الذيل على الطبقات: «وله كتاب الغنية وهو معروف»[٢].

والكتاب مطبوع ومتداول وموجود في معظم المكتبات وبعدة طبعات اطلعت على ثلاث منها: الأولى: طباعة دار الحرية ببغداد عام ١٤٠٨هـ، والثانية: طباعة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بالقاهرة عام ١٣٧٥هـ. والثالثة: طباعة دار الألباب بدمشق بدون تاريخ.

٢ـ فتوح الغيب: وهو كتاب يحتوي على العديد من المقالات

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ٢٧٠).

(٢) الذيل على الطبقات لابن رجب (١/ ٢٩٦).

والنصائح المفيدة والأفكار والآراء التي تتحدث عن كثير من القضايا كبيان حال الدنيا وأحوال النفس وشهواتها والتسليم لأمر الله. وبيان مقامات التوكل والخوف والرجاء، والرضا، إلى غير ذلك من المقالات والوصايا التي وجهها لأولاده.

والكتاب طبعته مكتبة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٩٢هـ ودار الألباب بدمشق سنة ١٤١٣هـ.

وقد نسبه إلى الشيخ عبدالقادر كل من ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة[١]، والإمام ابن كثير في البداية والنهاية[٢].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ رسالة ضمن فتاواه اشتملت على توضيح وتوجيه بعض جمله ومعانيه[٣].

غير أن صاحب قلائد الجواهر قد ذكر أن الكتاب المذكور من جمع وترتيب أحد تلاميذ الشيخ عبدالقادر وهو الشيخ زين الدين المرصفي الصياد[٤] من المواعظ التي كان يمليها في مدرسته ورباطه[٥] يؤيد ذلك أن كل مقالة تبدأ هكذا (قال رضي الله عنه كذا في المدرسة أو في الرباط).

وسواء كانت من تأليف الشيخ وكتابته بنفسه أو من إملاءاته على تلاميذه، فهي في النهاية تؤول إليه باعتبارها من آثاره.

إلاَّ أنه لابد من الإشارة إلى أنه ألحق بالكتاب المذكور بعض القصائد الشعرية المنسوبة إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني، والتي لا

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٦).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (١٢/ ٢٧٠).
(٣) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٠/ ٤٥٥) ومابعدها.
(٤) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من المصادر.
(٥) قلائد الجواهر للتادفي (٧).

نشك في عدم صحة نسبتها إليه، وذلك لما اشتملت عليه من الشركيات والضلالات التي لا يمكن أن تصدر منه ولايتوقع أن يطلع عليها شيخ الإسلام ابن تيمية ضمن اطلاعه على الكتاب ثم يغفلها ولا يشير إلى بطلانها وبيان ضلالاتها، مما يجعلنا نجزم بأنها مدسوسة على الكتاب وهذه بعض الأمثلة:

القصيدة الأولى وفيها:

أنـا كُنْـتُ قَبْـلَ القَبْـلِ قُطبـاً مُبَجَّـلاً
تَطُـوفُ بِـيَ الأَكْـوَانُ والـرَبُّ أَسْمَـانِـي

خَـرَقْـتُ جَمِيعَ الحُجُـبِ حَتَّـىٰ وَصَلْتَهُ
مَقَـامـاً بـه قَـدْ كَـانَ جَـدِّي لـه دَانِـي

وَقَـدْ كشَـفَ الأَسْتَـارَ عَـنْ نُـورِ وَجْهِـهِ
وَمِنْ خَمْرَةِ التَّوْحِيدِ بالكَأْسِ أَسْقَانِي

أَنَـا قُطْـبُ أَقْطَـابُ الـوجُـودِ بِـأَسْـرِهَـا
أَنَـا بَـازُهُـمْ والكُـلُّ يُـدْعَـىٰ بِغِلْمَـانِـي

وَلَــوْ أَنَّنِــي أَلْقَيْــتُ سِــرِّي لِـدَجْلَـةِ
لَغَـارَتْ وسَـارَ المَـاءُ فِـي سِـرِّ إِعْـلاَنِـي

وَلَـوْ أَنَّنِـي أَلْقَيْـتُ سِـرِّي إِلَـى لَظَـى
لأُخْمِـدَتْ النِّيـرَانِ مِـنْ عُظْـمِ سُلْطَـانِـي

وَلَــوْ أَنَّنِــي أَلْقَيْــتُ سِــرِّي لِمَيِّـتِ
لَقَـامَ بِـإِذْنِ اللهِ فِـي الْحَـالِ نَـادَانِـي[1]

(١) فتوح الغيب (١٧١).

والقصيدة الثانية وفيها:

ذِرَاعِـيَ مِـنْ فَـوْقِ السَّمٰـواتِ كُلِّهَـا
وِمِنْ تَحْتِ بَطْنِ الحُوتِ مَدَّيْتُ رَاحَتِي
وَأَعْلَـمُ نَبْـتَ الأَرْضِ كَـمْ مِـنْ نَبَـاتِـهِ
وأَعْلَـمُ رَمْـلَ الأَرْضِ كَـمْ هُـوَ رَمْلَـةِ
وأَعْلَـمُ عِلْـمَ اللهِ أُحْصِـي حُـرُوفَـهُ
وأَعْلَـمُ مَـوْجَ البَحْـرِ كَـمْ هُـوَ مَـوْجَـةِ
أَنَـا كُنْـتُ مَـعَ نُـوحٍ بِـأَعْلَـىٰ سَفِينَتِـهُ
بِحَـاراً وطُـوفَـانـاً عَلَـى كَـفِّ قُـدْرَتِـي
وكُنْـــتُ وَإِبْـــرَاهِيـــمُ مُلْقَـــى بِنَـــارِهِ
وَمَـــا بَـــرَدَ النِّيْـــرَانِ إلاَّ بِـــدَعْـــوَتِـــي
وَكُنْـتُ مَـعَ يَعْقُـوبَ فِـي غَشْـوِ عَيْنِـهِ
وَمَـــا بَـــرَأَتْ عَيْنَـــاهُ إِلاَّ بِتَفْلَتِـــي
أَنَـا كُنْـتُ مَـعْ أَيُّـوبَ فِـي زَمَـنِ البَـلاَ
وَمَـــا بَـــرَأَتْ بَلْـــوَاهُ إلاَّ بِـــدَعْـــوَتِـــي
أَنَــا الــوَاحِــدُ الفَــرْدُ الكَبِيــرُ بِــذَاتِــهِ
أنا الْوَاصِفُ المَوْصُوف عَلَم الطَّرِيقَتِي
مَلَكْـــتُ بِـــلاَدَ اللهِ شَـــرْقـــاً ومغـــربـــاً
وَإِنْ شِئْـــتُ أَفْنَيْـــتُ الأَنَـــامَ بِلَحْظَتِـــي[١]

وأدهى من ذلك القصيدة الثالثة المسماة بالخمرية والمشهورة عند عوام الطريقة بالغوثية والتي يزعمون أن من خواصها أن من داوم على قراءتها كل يوم إحدى عشرة مرة يصير مقبولاً عند الله ومحبوباً

(١) فتوح الغيب (١٨٦).

عند الخلق ومن قرأها زاد فهمه بالعربية وإن لم يكن من أهلها. إلى غير ذلك من الجهالات والضلالات. وقد جاء في تلك القصيدة من الشركيات الشيء الكثير مثل:

نَظَـــرْتُ إِلَـــى بِـــلادِ اللهِ جَمْعـــاً
كَخَـــرْدَلَـــةٍ عَلَـــىٰ حُكْـــمِ اتِّصَـــالِـــي
فَلَـــوْ أَلْقَيْـــتُ سِـــرِّي فَـــوْقَ نَـــارٍ
لَخَمَـــدَتْ وانْطَفَـــتْ مِـــنْ سِـــرِّ حَـــالِـــي
وَلَـــوْ أَلْقَيْـــتُ سِـــرِّي فَـــوْقَ مَيْـــتٍ
لَقَـــامَ بِقُـــدْرَةِ المَـــوْلَـــىٰ مَشَـــا لِـــي
وَلَـــوْ أَلْقَيْـــتُ سِـــرِّي فِـــي جِبَـــالٍ
لَـــدُكَّـــتْ وَاخْتَفَـــتْ بَيْـــنَ الـــرِّمَـــالِ
وَلَـــوْ أَلْقَيْـــتُ سِـــرِّي فِـــي بِحَـــارٍ
لَصَـــارَ الْكُـــلُّ غَـــوْراً فِـــي الـــزَّوَالِ[1]

وبطلان ما تضمنته تلك القصائد الشركية يغني عن التعليق عليها.

٣ـ كتاب الفتح الرباني والفيض الرحماني وهو كتاب يحتوي على وصايا وتوجيهات ومواعظ في اثنين وستين مجلساً من مجالس الـوعـظ والتعليـم، خـلال الفتـرة مـن ٣/ ١٠/ ٥٤٥هجـريـة حتـى ٦/ ٧/ ٥٤٦هجـريـة تـناول فيهـا العـديـد من القضـايـا في الإيمـان والإخلاص والسلوك وغير ذلك من الموضوعات وقد أشارت بعض المصادر إلى صحة نسبته إليه[2].

---

(١) فتوح الغيب (١٩٥).
(٢) الأعلام للزركلي (٤/ ٤٧).

وإذا قورن في عمومه بكتابيه السابقين نجد أنه يشبهها إلى حد كبير في الأسلوب والمواضيع المطروحة خصوصاً كتاب فتوح الغيب والكتاب طبعته مكتبة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٧٩م ومكتبة دار الألباب بدمشق.

ثانياً: القسم الذي كتبه بعض طلاَّبه ثم نسب إليه:

١ـ الأوراد القادرية وهو كتاب يشتمل على بعض الأدعية والأحزاب والصلوات المبتدعة والقصائد الشركية جمعها المدعو/ محمد سالم بواب وطبعتها دار الألباب بدمشق عام ١٩٩٢م، ونسبتها إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني، وهذه النسبة غير صحيحة لما اشتملت عليه تلك الأوراد من الضلالات التي لا يتصور صدورها منه وأغلب الظن أنها من وضع أتباعه الذين ابتدعوها ثم نسبوها إليه حتى تروج ويتم انتشارها[١].

٢ـ السفينة القادرية وهو كتاب اشتمل على ترجمة للشيخ عبدالقادر الجيلاني كتبها ابن حجر العسقلاني بعنوان «غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبدالقادر» كما اشتمل على بعض الصلوات والأوراد وعلى شرح لحزب الوسيلة المنسوب إلى الشيخ عبدالقادر والذي وضعه المدعو/ محمد الأمين الكيلاني والكتاب طبعته دار الألباب بدمشق عام ١٩٩١م، وبه من الصلوات المبتدعة والمنامات والألفاظ الشركية ما يؤيد عدم نسبة الكتاب إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني[٢].

٣ـ الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية. وهو من

---

(١) انظر الأوراد القادرية ص(٢١).

(٢) السفينة القادرية (١٠٤، ١٢٠، ١٥٣).

جمع وترتيب المدعو/ إسماعيل بن السيد محمد القادري، وقد نسبه الزركلي في الأعلام إلى الشيخ عبدالقادر وهذا وهمٌ منه[1] والكتاب يحتوي على كثير من البدع والخرافات والأوراد الشركية كما اشتمل على تقسيمات للنفس في مقامات الصوفية وهي تقسيمات لا دليل عليها، والكتاب مطبوع لدى مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة١٣٥٣هـ[2].

وكلام الشيخ عبدالقادر في الاعتقاد والسلوك كما سيأتي في الرسالة إن شاء الله يؤكد عدم صحة نسبة هذه الكتب إليه.

---

(١) الأعلام للزركلي (٤/٤٧).

(٢) الفيوضات الربانية (٣٤، ٤٢، ١٧٦).

المبحث الثاني
مكانته العلمية

بدأ الشيخ عبدالقادر الجيلاني حياته العلمية واعظاً ومدرساً فتكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له حديث بالزهد وأقام في مدرسته يدرس ويعظ إلى أن توفي[(١)].

ولما كان العصر الذي عاش فيه الشيخ عبدالقادر قد اتسم بالمد الصوفي، وشيوع الآراء الفلسفية وأحوال الروحانيات وعلوم النجوم والسحر والطلسمات، فقد كان كثيراً ما يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة «اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة»[(٢)].

وهذا مؤشر إلى تبرمه وعدم ارتياحه من كثرة الفرق والنحل والملل التي خالفت عقيدة السلف. ولهذا فقد كان يشيد بعقيدة السلف ويهاجم من يخرج عليها ويحذر الناس من اتباع الأهواء وترك الاقتداء والمتابعة للسابقين الأولين فيقول:

«واعلم أن لأهل البدع علامات يعرفون بها فعلامة أهل البدعة الوقيعة في أهل الأثر ـ يعني السلف ـ وعلامة الزنادقة تسمية أهل الأثر بالحشوية ويريدون إبطال الآثار وعلامة القدرية تسمية أهل الأثر مجبِّرة وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة وعلامة الرافضة تسميتهم أهل الأثر ناصبة، وكل ذلك عصبية وغياظ لأهل السنة ولا

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد (٤/١٩٨).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٤٤٢).

اسم لهم إلاَّ اسم واحد هو أصحاب الحديث ولا يلتصق بهم ما لقَّبهم به أهل البدع كما لم يلتصق بالنبي ﷺ تسمية كفار مكة له ساحراً وشاعراً ومجنوناً ومفتوناً وكاهناً ولم يكن اسمه عند الله وعند ملائكته وعند إنسه وجنِّه وسائر خلقه إلاَّ رسولاً نبيًّا بريئاً من العاهات كلها»[١].

وبالرغم من تفشي دعاوي الكرامات وما نقل عنه من وقوع الكثير منها على يديه مماهو صحيح وغير صحيح كما سنبينه إن شاء الله فيما بعد فإن منهجه السلفي الواضح جعله يفرق بين الكرامة والخرافة، وبين ما يمكن أن يكون من الله وما هو من كيد الشيطان، فقد نقل عنه أنه قال:

«تراءى لي نور عظيم ملأ الأفق ثم تدلى فيه صورة تناديني ياعبدالقادر أنا ربك، وقد أحللت لك المحرمات فقلت: إخسأ يالعين، فإذا ذلك النور ظلام وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني: ياعبدالقادر نجوت مني بعلمك بأمر ربك وفقهك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بهذه الواقعة سبعين من أهل الطريقة. فقلت: لله الفضل. فقيل له: كيف علمت أنه شيطان؟ قال: بقوله: قد أحللت لك المحرمات»[٢].

والكتاب الرئيسي من آثاره العلمية الذي نتمكن بواسطته من معرفة مكانته العلمية هو كتاب «الغنية» لطالبي الحق الذي سبق الحديث عنه. والذي أوضح في مقدمته أنه ألَّفه استجابة لطلب بعض أصحابه للتعريف بالآداب الشرعية من الفرائض والسنن والهيئات

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٨٠).
(٢) فتاوى ابن تيمية (١/ ١٧٢) والطبقات الكبرى للشعراني (١/ ١٠٩).

ومعرفة الصانع عز وجل بالآيات ولعلامات والاتعاظ بالقرآن والألفاظ النبوية ومعرفة أخلاق الصالحين[١].

أما عن تدينه وأخلاقه فإن كتب السير تذكر أنه كان مثالاً للصدق منذ طفولته. وقد ذكر الشطنوفي قصة تحكي مبلغ صدقه قال: قال الشيخ عبدالقادر:

«عندما استأذنت والدتي للسفر إلى بغداد طلباً للعلم، سلمتني أربعين ديناراً وخاطتها تحت إبط قميصي، وأوصتني بالصدق، وفي أثناء سفرنا خرج علينا ستون فارساً فأخذوا القافلة ولم يتعرض لي أحد فاجتازني أحدهم وقال لي: كم معك يافقير؟ فقلت: أربعون ديناراً. فقال: وأين هي؟ فقلت: مخاطة في قميصي تحت إبطي. فظنني أستهزيء به فتركني وانصرف. ومرَّ بي آخر فقال لي: مثل ما قال الأول، فأجبته كما أجبت الأول، فتركني وانصرف، وتوافيا عند مُقَدَّمِهِمْ فأخبراه بما سمعاه مني فقال: عليَّ به فأُتِيَ بي إليه، وإذا هم على تَلٍّ يقتسمون أموال القافلة فقال لي: ما معك؟ قلت: أربعون ديناراً. قال: وأين هي؟ قلت: مخاطة في قميصي تحت إبطي. فأمر به فَفُتِقَ فوجد فيه الأربعين ديناراً، فقال: ما حملك على الاعتراف؟ قلت: إن أمي عاهدتني على الصدق وإني لا أخون عهدها. فبكى المقدم وقال: أنت لم تَخُنْ عهد أمك وأنا لي كذا وكذا سنة أخون عهد ربي، فتاب على يديَّ فقال له أصحابه: أنت كنت مقدمنا في قطع الطريق وأنت الآن مقدمنا في التوبة فتابوا كلهم على يدي وردوا على القافلة ما أخذوا منهم»[٢].

---

(١) الغنية (١/ ١).

(٢) بهجة الأسرار للشطنوفي (٨٧)

إلاَّ أننا لانجزم بصحة وقوع هذه القصة إذ ليس من المعقول أن يبادر جميع اللصوص الذين تحجرت قلوبهم وتبلدت مشاعرهم من كثرة ارتكابهم لجرائم القتل والسلب والنهب، وهكذا من غير دعوة ولا سبق تمهيد أن يبادروا إلى التوبة دفعة واحدة دون أن يعترض منهم ولو بعضهم على الأقل وهم كما تقول القصة ستون فارساً، مما يقوي الشك في عدم صحتها ولكنها توحي بما يمكن قبوله مما يتلائم مع ما عرف عن الشيخ عبدالقادر من طيب الصفات وكريم الأخلاق.

ولعلَّ أبرز مظاهر مكانته العلمية دوره البارز الذي لعبه في علاج الهوة العميقة التي كانت قد حدثت بين العلماء والفقهاء من جهة وبين أقطاب التصوف من جهة أخرى فلقد بدأ دعوته في وقت كانت الأمة تمر بظروف حرجة للغاية حيث كثرت الفرق واشتدت الانحرافات وشاعت البلبلة الفكرية واتجه التصوف اتجاهاً شاذاً وابتعد عن الشريعة ابتعاداً كبيراً حتى لم يعد له صلة بها إلاَّ بخيوط الزعم والادعاء وأخذ أقطاب التصوف يقذفون العلماء بالتهم التي أقلها التمسك بحرفية النصوص التي لا تقل في نظرهم عن الابتعاد عن جوهر الدين واعتبروا الفقه علم الدنيا لا علم الدين، ومن أمثلة ذلك ما قاله أبويزيد البسطامي[1] للعلماء في عصره: «أخذتم علمكم

(١) طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي أحد الزهاد كان جده شروسان مجوسياً فأسلم، ورد عنه أشياء مشكلة لا مساغ لها وله شطحات كثيرة لا ندري عن ثبوتها منها قوله: سبحاني وما في الجبة إلاَّ الله. وما النار لأستندن إليها غداً وأقول اجعلني فداءاً لأهلها وإلاَّ بلعتها ما الجنة لعبة صبيان ومراد أهل الدنيا ما المحدثون أن خاطبهم رجل عن رجل فقد خاطبنا القلب عن الرب.

يقول الذهبي: إن ظاهر هذا الكلام إلحاد منها ما لا يصح أو يكون مقولاً عليه.

=

من علماء الرسوم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت»[(١)].

أما علماء السنة فقد اتهموا أقطاب التصوف بالزيغ والزندقة وذلك لأن بعض فرقهم أهملت شعائر الدين وفرائض الإسلام إهمالاً دفع بها في كثير من الأحيان إلى إنكار النصوص ورفضها رفضاً كاملاً.

وهكذا استمرت زاوية الانفراج في الاتساع على هذا النسق حتى القرن الخامس الهجري حيث حاول بعض العلماء التوفيق بين المعسكرين ومن أبرزهم الشيخ عبدالقادر الجيلاني الذي أعلن الحرب الشعواء على جميع الممارسات الصوفية المنحرفة متسلحاً بالحجج الدامغة من الكتاب والسنة حتى وصفه الشعراني بقوله: «كانت طريقته هي التوحيد وصفاً وحكماً وحالاً وتحقيقه الشرع ظاهراً وباطناً»[(٢)].

ويكفي في معرفة مكانة الشيخ عبدالقادر الجيلاني العلمية ثناء شيخ الإسلام ابن تيمية عليه ـ رحمه الله ـ والذي عرف بحملته القوية وحربه الضروس ضد الصوفية حيث انبرى لهم بالرد والإبطال وتفنيد المزاعم وإيضاح الحق خصوصاً القائلين بالحلول ووحدة الوجود مثال ذلك قوله: «من اعتقد ما يعتقد الحلاج من المقالات التي قتل الحلاج عليها فهو كافر مرتد باتفاق المسلمين فإن المسلمين إنما قتلوه على الحلول والاتحاد وغير ذلك من مقالات أهل الزندقة

= سير أعلام النبلاء (٨٦١٣).

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (١/ ٥).

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني (١/ ١١٠).

والإلحاد»[١].

ولكنه ـ رحمه الله ـ ينتصر للشيخ عبدالقادر الجيلاني ويوجه كلامه ويحيطه بهالة كبيرة من التقدير والاحترام وإذا استشهد ببعض أقواله قال: «قال الشيخ عبدالقادر قدَّس الله روحه»[٢].

وقد شهد شيخ الإسلام ابن تيمية للشيخ عبدالقادر بأنه من الشيوخ الكبار، قال: «وكلام الشيوخ الكبار كالشيخ عبدالقادر وغيره»[٣] ثم شهد له بأنه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشريعة الغراء فيقول: «والشيخ عبدالقادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق والقدر ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية»[٤].

ومرة وصفه بأنه من أئمة الدين فقال: «وقد قال: بعض الناس في هذا المعنى: الأمر أمران أمر فيه حيلة وأمرٌ لا حيلة فيه، فما فيه حيلة لا يعجز عنه وما لا حيلة فيه لا يجزع منه، وهذا هو الذي ذكره أئمة الدين كما ذكر الشيخ عبدالقادر وغيره. فإنه لابُدَّ من فعل المأمور وترك المحذور والرضا والصبر على المقدور»[٥].

ومما يشير إلى مكانة الشيخ عبدالقادر العلمية وعلو منزلته ثناء

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٢/ ٤٨٠).

(٢) فتاوى ابن تيمية (٢/٤٥٨).

وإطلاق قدَّس الله روحه لا حرج فيها فإن ذلك يراد به الدعاء بتطهير روحه. وأما تقديس الله عز وجل فهو تعظيمه وتنزيهه ومثال ذلك الصلاة، فالصلاة من الله الرحمة ومن العباد الدعاء.

انظر لسان العرب لابن منظور (٦/ ١٨٦). ومختار الصحاح للرازي (٢١٩).

(٣) فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٤٦٣).

(٤) فتاوى ابن تيمية (١٠/٤٨٨).

(٥) فتاوى ابن تيمية (١٠/٥٠٧).

كثير من العلماء عليه:

ـ قال القاضي أبوعبدالله محمد المقدسي، قال: سمعت شيخنا موفق الدين ابن قدامة يقول: دخلنا بغداد سنة ٥٦١هـ فإذا الشيخ الإمام محي الدين عبدالقادر ممن انتهت إليه الرئاسة بها علماً وعملاً وحالاً وإفتاءاً وكان يكفي طالب العلم عن قصده غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر وكان ملء العين وجمع الله فيه أوصافاً جميلة وأحوالاً عزيزة وما رأيت بعده مثله وكل الصيد في جوف الفراء»[١].

وكان يبذل أوقاتاً كثيرة في سبيل تعليم الناس الذين كانوا يحرصون على حضور دروسه على اختلاف مستوياتهم يقول ابنه عبدالوهاب: «كان والدي رحمه الله يتكلم في الأسبوع ثلاث مرات بكرة الجمعة وعشية الثلاثاء وبالرباط بكرة الأحد وكان يحضره العلماء والفقهاء والمشايخ وغيرهم ومدة كلامه على الناس أربعون سنة أولها ٥٢١هـ، وآخرها ٥٦١هـ، ومدّة تصدره للتدريس والفتوى بمدرسته ٣٣سنة أولها ٥٣٨هـ، وآخرها ٥٦١هـ، وكان يكتب ما يقول في مجلسه أربعمائة محبرة»[٢].

أما ذكاؤه وفطنته وقدرته على حل المعضلات من الحوادث والمسائل فيشهد لذلك ما ذكره ابنه عبدالرزاق بقوله: «جاءت فتوى من العجم إلى بغداد بعد أن عرضت على علماء العراقين عراق العجم وعراق العرب فلم يتضح لأحد منهم فيها جوابٌ شافٍ وصورتها: ما تقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه

(١) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٢٩٤).
(٢) بهجة الأسرار للشطنوفي (٩٥).

لابدَّ له أن يعبد الله عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها فما يفعل من العبادات؟ قال: فأتى بها إلى والدي فكتب عليها على الفور: يأتي مكة ويخلى له المطاف ويطوف أسبوعاً ـ أي سبعاً ـ وحده وتنحل يمينه قال: فما بات المستفتي ببغداد»[١].

وعندما ترجم له ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة قال: «شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة في وقته محي الدين أبومحمد صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف والأحوال المشهورة»[٢].

ويقول عنه ابن الجوزي: «تكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير»[٣].

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٢٩٤).

(٢) المرجع السابق (١/ ٢٩٠).

(٣) المرجع السابق (١/ ٢٩١).

الفصل الخامس
منهجه في توضيح العقيدة

المنهج هو الطريق الواضح السهل قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[١] أي طريقاً واضحاً بيّناً[٢].

ومن خلال دراسة مؤلفات الشيخ عبدالقادر الجيلاني لاحظت أن له منهجاً واضح المعالم في إيضاح القضايا التي يعالجها خصوصاً قضايا العقيدة يمكن تلخيصه فيما يلي:

أولاً: عرضه للعقيدة بأسلوب بياني بليغ سهل العبارة تجنح حركة الإيقاع فيه إلى التوازي والتوازن وهو توازن مبعثه توازن حركة النفس والرغبة في الإيضاح بعيداً عن التعقيد والغموض ومثال ذلك تعريفه للإيمان بقوله:

«ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل وبالتوفيق يقع»[٣].

وهذا العرض البليغ المبسط بعباراته المؤثرة تستهوي القارىء وتشده إلى مواصلة القراءة وهي موهبة يهبها الله من يشاء من عباده.

ويمكن وصف أسلوبه بالتكامل في الخطاب والإشهاد والاستشهاد أضف إلى ذلك سهولة اللفظ ووضوح المعنى والبساطة

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٢) لسان العرب لابن منظور (٢/ ٣٨٣).
(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٦٢).

في العرض، ويظهر هذا بوضوح من خلال مجالسه التي كانت تغص بالحاضرين من مختلف الطبقات مما يشهد بقدرته على جذبهم وشد انتباههم بروعة البيان وجمال الأسلوب.

ثانياً: حرصه على عدم الخروج عن مدلول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في إثبات الأسماء والصفات لله ـ عز وجل ـ يدل على ذلك قوله:

«ولا نخرج عن الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل».

وما ذهب إليه الشيخ عبدالقادر الجيلاني في هذا الأمر يعتبر قاعدة من قواعد المنهج السلفي الذي سار عليه علماء أهل السنة والجماعة في القديم والحديث وهذه بعض أقوالهم:

١ـ يقول الإمام الأوزاعي[(١)]: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه ونؤمن بماوردت به السنة» وهذا الكلام للأوزاعي رحمه الله له أهميته لاسيما وهو أحد الأئمة الكبار الذي يصفه ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بأنه أحد الأئمة الأربعة في عصر تابعي التابعين الذين هم مالك بن أنس إمام أهل الحجاز والأوزاعي إمام أهل الشام والليث بن سعد[(٢)] إمام أهل مصر والثوري[(٣)] إمام أهل العراق حكى شهرة القول في زمن التابعين

---

(١) عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي: إمام فقيه محدث مفسر نسبته إلى أوزاع من قرى دمشق، وأصله من سبي السند نشأ يتيماً وتأدب بنفسه ورحل إلى اليمامة والبصرة حتى برع، أراده المنصور على القضاء فأبى كان رأساً في العلم والعمل والاتباع وكثرة العبادة وكان صاحب سنة وله مذهب معروف في الفقه ومعمول به من قبل فقهاء الشام والأندلس. توفي سنة ١٥٧هـ.
شذرات الذهب (١/ ٢٤١). وسير أعلام النبلاء (٧/ ١٠٧).

(٢) الإمام المحدث الفقيه الليث بن سعد الفهمي ثقة ثبت إمام في العلم والعمل من أقران الإمام مالك مناقبه كثيرة. مات سنة ١٧٥هـ.
سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٦).

(٣) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري: شيخ الإسلام وإمام الحفاظ وسيد العلماء في =

بالإيمان بأن الله تعالى فوق العرش وبصفاته السمعية وإنما قال الأوزاعي هذا بعد ظهور مذهب جهم[1] المنكر لكون الله فوق عرشه والنافي لصفاته ليعرف الناس أن مذهب السلف كان يخالف هذا»[2].

٢ـ يذكر ابن عبدالبر[3] إجماع أهل السنة على إثبات الصفات الواردة في الكتاب والسنة فيقول:

«أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في الكتاب والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز إلاَّ أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك ولا يحدون فيه صفة محصورة. وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكرها

= زمانه ولد سنة ٩٧هـ يقول عن نفسه: ما استودعت قلبي شيئاً قط فخانني قال عنه سفيان بن عيينة وابن معين: هو أمير المؤمنين في الحديث كان كثير الذكر للموت والآخرة، وكان رأساً في الزهد والفقه.
سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٢٢٩).

(١) الجهم بن صفوان: من أهل خراسان تتلمذ على الجعد بن درهم، وعمل كاتباً للحارث بن سريج الذي أثار الفتن ضد المسلمين في خراسان فكان الجهم يقرأ سيرته ويدعو إلى توليته ويحرض الناس على الخروج ... وفي سنة ١٢٨هـ وقعت معركة بين أمير خراسان وجيش الحارث بن سريج وكان الجهم معه فطعنه رجل في فمه فقتله كان متكلماً صاحب ذكاء وجدل.
سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٦). والكامل لابن الأثير (٤/ ٢٩٢).

(٢) الفتوى الحموية لابن تيمية (ص٢٣).

(٣) الإمام العلامة حافظ المغرب شيخ الإسلام أبوعمر بن عبدالبر الأندلسي القرطبي صاحب التصانيف أدرك الكبار وطال عمره وعلا سنده، وجمع وصنف، ووثّق وضعّف وسارت بتصانيفه الركبان، وخضع لعلمه علماء الزمان قال عنه ابن حزم: لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله فكيف أحسن منه. مات رحمه الله سنة ٤٦٣هـ.
سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٥٣).

ولا يحمل شيئا منها على الحقيقة ويزعمون أن من أقرَّ بها مشبِّه وهم عند من أثبتها نافون للمعبود والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله وهم أئمة الجماعة والحمد لله»(١).

ولو ذهبنا نستقصي كلام أئمة أهل السنة والجماعة لطال بنا البحث لكثرة ما أكَّدوه في هذه المسألة الهامة من مسائل العقيدة ولكن فيما ذكرته كفاية(٢).

وإذا تتبعنا استدلال الشيخ عبدالقادر على أمور العقيدة وجدناه يسير على هذا المنهج فعلى سبيل المثال عند كلامه في اعتقاد أن القرآن كلام الله وكتابه وخطابه ووحيه الذي نزل به جبريل على رسول الله ﷺ استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾(٣) وبقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾(٤).

وهذا المنهج السليم هو الذي انتهجه علماء أهل السنة والجماعة خلافاً لمنهج الفلاسفة والمتكلمين الذين يقدمون القضايا العقلية على الآيات القرآنية ويجعلون القرآن محكوماً والعقل حاكماً.

لكن الشيخ عبدالقادر ـ رحمه الله ـ يورد القضايا ثم يسرد أدلتها بالإجمال دون أن يفصل موقفه مثال ذلك، وفي معرض

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر (٧/ ١٤٥).
(٢) للمزيد يمكن الاطلاع على كتاب الإبانة لأبي الحسن الأشعري ص(٢٠)، وعقيدة السلف للصابوني ص(٣)، والاعتقاد للبيهقي ص(٥٣)، ولمعة الاعتقاد لابن قدامة ص(٣) وغيرهم.
(٣) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣ـ١٩٥.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٦.

الحديث عن الصانع عز وجل: أورد حديث الصورة[١] «إن الله خلق آدم على صورته»[٢] ثم لم يبين موقفه من الحديث وعلى من يعود الضمير في لفظ صورته، وقد أوضحت كلام أهل العلم في هذه المسألة في ثنايا هذه الرسالة.

---

(١) رواه البخاري ح٦٢٢٧، ومسلم ح ٢٨٤١.
(٢) الغنية للجيلاني (١/ ٥٥).

ثالثاً: يذكر الشيخ عبدالقادر باستمرار أن عقيدته عقيدة السلف ويطلب من الله أن يميته على مذهب إمام أهل السنة والجماعة مثال ذلك قوله:

«قال الإمام أبوعبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني رحمه الله وأماتنا على مذهبه أصلاً وفرعاً وحشرنا في زمرته»[١].

ويقول: «عليكم بالاتباع من غير ابتداع عليكم بمذهب السلف الصالح امشوا في الجادة المستقيمة»[٢].

غير أنه في التطبيق يقع في بعض المخالفات مثل: البدع العملية في العبادات كتخصيص رجب وبعض الليالي والأيام ببعض العبادات وكبدعة التبرك وغيرها مما سنتحدث عنه بالتفصيل في ثنايا الرسالة بإذن الله رغم أنه يدعو إلى الاتباع ومحاربة الابتداع مثل قوله: «اتبعوا ولا تبتدعوا»[٣].

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٥٥).

(٢) الفتح الرباني، المجلس العاشر ص(٣٥).

(٣) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الثانية ص(١٠).

رابعاً : رفض تأويل المتكلمين.

من الطبيعي أن يكون منهجه رفض التأويل مادام يعتمد في استدلالاته على الكتاب والسنة كما أسلفنا لأن التأويل يقتضي تقديم العقل على النص فإذا تعارضا جرى تأويل النص بما يوافق العقل وهذا واضح من كلامه ـ رحمه الله ـ حيث يقول في صفة الاستواء:

«وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وأنه استواء الذات على العرش لا على معنى القعود والمماسة كما قالت المجسمة والكرامية ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة لأن الشرع لم يرد بذلك»[(١)]

وقد عاب أئمة الإسلام وعلماء السلف على أهل التأويل هذا المسلك، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وضعوا لأنفسهم قانوناً فيما جاءت به الأنبياء عن الله فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه هو ما ظنوه بعقولهم ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعاً له فما وافق قانونهم قبلوه وما خالفهم لم يتبعوه»[(٢)].

ويبين في موضع آخر أن القول بالتأويل قدح في الرسول ﷺ؛ لأن من زعم أن الرسول تكلم بما لا يدل إلاَّ على الباطل لا على الحق ولم يبين مراده وأنه أراد بذلك اللفظ المعنى الذي ليس بباطل وأنه أحال الناس في معرفة المراد على ما يعلم من غير جهته بآرائهم فقد قدح في الرسول ﷺ»[(٣)].

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٥٦).

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٦).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٣).

خامساً: الإمساك عما لم يرد ذكره في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من إثبات أو نفي.

وهذا واضح جلي في قوله ـ رحمه الله ـ:

«ونعوذ بالله من أن نقول فيه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله ﷺ»[(١)].

وعلى هذا درج علماء أهل السنة والجماعة فإن الناس لا يعلمون عن الله إلاَّ ما أعلمهم به في كتابه أو أعلمهم به رسوله ﷺ في سنته، ومن سوء الأدب وعدم توقير الرب عز وجل أن يثبت شخص صفة أو اسماً لم يرد بها دليل من كتاب أو سنة أو ينفي صفة أو اسماً لم يرد بها دليل من كتاب أو سنة. يقول ابن الماجشون[(٢)] ـ رحمه الله ـ:

«اعلم رحمك الله أن العصمة في الدين أن تنتهي في الدين حيث انتهى بك ولا تتجاوز ما قد حدَّ لك فإن من قوام الدين معرفة المعروف وإنكار المنكر فما بسطت عليه المعرفة ومكنت إليه الأفئدة وذكر أصله في الكتاب والسنة وتوارثت علمه الأمة فلا تخافنَّ في ذكره وصفته من ربك ما وصف من نفسه عيباً ولا تكلفن بما وصف لك من ذلك قدراً.

---

(١) الغنية للجيلاني (١/٥٧).

(٢) العلامة الفقيه مفتي المدينة/ عبدالملك بن عبدالعزيز بن عبدالله بن الماجشون، تلميذ الإمام مالك قال عنه ابن عبدالبر: كان فقيهاً فصيحاً دارت عليه الفتيا في زمانه، وعلى أبيه من قبله. توفي عام ٢١٣هـ.
سير أعلام النبلاء للذهبي (١٠/٣٥٩).

وما أنكرته نفسك ولم تجد ذكره في كتاب ربك ولا في حديث عن نبيك من ذكر صفة ربك فلا تكلفن علمه بعقلك ولاتصفه بلسانك وأصمت عنه كما صمت الرب عنه من نفسه»[١].

(١) نقله عنه ابن تيمية في الفتوى الحموية (١١٥).

سادساً: إعراضه عن علم الكلام.

من قواعد منهج الشيخ عبدالقادر في إيضاح العقيدة إعراضه عن علم الكلام وعدم اعتماده عليه؛ لأنه يرى أنه منشأ الضلالات التي وقع فيها القوم ولذا نقل في كتابه الغنية قول الإمام أحمد رحمه الله:

«لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلاَّ ما كان في كتاب الله عز وجل أو حديث عن النبي ﷺ أو عن أصحابه رضي الله عنهم أو عن التابعين فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود فلا يقال في صفات الرب عز وجل كيف ولم ولا يقول ذلك إلاَّ شاك»[١].

وهذا هو الذي درج عليه علماء أهل السنة والجماعة الذين ذمَّوا علم الكلام وحذَّروا منه وبيَّنوا العواقب الوخيمة التي يفضي إليها منهم أبويوسف[٢] صاحب أبوحنيفة الذي يقول من طلب العلم بالكلام تزندق.

أما الشافعي ـ رحمه الله ـ فقد كان أكثر الأئمة صرامة في التعامل مع أهل علم الكلام حيث يقول: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب السنة وأقبل على الكلام، ولقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما كنت أظنه ولئن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا

---

(١) الغنية للجيلاني (١/٥٦).

(٢) الإمام الفقيه يعقوب بن إبراهيم الأنصاري صاحب أبي حنيفة وناشر مذهبه جمع بين الرواية والدراية وقد ولي القضاء وهو أول من دعى بقاضي القضاة أيام المهدي وتوفي في عهد الرشيد سنة ١٨٢.
شذرات الذهب (١/٢٩٨).

الإشراك بالله خير من أن يبتلى بالكلام.

وكذا الإمام أحمد يقول: «ما ارتدى أحد بالكلام فأفلح وقلَّ أحد نظر في الكلام إلاَّ كان في قلبه غلٌّ على أهل الإسلام»[١].

ولا أجد أفضل من أن أختم هذا الموضوع بذكر ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض من تورطوا في هذا الطريق وبلغت بهم الحيرة مبلغها فيقول:

«وأكثر الفضلاء العارفين بالكلام والفلسفة بل والتصوف الذين لم يحققوا ما جاء به الرسول حيارى كما أنشد الشهرستاني[٢] في أول كتابه[٣] كما قال:

قد أشار إلى من إشارته غنم وطاعته حتم أن أجمع له من مشكلات الأصول ما أشكل على ذوي العقول ولعله استسمن ذا ورم ونفخ في غير ضرم.

لَقَدْ طُفْتُ فِي تِلْكَ الْمَعَاهِدِ كُلِّهَا
وَسَيَّرْتَ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
فَلَمْ أرَ إلاَّ وَاضِعاً كَفَّ حَائِرٍ
عَلَىٰ ذَقَنٍ أَوْ قَارِعاً سِنَّ نَادِمِ

وأنشد أبوعبدالله الرازي[٤] في غير موضع من كتبه مثل كتاب:

---

(١) انظر إلى هذه الأقوال وغيرها في درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ٢٣٢).

(٢) محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني صاحب التصانيف الكثيرة متكلم بارع أخذ علم النظر والأصول عن أبي نصر العسكري من أشهر كتبه الملل والنحل توفي سنة ٥٤٨هـ.
شذرات الذهب (٤/ ١٤٩).

(٣) يشير إلى كتاب الشهرستاني نهاية الأقدام في علم الكلام وهو كتاب مطبوع بلندن سنة ١٩٣٤.

(٤) هو أبوعبدالله محمد بن عمر الطبرستاني الرازي ولد سنة ٦٤٤هـ، وأخذ العلم عن =

أقسام الذات لما ذكر أن هذا العلم أشرف العلوم، وأنه ثلاثة مقامات: العلم بالذات، والصفات، والأفعال، وعلى كل مقام عقدة. فعلم الذات عليه عقدة: هل الوجود هو الماهية أو زائد على الماهية؟ وعلم الصفات عليه عقدة: هل الصفات زائدة على الذات أم لا؟ وعلم الأفعال عليه عقدة: هل الفعل مقارن للذات أو متأخر عنها؟ ثم قال: ومن الذي وصل إلى هذا الباب أو ذاق من هذا الشراب ثم أنشد:

نِهَـايَـةُ إِقْـدَامُ العُقُـول عِقَـالُ
وَأَكْثَـرُ سَعْـيُ العَـالَمِيـنَ ضَـلَالُ
وَأَرْوَاحُنَـا فِـي وَحْشَـةٍ مِـنْ جُسُومِنَـا
وَحَـاصِـلُ دُنْيَـانَـا أذىً وَوَبَـالُ
وَلَـمْ نَسْتَفِـدْ مِـنْ بَحْثِنَـا طُـولَ عُمْـرِنَـا
سِـوَى أَنْ جَمَعْنَـا فِيـهِ قِيـلَ وَقَـالُـوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[1] و﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾[2].

= والده وله مصنفات مشهورة منها «مفاتيح الغيب في التفسير» وغيره، توفي سنة ٦٠٦هـ.
شذرات الذهب (٥/ ٢١).

(١) سورة طه، الآية: ٥.
(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.

واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[(١)] و﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[(٢)] و﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[(٣)] ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[(٤)].

ويقول ابن قتيبة[(٥)] وهو يكشف عوار هذا العلم: «وقد تدبرت مقالة أهل الكلام، فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون ويفتنون الناس بما يأتون، ويبصرون القذى في عيون الناس، وعيونهم تطرف على الأجذاع، ويتهمون غيرهم في النقل، ولا يتهمون آرائهم في التأويل ومعاني الكتاب والحديث، وما أودعاه من لطائف الحكمة، وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة، والتولد، والعرض، والجوهر، والكيفية والكمية، والأينية ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بها وضح لهم المنهج واتسع لهم المخرج ولكن يمنع من ذلك طلب الرئاسة وحب الأتباع»[(٦)].

وفي الختام فهذه أهم الجوانب البارزة في منهج الشيخ عبدالقادر في إيضاح العقيدة وسوف يتضح ذلك بمزيد من البيان والعرض والتحليل عند مناقشة مسائل العقيدة بالتفصيل في ثنايا هذه الرسالة والتي هي بمنزلة الجانب التطبيقي لهذه المعالم التي أوجزتها والله ولي التوفيق.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٠.
(٣) سورة مريم، الآية: ٦٥.
(٤) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/ ١٥٩).
(٥) العلامة الكبير أبومحمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة صاحب التصانيف كان رأساً في علم اللسان العربي والأخبار وأيام الناس، مات سنة ٢٧٦هـ. سير أعلام النبلاء للذهبي ١٣/ ٢٦٩.
(٦) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ١٢.

الباب الثاني

آراء الشيخ عبدالقادر الجيلاني الاعتقادية على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

وتحته ستة فصول :

الفصل الأول: الإيمان

الفصل الثاني: التوحيد

الفصل الثالث: النبوات

الفصل الرابع: اليوم الآخر ومقدماته

الفصل الخامس: البدعة وموقفه منها

الفصل السادس: الإمامة وطاعة الولاة والنصح لهم

الفصل الأول

الإيمـــان

وتحته خمسة مباحث:

المبحـــث الأول: تعريف الإيمان

المبحـــث الثاني: زيادة الإيمان ونقصانه

المبحـــث الثالث: الفرق بين الإيمان والإسلام

المبحـــث الرابع: الاستثناء في الإيمان

المبحث الخامس: مصير المؤمن صاحب الكبيرة

المبحث الأول

تعريف الإيمان

الإيمان في اللغة :

الإيمان: مصدر من آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن، وهو مشتق من الأمن.

قال الجوهري: الإيمان: التصديق[١].

وقال ابن منظور: الإيمان: معناه التصديق[٢].

وقال الرازي: الإيمان: التصديق[٣].

وقد انتقد شيخ الإسلام ابن تيمية من جعل الإيمان بمعنى التصديق ورد عليهم من وجوه كثيرة، ويرى أن أقرب لفظ له هو الإقرار[٤].

الإيمان في الاصطلاح :

اتفق أهل السنة والجماعة على أن الإيمان قول وعمل قول اللسان وعمل القلب والجوارح، وسوف نذكر أقوالهم بالتفصيل فيما بعد. أما الطوائف الأخرى فقد خالفت أهل السنة والجماعة في ذلك وأقوالهم كالتالي:

القول الأول: إن الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالقلب، ولا يدخل فيه العمل بالجوارح، وهذا القول هو قول حماد

---

(١) الصحاح للجوهري، ٥/٢٠٧١.

(٢) لسان العرب لابن منظور، ١٣/٢٣.

(٣) مختار الصحاح للرازي، ١١.

(٤) الفتاوى لابن تيمية، ٧/٥٢٩.

ابن أبي سليمان[(١)] وقول تلميذه أبي حنيفةومن تبعهم من الفقهاء[(٢)].

القول الثاني: أن الإيمان مجرد معرفة القلب وهو قول الجهمية[(٣)].

القول الثالث: أنه قول اللسان فقط. وهو قول الكرامية[(٤)].

القول الرابع: أنه التصديق وهو قول الأشاعرة.[(٥)]

القول الخامس: أنه العمل والنطق والاعتقاد وهو قول المعتزلة. وقد سبق بيان أن هذا هو قول أهل السنة لكن المعتزلة جعلوا الأعمال شرطاً في صحة الإيمان، أما أهل السنة والجماعة فيجعلونها شرطاً في كماله الواجب لا في كماله على الإطلاق[(٦)].

وقد وافق الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ أهل السنة والجماعة في تعريف الإيمان فقال:

«ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل

---

(١) حماد بن أبي سليمان العلامة الإمام، فقيه العراق، روى عن أنس وروى عنه تلميذه أبوحنيفة والأعمش وسفيان الثوري، كان أحد العلماء الأذكياء، والكرام الأسخياء، قال معمر: قلت لحماد كنت رأساً وكنت إماماً في أصحابك فخالفتهم فصرت تابعاً قال: إني أن أكون تابعاً في الحق خير من أن أكون رأساً في الباطل. قال الذهبي: يشير معمر إلى أنه تحول مرجئاً إرجاء الفقهاء، وهو أنهم لا يعدون الصلاة والزكاة من الإيمان ويقولون الإيمان إقرار باللسان ويقين في القلب. مات حماد سنة ١٢٠هـ (سير أعلام النبلاء، ٥/ ٢٣١).

(٢) شرح الفقه الأكبر، ١٤٨.

(٣) السنة لعبدالله بن أحمد، رقم ٥٩٤، مقالات الإسلاميين ١/ ٢١٣.

(٤) مقالات الإسلاميين للأشعري، ص١٤١. والكرامية هم أتباع محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥هـ، وهم طوائف متعددة من أهل الإثبات يغلب عليهم الإرجاء في الإيمان والتشبيه في الصفات ولديهم انحرافات أخرى. انظر الملل والنحل ١/ ١٠٨.

(٥) انظر التمهيد للباقلاني، ١/ ٣٨٨، والإرشاد للجويني، ٣٣٣.

(٦) انظر مقالات الإسلاميين، ٢٦٦.

بالأركان»[١].

وقال في موضع آخر:

«الإيمان قول وعمل. فالقول دعوى والعمل هو البينة، والقول صورة والعمل روحها»[٢].

وقد يُظن أن بين كلام الشيخ الأول وقوله الثاني تعارضاً، وفي الحقيقة لا تعارض بينهما؛ لأن السلف يريدون بالقول قول القلب وقول اللسان، وبالعمل عمل القلب وعمل اللسان.

وقد ورد عن السلف كلا اللفظين المذكورين عند الشيخ عبدالقادر ـ رحمه الله ـ.

فأما اللفظ الأول الذي يجعل الإيمان ثلاثة أشياء فورد عن جماعة منهم:

ـ الفضيل بن عياض[٣]: حيث قال: «الإيمان عندنا داخله وخارجه الإقرار باللسان والقبول بالقلب والعمل به)[٤].

---

(١) الغنية للجيلاني، ١/ ٦٢.

(٢) المرجع السابق، ١/ ٢.

(٣) الفضيل بن عياض: هو الإمام القدوة شيخ الإسلام المجاور لحرم الله سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يتسلق الجدار إليها سمع تالياً يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الحديد: ١٦. فقال: بلى يارب قد آن ثم رجع فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها سابلة فقال بعضهم: نرحل. وقال بعضهم: حتى نصبح فإن الفضيل على الطريق يقطع علينا. قال: ففكرت. وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين هاهنا يخافونني وما أرى الله ساقني إليهم إلاّ لأرتدع اللهم إني قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام وكان رحمه الله ثقة نبيلاً فاضلاً عابداً ورعاً كثير الحديث.

سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٢١.

(٤) السنة لعبدالله بن أحمد، رقم ٦٢٧.

ـ أبوثور[١]: إذ يقول: «الإيمان التصديق بالقلب والقول باللسان والعمل بالجوارح»[٢].

ـ الآجري[٣]: الذي عقد باباً في كتابه «الشريعة» فقال: «باب القول بأن الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح ولا يكون مؤمناً إلاّ أن تجتمع فيه هذه الخصال الثلاث»[٤].

وأما اللفظ الثاني الذي يجعل الإيمان شيئين فقط. فقد ورد كذلك عن جماعة من السلف منهم:

ـ الإمام مالك حيث قال: «الإيمان قول وعمل»[٥].

ـ الإمام أحمد الذي قال: «الإيمان قول وعمل»[٦].

ـ الإمام البخاري الذي ذكر أنه كتب عن ألف نفر من العلماء وزيادة ولم يكتب إلاّ عمن قال الإيمان قول وعمل[٧].

فالأقوال جميعها ما كان منها باللفظ الأول أو كان باللفظ

---

(١) أبو ثور: هو إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي البغدادي الفقيه أحد الأعلام روى عن ابن عيينة ووكيع وروى عنه مسلم خارج الصحيح وجماعة قال عنه النسائي هو أحد الفقهاء ثقة مأمون وقال ابن حبان كان أحد أئمة الدين فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً وخيراً صنّف الكتب وذبَّ عن السنة وقمع مخالفيها مات سنة ٢٤٠هـ.

وفيات الأعيان ١/٢٦.

(٢) شرح أصول أهل السنة والجماعة رقم ١٥٩٠.

(٣) الآجري: هو الإمام المحدث القدوة شيخ الحرم الشريف أبوبكر محمد بن الحسين الآجري صاحب التصانيف التي منها الشريعة كان صدوقاً خيراً عابداً صاحب سنة واتباع مات بمكة سنة ٣٦٠هـ وهو من أبناء الثمانين.

سير أعلام النبلاء للذهبي ١٦/١٣٣.

(٤) الشريعة للآجري، ١١٩.

(٥) السنة لعبدالله بن أحمد، رقم ٦٣٨.

(٦) المرجع السابق، رقم ٥٩٩.

(٧) شرح أصول أهل السنة والجماعة للالكائي رقم ١٥٩٧.

الثاني فإنها تشمل الاعتقاد والقول والعمل. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«إذا قالوا قول وعمل فإنه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعاً، وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام، ونحو ذلك إذا أطلق فإن القول المطلق والعمل المطلق في كلام السلف يتناول قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح فقول اللسان بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين وهذا لا يسمى قولاً إلاَّ بالتقييد كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1] وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب هي من أعمال المنافقين التي لا يقبلها الله فقول السلف يتضمن القول والعمل الباطن والظاهر»[2].

وبهذا يتبين مراد جمهور علماء أهل السنة والجماعة من تعريفهم الإيمان أحياناً بأنه قول وعمل وأحياناً بأنه قول اللسان وتصديق القلب وعمل الجوارح، وهو الذي ذكره الشيخ عبدالقادر الجيلاني كما تقدم.

---

(١) سورة الفتح، ١١.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية، ٧/ ١٧٠.

المبحث الثاني
زيادة الإيمان ونقصانه

من المسائل المتعلقة بتعريف الإيمان مسألة زيادته ونقصانه، والشيخ عبدالقادر الجيلاني في هذه المسألة يقرر أن الإيمان يزيد وينقص حيث يقول:

«ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان»[(١)].

وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[(٢)] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾[(٣)]. وقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾[(٤)(٥)].

وهذا القول موافق لما ذهب إليه سلف هذه الأمة من أهل السنة والجماعة من أن الإيمان يزيد وينقص وقد أورد الإمام اللالكائي ـ رحمه الله ـ أسماء جماعة من الصحابة والتابعين وأتباعهم ممن قال بهذا القول تحت عنوان: «سياق ما دلَّ أو فُسِّر من الآيات من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما روي عن الصحابة والتابعين من علماء أئمة الدين أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية».

ثم ذكر من قال هذا من الصحابة: ومنهم عمر بن

(١) الغنية للجيلاني، ١/ ٦٢.
(٢) سورة التوبة، ١٢٤.
(٣) سورة الأنفال، ٢.
(٤) سورة المدثر، ٣١.
(٥) الغنية للجيلاني، ١/ ٦٢.

الخطـاب[١]. وعبـدالله بـن عبـاس[٢]، وعبـدالله بـن مسعـود[٣] وآخرين[٤].

ومن التابعين: سفيان الثوري[٥]، ومجاهد[٦]، وسعيد بن جبير[٧]، وغيرهم.

ومن الفقهاء: مالك بن أنس[٨]، وجرير بن عبدالحميد[٩]، وأحمد بن حنبل[١٠] وغيرهم[١١].

وقد استدل أهل السنة والجماعة على القول بزيادة الإيمان ونقصانه بالآيات التي استدل بها الشيخ عبدالقادر الجيلاني السابق

---

(١) انظر: البخاري، رقم ٤٥، ومسلم، رقم ٣٠١٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري، ٦/٧٩.

(٣) انظر: صحيح مسلم، رقم ٩١.

(٤) مسألة زيادة الإيمان ونقصانه من المسائل الحادثة في أواخر عهد الصحابة ولم يثبت عن أكثر من أورد اللالكائي أسماءهم قول في ذلك، ولكنه أراد من قوله ذلك أن روايتهم للأحاديث الدالة على الزيادة والنقص يدل على قولهم إذ لا يمكن للصحابي أن يخالف روايته والله أعلم.

(٥) السنة لعبدالله بن أحمد، رقم ٦٠٤.

(٦) السنة لعبد الله بن أحمد، رقم ٦١١، ومجاهد هو ابن جبر شيخ القراء المفسرين عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وصفه يحيى بن معين بأنه ثقة. (سير أعلام النبلاء ٤/٤٤٩).

(٧) انظر: تفسير الطبري، ٣/٥٠ وسعيد بن جبير هو الإمام الحافظ المفسر الشهيد أحد الأعلام كان من كبار العلماء، قرأ على ابن عباس وكان كثير البكاء من خشية الله كثير الذكر للموت، قتله الحجاج عام ٩٥هـ. (سير أعلام النبلاء ٤/٣٢١).

(٨) السنة لعبد الله بن أحمد، رقم ٦٣٦.

(٩) السنة لعبد الله بن أحمد، رقم ٦٢٧، وجرير بن عبدالحميد هو الإمام الحافظ القاضي كان ثقة كثير العلم، يرحل إليه، قال عنه أبوالقاسم اللالكائي مجمع على ثقته مات سنة ١٨٩هـ. (سير أعلام النبلاء ٩/٩).

(١٠) السنة لعبدالله بن أحمد، رقم ٥٩٩.

(١١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ١٥٩٩.

ذكرها والتي نصت صراحة على زيادة الإيمان وما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقص.

كما استدلوا ببعض الأحاديث الصحيحة منها: قوله ﷺ: **«الإيمان بضع وستون شعبة أفضلها قول لا إله إلاَّ الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»**[١].

وقوله ﷺ: **«يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيقول الله ـ عز وجل ـ: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية»**[٢].

وقد بوَّب الإمام البخاري باباً في صحيحه لبيان زيادة الإيمان ونقصانه فقال: باب زيادة الإيمان ونقصانه ثم ساق الآيات السابقة وغيرها كما أورد حديث النبي ﷺ: **«يخرج من النار من قال لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلاَّ الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»**[٣].

وبهذا يتبين موافقة الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ لأهل السنة والجماعة في القول بزيادة الإيمان ونقصانه.

---

(١) رواه البخاري، ح ٩. ومسلم، ح ٣٥.
(٢) رواه البخاري، ح ٢٢. ومسلم، ح ١٨٣.
(٣) رواه البخاري، ح ٤٤.

المبحث الثالث

الفرق بين الإيمان والإسلام

هل الإيمان والإسلام بمعنى واحد أم أن بينهما فرقاً، ولكل منهما معنى يخالف الآخر.

هذه المسألة اختلفت فيها أقوال أهل السنة والجماعة.

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يذهب إلى القول بالتفريق بينهما فيقول:

«وأما الإسلام فهو من جملة الإيمان وكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيماناً»

وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[1].

وبحديث مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان[2][3].

وهذا القول يوافق أحد القولين المشهورين عند أهل السنة والجماعة. فقد اختلفوا في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: أن الإسلام والإيمان متغايران وأن بينهما فرقاً وإلى هذا يذهب جماعة من العلماء منهم:

١ـ الإمام الزهري[4]: حيث يرى «أن الإسلام الكلمة والإيمان

---

(١) سورة الحجرات: ١٤.

(٢) رواه البخاري، ح ٥٠. ومسلم، ح ٨.

(٣) الغنية للجيلاني، ١/٦٢.

(٤) محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، الإمام العالم حافظ زمانه ولد سنة ٥١هـ، يقول عن نفسه: ما استودعت قلبي شيئاً فنسيته، وكان يحفظ من مرة واحدة، =

العمل»[١].

٢ـ قال الإمام أحمد كما ذكره عنه عبدالملك الميموني[٢] «قال: قلت: لأبي عبدالله تفرق بين الإيمان والإسلام قال: نعم»[٣].

وكذلك ابنه صالح نقله عنه فقال: «سئل أبي عن الإسلام والإيمان. فقال: قال ابن أبي ذئب[٤]: الإسلام القول والإيمان العمل فقيل ما تقول أنت؟ قال: الإسلام غير الإيمان»[٥].

وأشار إلى هذا ابن عبدالبر فقال: «وقد ذهبت طائفة من أهل الحديث إلى أن الإيمان والإسلام معنيان»[٦].

وكذلك الإمام الأصبهاني[٧] يرى أنهما «اسمان لمعنيين فالإسلام عبارة عن الشهادتين مع التصديق بالقلب والإيمان عبارة عن جميع الطاعات»[٨].

= ويقول ما قلت لأحد قط أعد عليّ، وكان زاهداً لا يقيم للدنيا وزناً، مات سنة ١٢٤هـ. (سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٢٦).

(١) الإيمان لابن منده ١/ ٣١١.

(٢) عبدالملك بن عبدالحميد الميموني ثقة فاضل لازم الإمام أحمد أكثر من عشرين سنة. (تقريب التهذيب ١/ ٥٢٠).

(٣) السنة للخلاّل، ٣/ ٦٠٤.

(٤) محمد بن عبدالرحمن بن المغيرة بن أبي ذئب، ثقة فاضل فقيه توفي سنة ١٥٨هـ. (تقريب التهذيب ٢/ ٢٨٤).

(٥) السنة للخلاّل، ٣/ ٦٤٠.

(٦) التمهيد لابن عبدالبر، ٩/ ٢٤٩.

(٧) الحافظ الكبير شيخ الإسلام إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني الملقب بقوام السنة قال عنه أبوموسى المديني: إمام أئمة وقته وأستاذ علماء عصره وقدوة أهل السنة في زمانه وقال عنه يحيى بن منده كان حسن الاعتقاد جميل الطريقة قليل الكلام ليس في وقته مثله ولد سنة ٤٥٧هـ، وتوفي سنة ٥٣٥هـ.
تذكرة الحفاظ للذهبي (٤/ ١٢٧٧).

(٨) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني، ١/ ٤٠٦.

القول الثاني: أنه لا فرق بين الإسلام والإيمان وأنهما بمعنى واحد، وممن قال بذلك:

١ـ الإمام البخاري حيث بوّب في صحيحه فقال: «باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾[١] فإذا هو على الحقيقة فهو على قوله ـ جل ذكره ـ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٢] ويقصد البخاري ـ رحمه الله ـ من الإسلام الحقيقة الشرعية والذي يرادف الإيمان وينفع عند الله»[٣].

٢ـ وكذلك محمد بن نصر المروزي[٤] يرى أن الإيمان هو الإسلام فيقول: «وقالت طائفة وهم الجمهور الأعظم من أهل السنة والجماعة وأصحاب الحديث الإيمان الذي دعا الله العباد إليه وافترضه عليهم هو الإسلام الذي جعله ديناً ارتضاه لعباده ودعاهم إليه، وهو ضد الكفر الذي سخطه فقال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ

---

(١) سورة الحجرات: ١٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٩.

(٣) انظر: فتح الباري: ١/٩٩.

(٤) محمد بن نصر المروزي: هو شيخ الإسلام أبوعبدالله الحافظ، قال عنه الحاكم: إمام عصره بلا مدافعة في الحديث. قال عنه الذهبي: كان أعلم الأئمة باختلاف العلماء على الإطلاق. وقال عنه ابن حزم: أعلم الناس من كان أجمعهم للسنن وأضبطهم لها وأذكرهم لمعانيها وأدراهم بصحتها وبما أجمع الناس عليه مما اختلفوا فيه وما نعلم هذه الصفة بعد الصحابة أتم منها في محمد بن نصر المروزي فلو قال قائل: ليس لرسول الله ﷺ حديث ولا أصحابه إلاّ وهو عند محمد بن نصر لما أبعد عن الصدق. مات ـ رحمه الله ـ سنة ٢٩٤هـ.
سير أعلام النبلاء للذهبي ١٤/٣٣.

ٱلْكُفْرَ﴾[١] وقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٢] وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾[٣]. وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[٤] فمدح الله الإسلام بمثل ما مدح به الإيمان وجعله اسم ثناء وتزكية فأخبر أن من أسلم فهو على نور من ربه وهدى وأخبر أنه دينه الذي ارتضاه»[٥].

وإلى هذا الرأي يذهب ابن عبدالبر حيث قال: «الذي عليه جماعة أهل الفقه والنظر أن الإيمان والإسلام سواء بدليل ما ذكرنا من كتاب الله عز وجل قوله ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا

(١) سورة الزمر: ٧.
(٢) سورة المائدة: ٣.
(٣) سورة الأنعام: ١٢٥.
(٤) سورة الزمر: ٢٢.
(٥) تعظيم قدر الصلاة للمروزي، ٢/٥٢٩. وقد تعقب ابن تيمية ـ رحمه الله ـ محمد بن نصر في كلامه هذا فقال: مقصود محمد بن نصر المروزي ـ رحمه الله ـ أن المسلم الممدوح هو المؤمن الممدوح وأن المذموم ناقص الإسلام والإيمان وإن كل مؤمن فهو مسلم وكل مسلم فلابد أن يكون معه إيمان وهذا صحيح وهو متفق عليه ومقصوده أيضاً أن من أطلق عليه الإسلام أطلق عليه الإيمان وهذا فيه نزاع لفظي ومقصوده أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر وهذا لا يعرف عن أحد من السلف وإن قيل هما متلازمان فالمتلازمان لا يجب أن يكون مسمى هذا هو مسمى هذا وهو لم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا أئمة الإسلام المشهورين أنه قال: مسمى الإسلام هو مسمى الإيمان كما نصر بل ولا عرفت أنا أحداً قال ذلك من السلف ولكن المشهور عن الجماعة من السلف والخلف أن المؤمن المستحق لوعد الله هو المسلم المستحق لوعد الله فكل مسلم مؤمن وكل مؤمن مسلم وهذا متفق على معناه بين السلف والخلف بل وبين فرق الأئمة كلهم يقولون: إن المؤمن الذي وعد بالجنة لابدَّ أن يكون مسلماً والمسلم الذي وعد بالجنة لابد أن يكون مؤمناً وكل من يدخل الجنة بلا عذاب من الأولين والآخرين فهو مؤمن مسلم.
فتاوى ابن تيمية ٧/ ٣٦٥.

﴿فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾[1] وعلى القول بأن الإيمان هو الإسلام جمهور أصحابنا وغيرهم من الشافعية والمالكية وهو قول داود[2] وأصحابه وأكثر أهل السنة والنظر المتبعين للسلف والأثر إلى أن قال والصحيح عندنا ما ذكرت لك»[3].

٣ـ وكذلك الإمام ابن منده[4] حيث عقد باباً لذلك فقال: «ذكر الأخبار الدالة والبيان الواضح من الكتاب أن الإيمان والإسلام اسمان لمعنى واحد وأن الإيمان الذي دعا الله العباد إليه وافترضه عليهم هو الإسلام الذي جعله الله دينا وارتضاه لعباده ودعاهم إليه وهو ضد الكفر الذي سخطه ولم يرضه لعباده»[5].

والذي يظهر لي أن الخلاف بين أهل السنة والجماعة له احتمالان:

الأول: أن يكون القائلون بأنهما شيء واحد أرادوا بذلك إذا وردا منفردين فلا شك أن هذا صحيح. فإن الإسلام إذا جاء وحده

(١) سورة الذاريات: ٣٥، ٣٦.

(٢) داود: هو داود بن علي الإمام البحر الحافظ العلامة حافظ الوقت رئيس أهل الظاهر. له زلأت في القول بخلق القرآن وبنفي القياس. قال الذهبي: وفي الجملة فداود بن علي بصير بالفقه عالم بالقرآن حافظ للأثر رأسٌ في معرفة الخلاف من أوعية العلم. له ذكاء خارق وفيه دين متين وكذلك في فقهاء الظاهرية جماعة لهم علم باهر وذكاء قوي فالكمال عزيز والله الموفق.
سيلا أعلام النبلاء للذهبي ١٣/٩٧.

(٣) التمهيد لابن عبدالبر، ٩/ ٢٥٠.

(٤) ابن منده: هو الإمام الحافظ محدث الإسلام محمد بن إسحاق بن منده. قال عنه الذهبي: لم أسمع أحداً كان أوسع رحلة منه ولا أكثر حديثاً منه مع الحفظ والثقة، وقد بلغنا أن عدة شيوخه ١٧٠٠ شيخ من تصانيفه كتاب الإيمان والتوحيد وغيرهما.
سير أعلام النبلاء للذهبي ١٧/٢٨.

(٥) الإيمان لابن منده، ١/ ٣٢١.

دخل فيه الإيمان، وكذلك العكس فلا خلاف حينئذ بين القولين.

الثاني: أنهم أرادوا أن مسمى كل واحد هو مسمى الآخر وإن اجتمعا، فلا شك أن هذا مرجوح؛ للأدلة الكثيرة التي فرقت بينهما، ومن أشهرها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[1] فقد عطف الإيمان على الإسلام، والشيء لا يعطف على نفسه فعلم أن الإيمان معنى زائد على الإسلام، وكذلك حديث جبريل والذي فرق فيه النبي ﷺ بينهما بإجابتين مختلفتين، ولو كانا شيئاً واحداً لكانت الإجابة واحدة وهذا الذي رجحه جماعة من العلماء.

قال ابن رجب: «ووجه الجمع بين النصوص يتضح بتقرير أصل وهو أن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه فإذا قرن ذلك الاسم بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات، والاسم المقرون به دال على باقيها، وهذا كاسم الفقير والمسكين فإذا أفرد أحدهما دخل فيه كل من هو محتاج فإذا قرن أحدهما بالآخر دلَّ أحد الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات والآخر على باقيها.

وهكذا اسم الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، ودلَّ بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده فإذا قرن بينهما دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ودلَّ الآخر على الباقي».[2]

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٥.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب، ٣٤.

المبحث الرابع
الاستثناء في الإيمان

هذه المسألة معروفة عند العلماء باسم الاستثناء في الإيمان وهي أن يقول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله. والشيخ عبدالقادر الجيلاني لا يُجوِّزُ دعوى الإيمان المطلق من غير استثناء بل ويوجب على مدعي الإيمان أن يستثني قال ـ رحمه الله ـ: «ولا يجوز للمؤمن أن يقول أنا مؤمن حقاً بل يجب أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله»[(١)].

وقد تعددت أقوال الناس في الاستثناء في الإيمان إلى أقوال ثلاثة أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ طرفان ووسط:

الأول: تحريم الاستثناء.

الثاني: إيجاب الاستثناء.

الثالث: وسط بينهما وهو جوازه.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ القول الأول: «تحريم القول به وهم المرجئة[(٢)] والجهمية[(٣)] ونحوهم ممن يجعل الإيمان شيئاً واحداً

(١) الغنية للجيلاني، ١/٦٣.

(٢) المرجئة: من الفرق التي احتلت مكانا كبيراً من اهتمام العلماء لبيان معتقداتهم التي تتلخص في بعض المسائل الهامة كتعريف الإيمان بأنهم التصديق أو المعرفة بالقلب، وأن العمل ليس داخلاً في حقيقة الإيمان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأن أصحاب المعاصي مؤمنون كاملوا الإيمان، وقد وجد الفساق في هذا المذهب باباً لكل مفسدة ولهذا قال زيد بن علي: «أبرأ إلى الله من المرجئة الذين أطمعوا الفساق في عفو الله» انظر الملل والنحل، ص١٣٩، بتصرف.

(٣) الجهمية: إحدى الفرق الكلامية ذات الآراء الخاطئة في مفهوم الإيمان وصفات =

يعلمه الإنسان من نفسه كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه فيقول أحدهم: أنا أعلم أنني مؤمن كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين، وكما أعلم أني قرأت الفاتحة، وكما أعلم أني أحب رسول الله وأني أبغض اليهود والنصارى فقولي: أنا مؤمن كقولي أنا مسلم وكقولي تكلمت بالشهادتين وقرأت الفاتحة وكقولي أنا أبغض اليهود والنصارى، ونحو ذلك من الأمور الحاضرة التي أنا أعلمها وأقطع بها، وكما أنه لا يجوز أن يقال: أنا قرأت الفاتحة إن شاء الله كذلك لا يقول أنا مؤمن إن شاء الله لكن إذا كان يشك في ذلك فيقول فعلته إن شاء الله، قالوا: فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه وسموهم الشكاكة».

القول الثاني: إيجاب القول بالاستثناء، وأنه يجب على المسلم أن يستثني ولا يجزم بأنه مؤمن وهو قول القاضي أبويعلى[(١)] وغيره، واستدلوا على هذا القول بأمور:

١ـ أنه لو جاز القطع على أنَّا مؤمنون لكان ذلك قطعاً على أنا في الجنة؛ لأن الله وعد المؤمنين بالجنة ولا يجوز القطع على الوعد بالجنة؛ لأن من شرط ذلك الموافاة بالإيمان ولا يعلم ذلك إلاَّ

= الباري عز وجل وأسمائه، وتنتسب إلى الجهم بن صفوان الذي دعا إلى كثير من البدع، وإطلاق لفظ الجهمية له معنيان عند العلماء معنى خاص وآخر عاماً فالخاص يقصد به من قال بأقوال جهم كلها أو بعضها كنفي الصفات، والقول بالجبر، والقول بفناء الجنة والنار. وأما العام فيقصد به نفاة الصفات عامة.
انظر سير أعلام النبلاء، ٦/٢٦، والفرق بين الفرق، ٢١١.

(١) شيخ الحنابلة القاضي محمد بن الحسين المشهور بأبي يعلى قال عنه الذهبي: كان إماماً لا يدرك قراره ولا يشق غباره، وجميع الطائفة معترفون بفضله ومغترفون من بحره. له بعض الأخطاء الكلامية توفي سنة ٤٥٨هـ.
سير أعلام النبلاء، ١٨/٨٩، شذرات الذهب، ٣/٣٠٦.

الله، وكذلك الإيمان إنما يحصل بالموافاة ولا يُعْلَم ذلك ولهذا قال ابن مسعود: هلا وَكَلَ الأولى كما وَكَلَ الآخرة. يريد بذلك ما استدل به من أن رجلاً قال عنده: إني مؤمن فقيل لابن مسعود: هذا يزعم أنه مؤمن قال: فسلوه أفي الجنة هو أو في النار فسألوه فقال: الله أعلم. فقال عبدالله: فهلا وَكَلْتَ الأولى كما وَكَلْتَ الثانية.

٢ـ أن الاسم عند الإطلاق يقتضي الكمال وهذا غير معلوم للمتكلم كما قال أبوالعالية: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه لا يقول إيماني كإيمان جبريل. فإخبار الرجل عن نفسه أنه كامل الإيمان خبر بما لا يعلمه.

٣ـ أن ذلك تزكية للنفس وقد قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾[1].

القول الثالث: القول بجواز الاستثناء دون إيجابه وهذا أصح الأقوال وهو مذهب أصحاب الحديث كابن مسعود[2] وأصحابه والثوري[3] وأكثر علماء الكوفة ويحيى بن سعيد القطان[4] وأحمد بن حنبل[5]

---

(١) النجم: ٣٢.

(٢) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني، ٤١٠.

(٣) السنة لعبدالله بن أحمد، رقم٦١٠.

(٤) المصدر السابق، رقم ٦٠٥.

والقطان هو يحيى بن سعيد بن فروخ القطان أمير المؤمنين في الحديث، ولد سنة ١٢٠هـ وانتهت إليه إمامة الحديث في زمانه وإمامة العلم والعمل ونقد الرجال. كان في الفروع على مذهب أبي حنيفة إذا لم يجد نصاً، مات سنة ١٩٨هـ.

سير أعلام النبلاء، ٩/ ١٧٥. وشذرات الذهب، ١/ ٣٥٥.

(٥) السنة للخلال، ٣/ ٥٩٣.

وغيره من أئمة الدين، فإنهم كانوا يستثنون وهذا متواتر عنهم ولكن ليس في هؤلاء من قال: أنا استثنى لأجل الموافاة وأن الإيمان إنما هو اسم لما يوافي به العبد ربه: بل صرح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء إنما هو لأن الإيمان يتضمن فعل الواجبات فلا يشهدون لأنفسهم بذلك كما لا يشهدون لها بالبر والتقوى فإن ذلك مما لا يعلمونه وهو تزكية لأنفسهم بلا علم[(١)].

لكن الروايات التي ساقها الخلال في كتاب السنة عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ توحي بتأكيده وتأييده الشديد للاستثناء واستحبابه وعدم تركه. لا على أساس أصل الإيمان وإنما على أساس العمل ولذا قال للرجل الذي يعيب عليه الاستثناء: أليس الإيمان قولاً وعملاً فقال الرجل: بلى قال فجئنا بالقول قال: نعم. قال: فجئنا بالعمل قال: لا. قال: فكيف تعيب أن نقول إن شاء الله ونستثني[(٢)].

ولعل هذا قولاً رابعاً فيكون الاستثناء مستحباً؛ لأن الاستحباب واسطة بين الإيجاب والجواز وهذا ما يفهم من كلام الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ.

فالسلف إذاً منهم من أوجب الاستثناء ومنهم من جوّزه ومنهم من استحبه.

وقول الشيخ عبدالقادر الجيلاني يتفق مع القول بالوجوب وهو مرجوح كما تقدم بيانه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية والله أعلم.

---

(١) انظر فتاوى شيخ الإسلام ٧/٤٢٩ ـ ٤٦٠، ٦٦٦ ـ ٦٦٩.
والمسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة ١/١١٧ ـ ١٢٤، والسنة للخلال، ٣/٥٩٣ ـ ٦٠١. والشريعة للآجري، ١٣٦.

(٢) السنة للخلال، ٣/٥٩٧.

المبحث الخامس
حكم مرتكب الكبيرة

أحكام مرتكب الكبيرة من مسائل العقيدة التي اختلفت فيها أقوال الناس وقد نحى الشيخ عبدالقادر الجيلاني منحى أهل السنة والجماعة من أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الملة وأنه فاسق بمعصيته واقع تحت المشيئة في الدار الآخرة إن شاء الله عذَّبه وإن شاء رحمه وأنه لا يكفر بها إذا مات على التوحيد حيث يقول:

«ونعتقد أن من أدخله الله النار بكبيرته مع الإيمان فإنه لا يخلد فيها بل يخرجه منها لأن النار في حقه كالسجن في الدنيا يستوفى منه بقدر كبيرته وجريمته ثم يخرج برحمة الله تعالى ولا يخلد فيها»[١].

ويقول في موضع آخر:

«ونعتقد أن المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة من الكبائر والصغائر لا يكفر بها وإن خرج من الدنيا بغير توبة إذا مات على التوحيد والإخلاص بل يُرَدُّ علمه إلى الله عز وجل إن شاء الله عفا عنه وأدخله الجنة وإن شاء عذبه وأدخله النار فلا يدخل بين الله وبين خلقه ما لم يخبرنا الله بمصيره»[٢].

وللناس في هذه المسألة أربعة أقوال:

الأول : أن مرتكب الكبيرة كافر في الدنيا مخلد في النار في الآخرة وهو قول الخوارج[٣].

---

(١) الغنية للجيلاني، ١/٦٥.

(٢) الغنية للجيلاني، ١/٦٥.

(٣) الملل والنحل، ١/١٢٤، ومقالات الإسلاميين ٨٦.

الثاني: أنه في منزلة بين منزلتين في الدنيا لكنه مخلد في النار في الآخرة وهو قول المعتزلة(١).

الثالث: أنه مؤمن كامل الإيمان وهو قول المرجئة المبني على معتقدهم بأنه لا يضر مع الإيمان معصية ولا مع الكفر طاعة(٢).

الرابع: أنه لا يسلب اسم الإيمان على الإطلاق، ولا يعطى له على الإطلاق وإنما نقول هو مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته، تحت مشيئة الله في الدار الآخرة إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، وهو مذهب أهل السنة والجماعة وهذه بعض أقوالهم:

١ـ قال الإمام أحمد: «ومن ترك الصلاة فقد كفر، وليس من الأعمال شيء تركه كفر إلاَّ الصلاة».

= والخوارج هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب بعد قبوله التحكيم عقب معركة صفين حيث اعتبروا التحكيم خطيئة تؤدي إلى الكفر، ومن ثمَّ طلبوا من علي أن يتوب من هذا الذنب، وانتهى بهم الأمر إلى الخروج عليه مما اضطره إلى قتالهم بعد أن قطعوا الطريق وقتلوا عبدالله بن خباب بن ا لأرت، ثم أطلق هذا اللفظ على كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة.
الملل والنحل للشهرستاني، ١/ ١١٤.

(١) انظر شرح الأصول الخمسة، ٦٩٧، والملل والنحل، ١/ ٤٥.
والمعتزلة فرقة نشأت في العصر الأموي وشغلت الفكر الإسلامي في العصر العباسي ردحاً من الزمن. ويرى أكثر المؤرخين أن رأس المعتزلة هو واصل بن عطاء، ممن كان يحضر مجلس الحسن البصري ثم اختلف معه في مسألة مرتكب الكبيرة واعتزل مجلسه، ويجمعهم الاعتقاد بالأصول الخمسة وهي التوحيد على طريقة الجهمية، والعدل على طريقة القدرية، والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على طريقة الخوارج، ويعتمد مذهبهم في الاستدلال على القضايا العقلية فكل مسألة يعرضونها على العقل فما قبله أقروه وما لم يقبله رفضوه.
تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة، ١٢٤.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني، ١/ ١٣٩.

وفي موضع آخر: «ومن لقيه مصراً غير تائب من الذنوب التي قد استوجب بها العقوبة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له»[١].

٢ـ قال الإمام ابن بطة[٢]: «ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام ولا يخرجه من الإسلام إلاَّ الشرك بالله، أو بردِّ فريضة من فرائض الله ـ عز وجل ـ جاحداً بها. فإن تركها تهاوناً وكسلاً كان في مشيئة الله عز وجل إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له»[٣].

٣ـ قال الإمام الصابوني[٤]: «ويعتقد أهل السنة أن المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة صغائر كانت أو كبائر فإنه لا يكفر بها، وإن خرج من الدنيا غير تائب منها، ومات على التوحيد والإخلاص فإن أمره إلى الله عز وجل إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة يوم القيامة سالماً غانماً غير مبتلى بالنار ولا معاقب على ما ارتكبه من الذنوب واكتسبه ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار، وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذَّبه لم يخلده فيها بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار»[٥].

٤ـ قال ابن عبدالبر: «فإن مات صاحب الكبيرة فمصيره إلى الله إن

---

(١) انظر رسالة عبدوس بن مالك عن الإمام أحمد، طبقات الحنابلة، ١/ ٢٤٣.

(٢) أبوعبدالله عبيدالله بن محمد العكبري الفقيه الحنبلي المعروف بابن بطة عالم بالحديث على ضعف فيه من قبل حفظه. اشتهر بالصلاح واستجابة الدعوة. وهو من المصنفين في السنة والاعتقاد توفي سنة ٣٨٧هـ. شذرات الذهب ٣/ ١٢٢.

(٣) الشرح والإبانة لابن بطة، ٢٠١.

(٤) الإمام العلامة القدوة شيخ الإسلام إسماعيل بن عبدالرحمن الصابوني، ولد سنة ٣٧٣هـ وصفه البيهقي بأنه إمام المسلمين حقاً، وشيخ الإسلام صدقاً، وقال عنه الذهبي كان من أئمة الأثر، له مصنف في السنة واعتقاد السلف ما رآه منصف إلاَّ واعترف له. سير أعلام النبلاء، ١٨/ ٤٠.

(٥) عقيدة السلف للصابوني، ٧١.

شاء غفر له وإن شاء عذبه فإن عذبه فبجرمه وإن عفا عنه فهو أهل العفو وأهل المغفرة»[١].

وقد استدل أهل السنة والجماعة على عقيدتهم في صاحب الكبيرة بالآتي:

أولاً من القرآن الكريم :

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾[٢]. ووجه الدلالة في الآية أن الله خاطب القاتل وناداه بنداء الإيمان مع ارتكابه لكبيرة القتل وأيضاً فقد سمى الله القاتل أخاً للمقتول والأخوة المقصودة هنا أخوة الدين[٣] وسماهم مؤمنين وجعلهم أخوة مع الاقتتال وبغي بعضهم على بعض بقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾[٤].

ثانياً من السنة المطهرة :

قوله ﷺ: «تعالوا بايعوني على ألاَّ تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر، ٤/ ٤٩.

(٢) البقرة: ١٧٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٢/ ٢٤٥.

(٤) الحجرات: ٩.

شاء عفا عنه. قال: فبايعناه على ذلك»[(١)][(٢)].

ثالثاً:

أن حدود الزنا والسرقة وشرب الخمر قد أقيمت في عهد النبي ﷺ ولم يحكم فيهم حكم من كفر ولا قطع الموالاة بينهم وبين المسلمين.

وهذا الموقف الموفق لأهل السنة والجماعة يتناسب مع مبدأ الوسطية الذي تميزوا به في كل شئون الدين وهم في هذه المسألة كانوا وسطاً بين الخوارج والمعتزلة من جهة والمرجئة من جهة أخرى فلم يصفوا الفاسق بالإيمان المطلق ولم يسلبوه منه بالكلية، وإنما قالوا هو مؤمن ناقص الإيمان هذا في الدنيا أما في الآخرة فقد جعلوه تحت مشيئة الله إن شاء غفر له ابتداءاً، وإن شاء عذَّبه بقدر ذنوبه ثم يخرجه من النار ويدخله الجنة.

ومما تقدم يتضح أن قول الشيخ عبدالقادر الجيلاني موافق لقول أهل السنة والجماعة.

---

(١) رواه البخاري، ح١٨، ومسلم، ح١٧٠٩.

(٢) انظر: التمهيد لابن عبدالبر، ٢٦/١٧.

الفصل الثاني

التوحيد

وتحته ستة مباحث:

المبحث الأول: توحيد الربوبية

المبحث الثاني: توحيد الألوهية

المبحث الثالث: توحيد الأسماء والصفات

المبحث الرابع: القرآن كلام الله المنزل

المبحث الخامس: رؤية الله عز وجل

المبحث السادس: القضاء والقدر

المبحث الأول
توحيد الربوبية

تعريف توحيد الربوبية لغة:

قال الجوهري: الرب اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ ولا يقال في غيره إلاَّ بالإضافة. والرباني المتأله العارف بالله تعالى ورب فلان ولده يربه رباً، وتربيه بمعنى رباه[١].

وقال الراغب الأصفهاني: الربوبية مصدر يقال في الله ـ عز وجل ـ والرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام ولا يقال الرب مطلقاً إلاَّ لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات وبالإضافة يقال: رب الدار[٢].

وقال ابن منظور: الرب يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربى والقيِّم والمنعم[٣].

تعريف توحيد الربوبية شرعاً:

هو الاعتقاد الجازم بأن الله ـ عز وجل ـ رب كل شيء ومليكه وخالق كل شيء والمتصرف في هذا الكون وحده لا شريك له. وأنه المنفرد سبحانه بالخلق والتدبير وتصريف الأمور لجميع المخلوقات.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فتوحيد الربوبية أنه لا خالق إلاَّ الله فلا يستقل شيء سواه بإحداث أمر من الأمور بل ما شاء كان وما لم

---

(١) الصحاح للجوهري (١/ ١٣٠).

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (١٨٤).

(٣) لسان العرب لابن منظور (١/ ٣٩٩).

يشأ لم يكن»[١].

ويقول ابن القيم[٢]: «فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل من في السموات والأرض عبدٌ له في قبضته وتحت قهره»[٣].

ومعناه نفي الشريك عن الله ـ عز وجل ـ في صفات الربوبية والتي من أبرزها الخلق والرزق والإحياء والإماتة والإقرار بأنه الخالق لهذا الكون كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾[٤].

وهذا النوع من التوحيد هو الأساس بالنسبة لأنواع التوحيد الأخرى؛ لأن الخالق المالك الرازق المدبر هو الجدير وحده بالتوجه إليه بالعبادة، كما هو الجدير وحده بأن يوصف بصفات الجلال والكمال وأن ينزه عن كل عيب ونقص.

ويعرِّف شارح الطحاوية[٥] توحيد الربوبية بأنه: «الإقرار بأن الله خالق كل شيء وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال وهذا التوحيد حق لا ريب فيه وهو الغاية عند كثير من أهل

---

(١) فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٣٣١).

(٢) محمد بن أبي بكر شمس الدين بن القيم : من أهل دمشق، من أركان الإصلاح الإسلامي وأحد كبار الفقهاء، تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتصر له، وقد سجن معه كثيراً وله تصانيف مشهورة.
الأعلام للزركلي (٦/ ٥٦).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٤).

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢.

(٥) علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الدمشقي: ولد سنة ٧٣١هـ وكان ذا فقه، شغل منصب قاضي القضاة في دمشق، ثم بالديار المصرية، توفي سنة ٧٩٢هـ.
انظر: الأعلام للزركلي (٤/ ٣١٣).

النظر والكلام وطائفة من الصوفية. وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات»[١].

الرسل والدعوة إلى توحيد الربوبية :

لم تكن المشكلة في حياة البشر في القديم والحديث هي عدم الإيمان بوجود الله. ولكن المشكلة كانت ولاتزال تكمن في عدم معرفة الإله الحق الذي يجب أن تُصرف له العبادة دون ما سواه، فمنذ نزول آدم ـ عليه السلام ـ وتسلسل ذريته وهم يعبدون الله، وعندما تنحرف البشرية عن العبادة الصحيحة وتقع في الشرك يرسل الله الرسل لتصحيح الوضع ولدعوة الناس إلى عبادته وحده. ولذا لم نجد رسولاً واحداً دعا قومه إلى الإيمان بوجود الله وإنما كانت الدعوة إلى توحيد الله يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[٢] وذلك لأن الإيمان بوجود الله قد استقر في فطر الناس وتمكن من قلوبهم.

والمشركون الذين خوطبوا بالقرآن كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ولم يكن لديهم اعتقاد في أن الأصنام التي يعبدونها أنها مشاركة لله في الخلق والرزق والإحياء والإماتة، فقد ذكر الله اعترافهم في كثير من الآيات منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ

(١) شرح الطحاوية (١/٢٨).

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦.

ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧﴾[1].

وعند تتبع ما كتبه الشيخ عبدالقادر الجيلاني في قضية توحيد الربوبية نلمس أنه لم يتوسع كثيرا عند الحديث عن معرفة الله عز وجل، بل اكتفى ببعض الإشارات المقتضبة فهو يشير إلى أن معرفة الله ـ عز وجل ـ فطرية وأن النفس مقرة له بعبوديتها وأن ذلك الإحساس نابع من داخل النفس البشرية.

قال ـ رحمه الله ـ: «النفس بأجمعها تابعة لربها موافقة له إذ هو خالقها ومنشؤها وهي مفتقرة له بالعبودية»[2].

فهو ـ رحمه الله ـ يؤكد هنا على إقرارها واعترافها بخالقها.

ثم إنه ـ رحمه الله ـ يشير إلى النظر إلى الآيات الكونية المبثوثة في الأنفس والآفاق، والذي يأتي في المرتبة الثانية بعد المعرفة الفطرية فيقول:

«أما معرفة الصانع ـ عز وجل ـ بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهي أن يعرف ويتيقين أن الله واحد، أحد، فرد صمد ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[3] ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾[4] لا شبيه له ولا نظير، ولا عون ولا ظهير، ولا شريك ولا وزير، ولا ندَّ ولا مشير»[5].

فالمسلم وإن كان في فطرته معرفة الله ـ عز وجل ـ لكنه بالنظر والتفكر في مخلوقاته سبحانه يزيد إيمانه ويقوى يقينه في خالقه ـ عز

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٨٦ـ٨٧.

(٢) فتوح الغيب للجيلاني المقالة العاشرة ص(٢١).

(٣) سورة الإخلاص، الآيات: ٢ـ٤.

(٤) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٥) الغنية للجيلاني (١/ ٥٤).

وجل ـ.

والشيخ عبدالقادر ـ رحمه الله ـ يؤكد هذا المعنى في مكان آخر فيقول:

«استدل بصنعة الله عليه، تفكر في الصنعة، وقد وصلت إلى الصانع، المؤمن الموقن العارف له عينان ظاهرتان، وعينان باطنتان، فيرى بالعينين الظاهرتين ما خلق الله في الأرض، ويرى بالعينين الباطنتين ما خلق الله في السموات»(١).

ويقول كذلك: **«أول ما ينظر العاقل في صفة نفسه وتركيبه ثم في جميع المخلوقات والمبدعات فيستدل بذلك على خالقها ومبدعها؛ لأن فيه دلالة على الصانع، وفي القدرة المحكمة آية على الحكيم»**(٢).

وأما قوله: **(اعرفوا الله ولا تجهلوه وأطيعوه ولا تعصوه، ووافقوه ولا تخالفوه، وارضوا بقضائه ولا تنازعوه واعرفوا الحق بصنعته، هو الخالق الرازق الأول الآخر والظاهر والباطن هو القديم الأول الدائم الأبدي الفعَّال لما يريد»**(٣).

فليس المراد به أن الإنسان لا يعرف الله لأن ذلك مما استقر في فطرة الإنسان كما سيأتي، وإنما مراده زيادة الطاعة لله ـ عز وجل ـ والرضا بقضائه وقدره، واستمرار التفكر في مخلوقاته ـ سبحانه ـ والذي أشار إليه بقوله: **«اعرفوا الحق بصنعته، هو الخالق الرازق»**.

وهذا المسلك الذي سلكه الشيخ عبدالقادر ـ رحمه الله ـ يتفق مع

---

(١) الفتح الرباني للجيلاني المجلس الثالث ص(١٦).

(٢) فتوح الغيب للجيلاني، مقالة ٧٤ (ص١١٣).

(٣) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الحادي عشر ص(٤٠).

مسلك أهل السنة والجماعة الذين كان اهتمامهم بهذا النوع ـ أعني توحيد الربوبية ـ محدوداً ولم يكن يشغلهم بمقدار ما شغلتهم قضايا العبادة وتوحيد الصفات، وإن لم تخل مؤلفاتهم من الإشارة إلى توحيد الربوبية.

الأدلة على توحيد الربوبية عند أهل السنة والجماعة

وجود الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وتفرده بالربوبية وكونه الخالق المدبر لهذا الكون لا يحتاج إلى دليل، إذ أن المستدل نفسه دليل على وجود خالقه، فإن المستدل مخلوق، ولا وجود لمخلوق بدون خالق، يقول ـ عز وجل ـ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[١].

فالإنسان لم يخلق من غير شيء؛ لأن غير الشيء عدم، والعدم لا يمكن أن يخلق شيئاً. وأيضاً الإنسان لم يخلق نفسه إذاً يتعين أن يكون له خالق، وهو الله ـ عز وجل ـ ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾[٢].

والأدلة والبراهين على توحيد الربوبية كثيرة لا يمكن حصرها، إذ أن كل ما في الوجود دليل على الله. يقول ـ عز وجل ـ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[٣].

ولكنني سأتعرض لبيان بعض الدلائل التي ذكرها علماء أهل السنة والجماعة والتي وردت بها النصوص في الكتاب الكريم والسنة المطهرة وهي كالتالي:

---

(١) سورة الطور، الآيات: ٣٥ـ٣٦.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٢.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

١ ـ دليل الفطرة :

الإيمان بوجود الله أمر فطري لا يحتاج إلى دليل أو برهان. فالفطرة السليمة مجبولة على الإقرار بوجوده ـ تبارك وتعالى ـ والإيمان به ـ عز وجل ـ مغروز في شعور كل إنسان عاقل، وهذا الشعور الفطري دليل من الأدلة الصادقة على وجود الخالق سبحانه، والذي لا ينكره سوى شراذم من شواذ البشر من الدهريين والملاحدة ثم لا يملكون إلاَّ اللجوء إليه عند الضرورات والشدائد.

وعلماء أهل السنة والجماعة يؤكدون على أن الله قد فطر الناس على الدين الحق، وأن هذه الفطرة لو سلمت من المعارض لبقيت على حالها من السلامة والاستقامة. يقول ابن جرير ـ رحمه الله ـ: مر عمر بن الخطاب بمعاذ بن جبل فقال: ماقوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهن المنجيات: الإخلاص وهو الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ والصلاة؛ وهي الملة، والطاعة؛ وهي العصمة. فقال عمر: صدقت.

ونُقل عن مجاهد أن فطرة الله هي الإسلام[١].

وفي رواية عبدالملك الميموني، قال: ـ أي الإمام أحمد ـ والذي نقول: كل مولود يولد على الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها. قلت: فما الفطرة الأولى هي الدين قال لي: نعم[٢].

وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «الإقرار بالله والاعتراف بالصانع ثابت في الفطرة كما قرره سبحانه في كتابه في مواضع فلا يحتاج هذا إلى دليل بل هو أرسخ المعارف وأصل الأصول»[٣].

---

(١) جامع البيان لابن جرير (٢١/ ٤٠).

(٢) أحكام أهل الملل للخلال (١٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٧٢).

ويقول في موضع آخر: «فالنفوس مفطورة على علم ضروري موجود فيها بالخالق الذي خلق السموات، وأنه خلق السموات والأرض ليس شيء منها خلق الناس كما قال موسى لفرعون لما قال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾[1] قال: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾[2] وقال: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾[3]»[4].

وقد استدل علماء أهل السنة والجماعة على ما ذهبوا إليه من أن الله قد فطر النفوس البشرية على الإيمان به والإقرار بربوبيته وحده لا شريك له بأدلة كثيرة منها:

أولاً من القرآن الكريم :

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[5]. فقد نقل الإمام ابن عبدالبر إجماع أهل التفسير على أن المقصود بالفطرة الإسلام حيث يقول: «أجمع أهل العلم بالتأويل على أن المرادبقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ الإسلام وهو المعروف عند عامة السلف»[6].

ثانياً من السنة المطهرة :

كما استدلوا بحديث النبي ﷺ الوارد في الصحيحين من

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٤.
(٣) سورة طه، الآيات: ٤٩-٥٠.
(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٣٨).
(٥) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٦) التمهيد لابن عبدالبر (١٨/ ٧٢). وانظر شفاء العليل لابن القيم (٥٦٣).

حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلاَّ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**»[(١)].

وبالحديث القدسي الذي أخرجه مسلم فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه ـ عز وجل ـ قال: «**إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم**»[(٢)].

ووجه الدلالة في هذين الحديثين واضح في أن الله فطر عباده على الإقرار به وعلى هذا كانت دعوة الرسل لتذكير الناس بما فطر في قلوبهم، ولم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد الذي فطروا عليه.

٢ـ دلالة الخلق:

هذا الكون الفسيح وهذه، العوالم الهائلة، والأجرام الضخمة، وتلك السموات والأرض، وما احتوته من المخلوقات البديعة والكائنات العجيبة، وهذا الإنسان وما فيه من الآيات كل هذا وغيره يشهد أن لهذا الكون خالقاً أبدعه ومدبراً أحكم أمره وسيَّره، والمتأمل في كتاب الله الكريم يجده مملوءاً بالآيات التي تدعو الإنسان إلى النظر والتفكر في تلك الدلائل القطعية المبثوثة في الآفاق وفي الأنفس والتي تشهد بعظمة الخالق سبحانه، وكمال قدرته وسعة علمه من مثل قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[(٣)].

---

(١) رواه البخاري، ح١٣٨٥، ومسلم ح٢٦٥٨.

(٢) رواه مسلم، ح/ ٢٨٦٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾[١].

وقد جمع الله معظم تلك الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾[٢].

والاستدلال بالآيات الكونية سواء ما كان منها متعلقاً بالمخلوقات عامة، أو ما كان متعلقاً بالإنسان خاصة منهج قويم من مناهج أهل السنة والجماعة حيث تتجلى رحمة الله بخلقه حين دلهم على نفسه بما نصب لهم من الأدلة الكونية المبثوثة في الآفاق وفي أنفسهم.

فهذا الإمام ابن منده يعقد فصولاً كثيرة في كتابه التوحيد ساق تحتها عدداً كبيراً في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال السلف للدلالة على وحدانية الله ـ عز وجل ـ. بدليل خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والجبال والهواء والماء وخلق الإنسان وانتقاله من طور النطفة إلى العلقة ثم إلى المضغة ثم العظام ثم إنشائه خلقاً آخر[٣].

والدلائل على وجود الله في الأنفس كثيرة جدًّا من أبرزها مظاهر الإحكام والعناية والإبداع بتركيب الأعضاء، وترتيب الحواس، وتنظيم الأجهزة المختلفة، مما لا يمكن معه الشك في وجود الخالق سبحانه. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «الاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٢٠، ٢١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٣) التوحيد لابن منده (١/ ١١٣-٢٣٤).

وهي طريقة عقلية صحيحة وهي شرعية دلَّ القرآن عليها وهدى الناس إليها، وبينها وأرشد إليها، وهي عقلية، فإن كون نفس الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن ومولوداً ومخلوقاً من نطفة ثم من علقة، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول ﷺ، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواءاً أخبر به الرسول ﷺ أو لم يخبر لكن الرسول ﷺ أمر أن يستدل به ودلَّ به وبينه واحتج به، فهو دليل شرعي لأن الشارع استدل به وأمر أن يستدل به وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته»[1].

وقد حث علماء أهل السنة والجماعة على النظر في الآيات الكونية والنفسية لزيادة الإيمان وإزالة الوساوس. يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

«لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره وفاطره من ماء إلى التبصر والتفكر في نفسه، فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية وسطعت له أنوار اليقين واضمحلت عنه غمرات الشك والريب»[2].

ويقول ـ رحمه الله ـ في كتاب آخر من كتبه: «وإذا تأملت ما دعى الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وثوابه وعقابه، فبهذا تعرَّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته»[3].

---

(١) النبوات لابن تيمية، ٩٢.

(٢) التبيان في أحكام القرآن (٣٠٣).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧).

٣ ـ دلالة المعجزة :

المعجزة: «أمر خارق للعادة داع إلى الخير والسعادة، مقرون بدعوى النبوة قصد بها إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله»(١).

وهي مقرونة بالتحدي سالمة من المعارضة وتكون إما حسية تشاهد بالبصر والسمع كخروج الناقة من الصخرة وانقلاب العصا حية، وكلام الجمادات ونحو ذلك، وإما معنوية تشاهد بالبصيرة كمعجزة القرآن الكريم»(٢).

ودلالة المعجزة على وجود الله عز وجل واضحة لأنها دلت على صدق الرسول ﷺ وأن كل ما أخبر به صدق ومن أعظم ما أخبر به وجوب الإيمان بوجوده ـ سبحانه ـ وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. وأيضاً فإن الرسول لم يدَّعِ أن المعجزة من عنده، وإنما أخبر أنها من عند الله وهذا يوجب الإيمان بوجوده عز وجل.

وبالرغم من أنني لم أقف فيما اطلعت عليه من كتب الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ على كلام يشير فيه صراحة إلى إثبات وجود الله ـ عز وجل ـ عن طريق المعجزات إلاَّ أن إيراده لبعض معجزات النبي ﷺ للتدليل على صدق نبوته كما سيأتي في فصل النبوات يستلزم ثبوت وجود الله ـ عز وجل ـ لأن الإيمان بالرسول ﷺ يقتضي وجوب الإيمان بالذي أرسله وهو الله ـ عز وجل ـ.

أما علماء أهل السنة والجماعة، فكما أنهم توسعوا ـ كما أسلفنا ـ في الاستدلال بآيات الخلق التي شملت الآفاق والأنفس على وجود الله استدلوا أيضاً على وجوده سبحانه بالمعجزات التي أيّد

---

(١) التعريفات للجرجاني (٢٨٢).

(٢) أعلام السنة المنشورة لحافظ الحكمي (٩٢).

الله بها أنبيائه ورسله لبيان صدقهم فيما أخبروا عنه سبحانه وفيما دعوا إليه من عبادته وحده وترك عبادة ما سواه.

فهذا ابن عبدالبر يقول: «إنه من نظر إلى إسلام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وسعد وعبدالرحمن وسائر المهاجرين والأنصار وجميع الوفود الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، علم أن الله ـ عز وجل ـ لم يعرفه واحد منهم إلاَّ بتصديق النبيين بأعلام النبوة ودلائل الرسالة»[1].

وقد نسب ابن تيمية هذه الطريقة ـ أعني الاستدلال بالمعجزات على وجود الله سبحانه ـ إلى أئمة السلف حيث يقول: «وهذه طريقة السلف من أئمة المسلمين في الاستدلال على معرفة الصانع وحدوث العالم»[2].

ويقول في مكان آخر: «المعجزات يعلم بها صدق الرسول المتضمن إثبات مرسله لأنها دالة بنفسها على ثبوت الصانع المحدث لها، وأنه أحدثها لتصديق الرسول وإن لم يكن قبل قد تقدم من العبد معرفة الإقرار بالصانع وقد يقال إن قصة موسى من هذا الباب قال تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ـ إلى قوله تعالى ـ: إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[3]. وفي سورة طه: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾[4] إلى آخر القصة. ففرعون كان منكراً للصانع مستفهماً عنه استفهام إنكار سواءٌ كان في الباطن

(١) التمهيد لابن عبدالبر (٧/ ١٥٢).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٣٥٢).
(٣) سورة الشعراء، الآيات: ١٥ـ٥١.
(٤) سورة طه، الآية: ٤٧.

مقراً به أو لم يكن ثم طلب من موسى آية فأظهر آيته ودلّ على إثبات إلهية ربه وإثبات نبوته جميعاً، فكانت المعجزة مبينة للعلم بالصانع وبصدق رسوله. وذلك أن الآيات التي يستدل بها على ثبوت الصانع تدل المعجزة كدلالتها وأعظم وإنما المقصود التنبيه على أن المعجزات قد يعلم بها ثبوت الصانع وصدق رسوله معاً»[١].

ويذكر ـ رحمه الله ـ في الفتاوى كيف أن المعجزة تدل على الوحدانية وعلى ثبوت الصانع فيقول: «المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة وذلك لأن المعجزة التي هي فعل خارق للعادة تدل بنفسها على ثبوت الصانع كسائر الحوادث بل هي أخص من ذلك؛ لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة، ولهذا يسبح الله عندها ويُمجّد ويُعظّم ما لا يكون عند المعتاد ويحصل في النفوس ذلة من ذكر عظمته ما لا يحصل للمعتاد، إذ هي آيات جديدة فتعطى حقها وتدل بظهورها على الرسول، وإذا تبين أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله فتقرر بها الربوبية والرسالة»[٢].

أما ابن القيم ـ رحمه الله ـ فيرى أن طريق إثبات وجود الصانع بالمعجزات من أفضل الطرق وأعظمها دلالة على الصانع ـ سبحانه وتعالى ـ حيث يقول:

«وهذا الطريق من أقوى الطرق وأصحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله. وارتباط أدلة هذا الطريق بمدلولاتها أقوى من الأدلة العقلية الصريحة، ولهذا يسميها الله آيات بينات، وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها، فإن انقلاب عصا تقلّبها اليد ثعباناً عظيماً يبتلع ما يمر به ثم يعود عصاً كما كانت من أدل دليل على وجود

(١) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٤١ـ٤٤).

(٢) فتاوى ابن تيمية (١١/ ٣٧٩).

الصانع وحياته وقدرته وإرادته وعلمه بالكليات والجزئيات وعلى رسالة الرسول وعلى المبدأ والمعاد، فكل قواعد الدين في هذه العصا، وكذلك اليد وفلق البحر طرقاً، والماء قائم بينهما كالحيطان، ونتق الجبل من موضعه ورفعه على قدر العسكر العظيم فوق رؤوسهم وضرب حجر مربع بعصا فتسيل منه اثنتا عشرة عيناً تكفي أمة عظيمة، وكذلك سائر آيات الأنبياء مما هو من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله، وصدق رسله واليوم والآخر وهذه من طرق القرآن التي أرشد الله إليها عباده ودلَّهم بها كما دلَّهم بما يشاهدونه من أحوال الحيوان والنبات والمطر والسحاب والحوادث التي في الجو والأرض»[١].

والواقع يشهد بما لدلالة المعجزة من القوة في التأثير حيث ينقلب الإنسان المشاهد لها من كافر معاند إلى مؤمن مجاهد وهو ما حدث كثيراً في حياة الرسل جميعاً عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وبهذا يظهر جليًّا أن ما سلكه أئمة الدين من علماء أهل السنة والجماعة من تأكيد الاستدلال بالمعجزات على وجود الله طريق شرعي دلَّ عليه الكتاب ونهجه العلماء لإثبات وجود الله ـ عز وجل ـ وتصديق نبوة ورسالة أنبيائه ورسله.

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم (٣/ ١١٩٧).

المبحث الثاني
توحيد الألوهية

توحيد الألوهية: هو توحيد العبادة أو توحيد القصد والطلب، وهو إفراد الله سبحانه بأفعال العباد التي تعبَّدهم بها من صلاة وزكاة وصيام وحج وذبح ونذر وخوف ورجاء وتوكل ورغبة ورهبة ودعاء وغير ذلك من أنواع العبادة التي ينبغي صرفها وتوجيهها لله وحده. فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك.

والإله هو الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام فيتوجه إليه بالعبادة دون غيره.

أما العبادة فيعرفها العلماء بأنها: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[١].

وعند تناول الشيخ عبدالقادر الجيلاني لهذا النوع من التوحيد، ذكر أن الواجب على من أراد الدخول في دين الإسلام أن يتلفظ بكلمة التوحيد، وأن يتبرأ من كل دين غير الإسلام، معتقداً بقلبه وحدانية الله فيقول:

«الذي يجب على من يريد الدخول في دين الإسلام أولاً أن يتلفظ بالشهادتين لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله، ويتبرأ من كل دين غير دين الإسلام، ويعتقد بقلبه وحدانية الله تعالى»[٢].

وقد استدل ـ رحمه الله ـ على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ

---

(١) العبودية لشيخ الإسلام ص(٤).

(٢) الغنية للجيلاني (١/ ٢).

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾[١].

كما استدل بقوله ﷺ: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاَّ الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقها وحسابهم على الله»[٢].

وفي مكان آخر يتحدث عما دعا الله خلقه إليه من توحيده وطاعته وما حذَّرهم منه وخوَّفهم وزجرهم من الشرك به والوقوع في معصيته فيقول:

«وقد دعا الله خلقه إلى توحيده وطاعته بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب فحذَّر وأنذر وخوَّف وزجر، إعذاراً لهم وتأكيداً للحجة عليهم»[٣].

وهو يشير بهذا إلى ما تضمنه القرآن الكريم من الآيات التي تدعو وترغب في طاعة الله عز وجل من مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾[٤].

أو التي تحذر من معصية ومخالفة أمره، كقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾[٥].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.
(٢) رواه البخاري، ح٢٥. ومسلم ح٢١.
(٣) الغنية للجيلاني (١/١٤٦).
(٤) سورة الطلاق، الآيات: ٢-٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

ثم بيّن الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ أن مجرد النطق بكلمة التوحيد من غير امتثال الأمر وترك النهي غير مقبول ولا يستفيد منه الإنسان فيقول:

«إذا قلت لا إله إلاّ الله فقد ادعيت. فيقال لك: ألك بينة؟ والبينة امتثال الأمر والانتهاء عن النهي والصبر على الآفات والتسليم إلى القدر. هذه بينة الدعوى»[(١)].

أما علماء أهل السنة والجماعة، فقد اشتد تركيزهم واهتمامهم بتوحيد العبادة وضرورة إخلاصها لله وحده تحقيقاً للغرض الذي من أجله خلق الله الناس ولئلا يضلوا عن طريق العبادة الحقة بصرفها، أو أي شيء منها، إلى غير الله فيقعوا بذلك في الشرك الذي لا يغفره الله كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾[(٢)].

وهذا النوع من أنواع التوحيد هو الذي من أجله أرسلت الرسل وأنزلت عليهم الكتب وبه افترق الناس إلى مؤمنين موحدين فلهم الفوز والنصر والتمكين في الدنيا ولهم الجنة والنعيم المقيم في الآخرة، وإلى مشركين كفرة لهم الخزي والهوان والذلة والخسران في الدنيا ولهم النار والجحيم والعذاب الأليم في الآخرة. والأدلة على وجوب هذا النوع كثيرة جداً:

أولاً : من القرآن الكريم :

١ـ قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[(٣)].

---

(١) الفتح الرباني المجلس الثاني ص(١٠).
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١.

٢ـ وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾[1].

٣ـ وقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[2].

ثانياً : من السنة المطهرة

١ـ قوله ﷺ: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا ذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك فإياك وكرائم أموالهم»[3].

٢ـ وقوله ﷺ: «أتدري ما حق الله على العباد؟ قلت: لا. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. ثم سار ساعة فقال: يا معاذ! قلت: لبيك وسعديك. قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؛ أن لا يعذبهم»[4].

وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية؛ لأن من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئاً لابد أن يكون قد اعتقد في قرارة نفسه أنه إنما يعبد إلهه الذي خلقه وأوجده من العدم، وربَّاه بالنعم، وأنه هو الذي يملك ضره ونفعه وحياته وموته. ولهذا استنكر الله على المشركين عبادتهم للأصنام التي لا تملك لهم ضرًا ولا نفعاً، ولا

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأنبياء: ٢٥.

(٣) رواه البخاري، ح٧٣٧٢. ومسلم، ح١٩.

(٤) رواه البخاري، ح/٦٢٦٧. ومسلم ح٣٠.

موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. فقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾[1]. وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾[2].

كما أنه متضمن لتوحيد الأسماء والصفات الذي سوف نتحدث عنه في المبحث القادم ـ إن شاء الله تعالى ـ لأن من أخلص لله في عبادته لابدَّ أن يثبت لله جميع الإسماء والصفات التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ من غير تحريف أو تعطيل، ومن غير تكييف أو تمثيل، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3].

وبهذا يتبين تلازم جميع أنواع التوحيد، وعدم انفكاك بعضها عن بعض. يقول شارح كتاب التوحيد، الشيخ سليمان بن عبدالله[4]: «وأنواع التوحيد الثلاثة متلازمة كل منها لا ينفك عن الآخر فمن أتى بنوع واحد منها ولم يأت بالباقي فما ذاك إلاَّ لأنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب»[5].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٦.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب: من آل الشيخ فقيه من أهل نجد، من حفدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولد بالدرعية سنة ١٢٠٠هـ، وطلب العلم حتى برع في التفسير والحديث والفقه. وشى به بعض المنافقين إلى إبراهيم باشا بعد استيلائه على الدرعية فأحضره ثم أظهر بين يديه آلات اللهو لإغاظته، ثم أخرجه إلى المقبرة وأمر العسكر بإطلاق الرصاص عليه فمزقوا جسده وذلك عام ١٢٣٣هـ. انظر: الأعلام للزركلي (٣/ ١٢٩).

(٥) تيسير العزيز الحميد (٢٠).

شروط قبول العبادة

لما كان المقصود من العبادة هو قبولها من قبل المعبود ـ سبحانه وتعالى ـ ومن ثم يجد العابد جزاءه وثوابه عليها. كان لابد من توفر شرطين رئيسيين في كل عملٍ يتقرب به العبد إلى الله ـ عز وجل ـ حتى يكون هذا العمل مقبولاً عنده سبحانه. وهما الإخلاص لله ـ عز وجل ـ والمتابعة للرسول ﷺ، وهما معنى كلمة التوحيد «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله» فالأولى تعني تجريد الإخلاص في العبادة لله وحده والثانية تعني تجريد المتابعة للرسول ﷺ وحده.

وقد قرَّر الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ ضرورة توفر هذين الشرطين في العبادة وبيَّن أن مجرد النطق بالشهادتين وأداء الأعمال التي تقتضيهما لا يكفي إلاّ بعد الإخلاص والمتابعة حيث يقول:

«إذا عملت هذه الأعمال ـ يعني الإتيان بالأوامر وترك النواهي ـ لا تقبل منك إلاّ بالإخلاص فلا يقبل قول بلا عمل، ولا عمل بلا إخلاص وإصابة السنة»[1].

ويقول ـ في موضع آخر ـ: **«وجميع ما ذكرناه من صيام الأشهر والأضحية، والعبادات؛ من الصلاة والأذكار وغير ذلك، مما سنذكر ـ إن شاء الله ـ لا يقبل إلاّ بعد التوبة وطهارة القلب وإخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء والسمعة»**[2].

ثم يستشهد على وجوب الإخلاص بقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا

(١) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثاني (ص١٠).
(٢) الغنية للجيلاني (٢/٦٦).

﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[١]. وقوله سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[٢]. ثم ساق بعض أقوال أهل العلم في تعريف الإخلاص فنقل عن سعيد بن جبير قوله: «الإخلاص أن يخلص العبد دينه لله وعمله لله تعالى ولا يشرك به في دينه ولا يرائي بعمله أحداً» كما نقل عن الفضيل بن عياض قوله: «ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص هو الخوف من أن يعاقبك الله عليها»[٣][٤].

وقد حذَّر كثيراً من الرياء والعُجْب وذلك لخطورته على دين العبد ولسهولة وقوع الإنسان فيه. فقال:

«ينبغي لكل متعبد وعارف أن يحذر في جميع أحواله من الرياء ورؤية الخلق والعُجب فإن النفس خبيثة وهي منشأ الأهواء المضلة والشهوات المردية واللذات الحائلة بين العبد وبين الحق عز وجل» ثم ساق الأدلة على تحريم الرياء منها قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝﴾[٥] وبوصفه ـ عز وجل ـ للمنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۝﴾[٦].

كما استشهد من السنة بأحاديث صحيحة منها قوله ﷺ: «يلقى

---

(١) سورة البينة، الآية: ٥.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/٤٢٧).
(٤) الغنية للجيلاني (٢/٦٧).
(٥) سورة الماعون، الآيات: ٤ـ٧.
(٦) سورة النساء، الآيات: ١٤٢ـ١٤٣.

رجل في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدار به كما تدور الرحى بصاحبها فيقال له: أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه»[١][٢].

وقد أشار علماء أهل السنة والجماعة إلى هذين الشرطين بوضوح. يقول الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٣] قال: أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً. والخالص إذا كان لله والصواب إذا كان على السنة»[٤]

كما قسّم ابن القيم أعمال العبادة إلى أربعة أقسام: «واحد مقبول وثلاثة مردودة. فالمقبول ما كان لله خالصاً وللسنة موافقاً. والمردود ما فقد منه الوصفان أو أحدهما وذلك أن العمل المقبول هو ماأحبه الله ورضيه وهو سبحانه إنما يحب ماأمر به وماعمل لوجهه وماعدا ذلك من الأعمال فإنه لا يحبها بل يمقتها ويمقت أهلها»[٥].

ويقول ـ في مكان آخر ـ: «والعبد إذا عزم على فعل أمر، فعليه أن يعلم أولاً هل هو طاعة لله أم لا، فإن لم يكن طاعة فلا يفعله إلاّ أن يكون مباحاً يستعين به على الطاعة وحينئذ يصير طاعة فإذا بان له أنه طاعة فلا يقدم عليه حتى ينظر هل هو معان عليه أم لا، فإن لم يكن معاناً عليه فلا يقدم عليه فيذل نفسه، وإن كان معاناً عليه بقي عليه نظر آخر وهو أن يأتيه من بابه، فإن أتاه من غير بابه

---

(١) رواه البخاري، ح٣٢٦٧. ومسلم، ح٢٩٨٩.
(٢) الغنية للجيلاني (٢/٦٨).
(٣) سورة الملك، الآية: ٢.
(٤) ذكره أبونعيم عنه في الحلية (٨/ ٩٥).
(٥) إعلام الموقعين لابن القيم (٢/ ١٦٢).

أضاعه أو فرط فيه، أو أفسد منه شيئاً. فهذه الأمور الثلاثة أصل سعادة العبد وفلاحه»[١].

والتأكيد على مسألة الإخلاص والمتابعة شيء مجمع عليه عند علماء الأمة من السلف ومن المتأخرين. فهذا الشيخ محمد الشوكاني[٢] يقول عن الإخلاص: «الإخلاص في النية هو أن تكون العبادة خالصة لوجه الله فلا يشرك مع الله أحداً في العبادة ولا يتم إلاَّ بأن يكون الدعاء كله لله والنداء والاستغاثة والرجاء واستجلاب الخير واستدفاع الشر له ومنه لا لغيره ولا من غيره»[٣].

كما يؤكد ـ رحمه الله ـ على المتابعة فيقول: «والخير كل الخير في الكتاب والسنة فما خرج عن ذلك فلا خير فيه، وإن جاءنا أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم في الآخرة وأتقاهم لله تعالى وأخشاهم له في الظاهر. فإنه لا زهد لمن لم يمش على الهدي النبوي، ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم، فإن الأمور لا تكون طاعات بالتعب فيها والنصب وإيقاعها على أبلغ الوجوه بل إنما تكون طاعات خالصة محضة مباركة نافعة، بموافقة الشرع والمشي على الطريقة المحمدية»[٤].

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (٢/ ١٦٠).

(٢) محمد بن علي الشوكاني الصنعاني: فقيه مجتهد، من كبار علماء اليمن من أهل صنعاء، ولد في شوكان من بلاد خولان سنة ١١٧٣هـ، ونشأ في صنعاء وولي قضاءها حتى مات سنة ١٢٥٠هـ، كان لا يرى التقليد، وله مصنفات عديدة تربو على مائة وأربعة عشر مصنفاً، منها نيل الأوطار وفتح القدير.
انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٢٩٨).

(٣) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني (ص٣٢).

(٤) أدب الطلب ومنتهى الأرب للشوكاني (ص٢١٩).

من أنواع العبادة

أولاً: الدعاء

من أعظم أنواع العبادة الدعاء والالتجاء لله تعالى لأن معاني العبودية والخضوع والتذلل والفقر والاحتياج تبدوا واضحة جلية في الدعاء. ولذا توعد الله المستكبرين عن دعائه بالدخول في النار وبئس القرار. قال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾[(١)].

وقد ذكر الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ بعض الآداب التي يجب مراعاتها عند الدعاء، فقال:

«والأدب في الدعاء أن يمد يديه ويحمد الله ويصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله حاجته»[(٢)].

أما علماء أهل السنة والجماعة فقد ذكروا آداباً كثيرة ينبغي على الداعي مراعاتها غير ما ذكره الشيخ عبدالقادر الجيلاني. منها: إخفاء الدعاء حيث أشار شيخ الإسلام إلى بعض فوائد إخفائه والتي منها:

١ـ أنه أعظم إيماناً لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي.

٢ـ أنه أعظم في الأدب والتعظيم لأن الملوك لاترفع الأصوات عندهم ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي فلايليق بالأدب بين يديه إلاَّ خفض الصوت به.

٣ـ أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل قد

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) الغنية للجيلاني (١/ ٤٠).

انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته.

٤ـ أنه أبلغ في الإخلاص.

٥ـ أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء؛ فإن رفع الصوت يفرقه فكلما خفي صوته كان أبلغ في تجريد همته ومقصده للمدعو سبحانه.

٦ـ وهو من النكت البديعة: أنه دال على قرب صاحبه من القريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد، ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾[1]. فلما استحضر القلب قرب الله ـ عز وجل ـ وأنه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه.

٧ـ أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال فإن اللسان لا يمل، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه لا يطول له بخلاف من خفض صوته.

٨ـ إن إخفاء الدعاء أبعد له عن القواطع والمشوشات.

٩ـ أنه أبعد عن حسد الحاسدين فإن الدعاء من أعظم النعم وكل ذي نعمة محسود.

١٠ـ أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه ومتضمن للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه فهو ذكر وزيادة»[2].

ولئن كان إخفاء الدعاء أفضل إلاَّ أنه ليس في كل حال فقد يتحتم رفع الصوت بالدعاء بحسب الحاجة في حالات كثيرة، مثل الدعاء في خطبة الجمعة وفي الأعياد والاستسقاء، وفي النوازل، وعند التقاء الجيوش، حيث وردت الأدلة الصحيحة بأن رسول الله ﷺ كان يدعو الله في تلك الأحوال بصوت واضح مسموع.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣.

(٢) الفتاوى لابن تيمية (١٥/ ١٥).

ثانياً التوكل :

وهو أصل من أصول العبادة التي لا يتم توحيد العبد إلاَّ به جاء الأمر به في كثير من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[١]. وقوله عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[٢] وهو من سمات المؤمنين الصادقين، قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾[٣].

وقد عرف الشيخ عبدالقادر الجيلاني حقيقة التوكل بقوله:

«حقيقته كحقيقة الإخلاص وحقيقة الإخلاص ارتفاع الهمة عن طلب الأعواض على الأعمال. وكذلك التوكل هو الخروج من الحول والقوة مع السكون إلى رب الأرباب»[٤].

وهو يعني بذلك عدم الاعتماد على حول الإنسان وقوته وإمكانياته وإنما يعتمد ويسكن إلى ربه تبارك وتعالى وحوله وقوته ولكنه لا يعني بذلك ترك الأسباب وعدم الأخذ بها، بل يدعوا إلى إعطاء الأسباب حقها وذلك بالأخذ بها وعدم تجاهلها. ثم التوكل بعد ذلك على الله سبحانه حيث يقول:

«إعط السبب حقه وتوكل واقعد على باب العمل».[٥]

وذلك لأن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل فإن الله ـ عز وجل ـ كما أمر بالاعتماد عليه والتوكل عليه وحده أمر بالأخذ

(١) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢.
(٤) بهجة الأسرار للشطنوفي: (١٢٢).
(٥) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الخمسون ص(١٦٧).

بالأسباب فقال مخبراً عن عيسى بن مريم وهو يخاطب أمه: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾[1] إذ كان في قدرته سبحانه أن ينزل الرطب من غير أن تقوم مريم بهز الجذع وأيضاً أخبر ـ عز وجل ـ أن يعقوب ـ عليه السلام ـ قال لبنيه: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾[2] فمع توكله على الله ـ عز وجل ـ أمر أولاده بالأخذ بالسبب وهو التفرق عند الدخول حتى لا يصابوا بالعين الحاسدة.

وعند الترمذي من حديث أنس بن مالك أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يارسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال ﷺ: «**إعقلها وتوكل**»[3].

وهذا مقرر عند علماء أهل السنة والجماعة. يقول عبدالله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عن قوم يقولون نتكل على الله ولا نكتسب؟ قال أبي: «ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب قال تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾[4] فبهذا قد علم أنهم يكتسبون ويعملون، ثم قال من قال: بخلاف هذا فهو قول إنسان أحمق»[5].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو يؤكد التلازم

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٦٧.

(٣) سنن الترمذي ح(٢٥١٩) وقد حسّنه الألباني في صحيح الجامع للسيوطي تحت رقم (١٠٦٨).

(٤) سورة الجمعة، الآية: ١٠.

(٥) مسائل الإمام أحمد، رواية عبدالله بن أحمد، تحقيق الشاويش ص(٤٤٨).

بين التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع. فعلى العبد أن يكون معتمداً على الله لا على سبب من الأسباب والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة فإن كانت الأسباب مقدورة له فعلها مع التوكل على الله كما يؤدي الفرائض وكما يجاهد العدو ويحمل السلاح ويلبس جنة الحرب ولا يكتفي في دفع العدو في مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد. ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم»[١].

---

(١) الفتاوى لابن تيمية (٨/٥٢٨).

ثالثاً الخوف والرجاء:

وهذان من أنواع العبادة التي أمر الله بها وأثنى على المؤمن المتحلي بها. قال ـ عز وجل ـ في الخوف: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾(١). ويقول ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾(٢) وقال ـ عز وجل ـ في الرجاء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾(٣) وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾(٤).

والمؤمن مطالب بأن يجمع في مراقبته لله ـ عز وجل ـ بين الخوف والرجاء، وهذا لا يعني المساواة، وإنما يعني العمل بما يصلح حال الإنسان فقد يصلح بعض الناس تغليب جانب الخوف أحياناً، وقد يصلحهم ترجيح الرجاء أحياناً أخرى، والمهم هو أن يستقيم سلوك الإنسان على أمر الله عبر هذين المسلكين، فإذا استقام فذلك دليل التوازن في النفس. أما إذا انحرف عن طاعة الله وتجرأ على فعل معصيته فإن ذلك يعالج بالتخويف من شدة عذاب الله ـ عز وجل ـ وإذا انحرف وبالغ في شدة الخوف من الله لدرجة القنوط واليأس فإن حاله تصلح بتذكيره بسعة رحمة الله.

والشيخ عبدالقادر الجيلاني كان دقيق الملاحظة في التحذير من تغليب أحدهما على الآخر فيقع إما في الزندقة إذا غلَّب جانب

(١) سورة النازعات، الآيات: ٤٠ـ٤١.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.
(٣) سورة البقرة: الآية: ٢١٨.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

الرجاء، أو في القنوط إذا غلّب جانب الخوف. يقول ـ رحمه الله ـ: **«من غلب رجاؤه خوفه تزندق، ومن غلب خوفه رجاءه قنط والسلامة في اعتدالهما»**[(١)].

وهذا الاعتدال يوافق ما ذهب إليه علماء أهل السنة والجماعة، فهذا الإمام أحمد بن حنبل يقول: «ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحداً»[(٢)].

وينقل ابن رجب عن بعض السلف قوله: «من عبدالله بالرجاء وحده فهو مرجيء، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد مؤمن. وسبب هذا أنه يجب على المؤمن أن يعبد الله بهذه الوجوه الثلاثة المحبة والخوف والرجاء»[(٣)].

أما حجم الخوف وقدره فيحدده ابن القيم ـ رحمه الله ـ بأنه «ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ـ عز وجل ـ فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، ويذكر أنه سمع شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله»[(٤)].

وعن الرجاء يؤكد ابن القيم ـ رحمه الله ـ أن «من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور: الأول محبة ما يرجوه والثاني خوفه من فواته، والثالث سعيه في تحصيله بحسب الإمكان، وأن الرجاء الذي لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني والرجاء شيء والأماني

---

(١) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الخامس والعشرون ص(٩١).
(٢) مسائل الإمام أحمد لابن هانيء تحقيق الشاويش (٢/ ١٧٨).
(٣) التخويف من النار، لابن رجب (٢٥).
(٤) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٥١١).

شيء آخر، فكل راج خائف، والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن»[١].

(١) الجواب الكافي لابن القيم (٤٦).

ما يناقض التوحيد

الحديث عن توحيد الألوهية يستلزم الحديث عما يناقضه من الشرك؛ لأنه كما قيل وبضدها تتميز الأشياء. وقد وردت الأدلة الكثيرة في الكتاب والسنة في النهي عن الشرك وبيان الوعيد الشديد لمن وقع فيه منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾[1] وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾[2]. وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «قلت: يارسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك. قلت: يارسول الله ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تزني بحليلة جارك. وقال: ونزلت هذه الآية تصديقاً لقول رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨﴾[3]»[4].

ولقد دعا الشيخ عبدالقادر الجيلاني إلى التوحيد وحذَّر من الوقوع في الشرك في جملة من وصاياه فقال:

«وحدوا ولا تشركوا»[5].

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٨.

(٤) رواه البخاري، ح(٤٧٦١)، ومسلم ح٨٦.

(٥) فتوح الغيب، المقالة الثانية ص(١٠).

ويقول في توجيه آخر:

«أخلصوا ولا تشركوا وحدوا الحق ـ عز وجل ـ وعن بابه لا تبرحوا، سلوه ولا تسألوا غيره، استعينوا به ولا تستعينوا بغيره، توكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره»(١).

وهو بذلك يضع نماذج لأنواع العبادة التي ينبغي عدم صرفها لغير الله مما يوقع الإنسان بذلك في الشرك مثل الدعاء والاستعانة والتوكل كما سبق بيانه.

واهتمام علماء أهل السنة والجماعة بأمر الشرك ووجوب خلو العبادة منه وصفائها من أدرانه والتحذير من الوقوع في شيء منه ملاحظ ملموس.

فهذا ابن القيم ـ رحمه الله ـ يقول: «إن الشرك لما كان أظلم الظلم وأقبح القبائح وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله وأكرهها له، وأشد مقتاً لديه، وقد رتَّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه وأخبر أنه لا يغفره وأن أهله نجس ومنعهم من قربان حرمه، وحرَّم ذبائحهم ومناكحهم وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين وجعلهم أعداءاً له سبحانه وتعالى ولملائكته ورسله وللمؤمنين وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبية وتنقص لعظمة الإلهية وسوء ظن برب العالمين»(٢).

---

(١) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس السابع والأربعون ص(١٥١).

(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ٦٠).

بيان جملة من أنواع الشرك

أولاً الطيرة :

«وأصلها أن العرب كانت تتشائم من السوانح والبوارح[١] من الطير والضباء وغيرهما وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم فجاء الشرع المطهر وأبطل هذا الأمر ونهى عنه وأخبر أنه لا يؤثر في جلب نفع أو دفع ضر»[٢].

والتطير مناقض للتوحيد لما فيه من نسبة أفعال الله إلى شيء من خلقه ولما يؤدي من الاعتقاد بأن لتلك المخلوقات الضعيفة تأثيراً في أقضيته وأقداره. وقد سماه النبي ﷺ شركاً. ففي سنن الترمذي وغيره من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الطيرة شرك»**[٣].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك. قالوا: يارسول الله: ما كفارة ذلك؟ قال: أن يقول أحدهم:**

---

(١) قال ابن القيم عن السانح والبارح: «أصل هذا أنهم كانوا يزجرون الطير والوحش ويثيرونها فما تيامن منها وأخذت ذات اليمين سموه سانحاً، وماتياسر منها سموه بارحاً، وما استقبلهم منها فهو الناطح، وما جاءهم من خلفهم سموه القعيد. فمن العرب من يتشائم بالبارح ويتبرك بالسانح، ومنهم من يرى خلاف ذلك» مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٢٣٩).

(٢) انظر شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٧٠).

(٣) رواه الترمذي ،ح (١٦١٤). وقال: حديث حسن صحيح وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٤٢٩).

اللهم لا خير إلاَّ خيرك ولا طير إلاَّ طيرك ولا إله غيرك»[١].

وقد نبَّه الشيخ عبدالقادر الجيلاني إلى منافاة التطير للعقيدة ولكن بصيغة الكراهية حيث يقول: «وتكره الطيرة ولا بأس بالتفاؤل»[٢]. وفي ظني أنه يعني الكراهة التحريمية؛ لأن هذا هو الذي يتلائم مع موقفه من الطيرة والذي يقول فيه:

«وإذا رأى ما يتطير منه قال: اللهم لا يأتي بالحسنات إلاَّ أنت ولا يذهب بالسيئات إلاَّ أنت ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله»[٣].

وقد اعتنى علماء أهل السنة والجماعة بأمر الطيرة وبالغوا في التحذير منها؛ لأنها انحراف عن الاعتقاد الصحيح واليقين الجازم بأنه لا يأتي بالحسنات إلاَّ الله ولا يذهب بالسيئات إلاَّ هو سبحانه. ووجه منافاة الطيرة للعقيدة الصحيحة ظاهر وهو أن في الطيرة نسبة أفعال الله سبحانه إلى خلقه وذلك باعتقاد المتطير أن ما حصل له إنما هو بسبب المتطير منه وهذا شرك في الربوبية ولذا رد الله على قوم صالح الذين تشائموا منه واعتقدوا أنه سبب القحط والجدب الذي أصابهم رد عليهم بأن ما أصابهم إنما هو من عند الله بسبب ذنوبهم ومعاصيهم قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾[٤].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٢٢٠)، وقد صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٠٦٥).

(٢) الغنية للجيلاني (١/ ٣٩).

(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٤٢).

(٤) سورة النمل، الآيات: ٤٥ـ٤٧.

وعلى هذا فالطيرة منتفية وليس لها أي تأثير والله وحده هو المنفرد بالتقدير والتدبير. ولذا نفاها النبي ﷺ بقوله: «**لا عدوى ولا طيرة**»(١).

وقد قال الإمام أحمد عن الحديث الذي رواه أبوداود في السنن أنه ﷺ قال: «**أقروا الطير على مكناتها**» أي أنها لا تضركم يعني أقروها على كل مكنة ترونها عليها ودعوا التطير بها، قال: كان أحدهم يعني في الجاهلية يريد الأمر فيثير الطير فيقال: إن جاء عن يمينه كان كذا وإن جاء عن يساره كان كذا فقال النبي ﷺ: «**أقروا الطير على مكناتها فإنها لا تضركم**»(٢).

أما قوله ﷺ في الحديث: «**لا عدوى ولا طيرة**» فقد قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «يحتمل أن يكون نفياً وأن يكون نهياً أي لا تتطيروا ولكن قوله في الحديث: لا عدوى ولا صفر ولا هامة، يدل على أن المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره والنهي يدل على المنع منه»(٣).

أما الفأل فقد سبق بيان رأي الشيخ عبدالقادر الجيلاني حوله وأنه قال: لا بأس به وهذا يتفق مع ما صح عن رسول الله ﷺ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا طيرة وخيرها الفأل قالوا: وما الفأل يارسول الله؟ قال: الكلمة**

---

(١) رواه البخاري ح(٥٧٥٣)، ومسلم ح(٢٢٢٤).
(٢) رواه أبوداود (٣/ ٢٥٧)، وصححه الحاكم (٤/ ٢٣٧)، وأقره الذهبي.
(٣) مفتاح دار السعادة (٣/ ٢٨٠).

الصالحة يسمعها أحدكم»[١].

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في شرح هذا الحديث: «أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خيرها ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد ونفع أحدهما ومضرة الآخر. ونظير هذا منعه من الرقى بالشرك وإذنه في الرقية إذا لم تكن شركاً لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة. فقوله ﷺ: «لا طيرة وخيرها الفأل» ينفي عن الفأل مذهب الطيرة من تأثير أو فعل أو شركة ويخلص الفأل منها، وفي الفرقان بينهما فائدة كبيرة وهي أن التطير هو التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفر وامتنع بها مما عزم عليه فقد قرع باب الشرك، بل ولجه وبرىء من التوكل على الله، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله. والتطير مما يراه ويسمعه وذلك قاطع له من مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[٢] و﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[٣] و﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾[٤] فيصير قلبه متعلقاً بغير الله عبادة وتوكلاً فأين هذا من الفأل الصالح السار للقلوب، المؤيد للآمال، الفاتح باب الرجاء، المسكن للخوف، الرابط للجأش، الباعث على الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاستبشار المقوي لأمله السار لنفسه، فهذا ضد الطيرة، فالفأل يفضي بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد والطيرة تفضي بصاحبها إلى المعصية والشرك

(١) رواه البخاري ح(٥٧٥٥)، ومسلم ح(٢٢٢٣).

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٣) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(٤) سورة الشورى، الآية: ١٠.

فلهذا استحب ﷺ الفأل وأبطل الطيرة»[١].

وحتى يتغلب المسلم على هذه الآفة الخطيرة لابد له من الإيمان الجازم بأن الله هو وحده الذي بيده كل شيء وأنه لا تأثير مطلقاً لتلك الأشياء التي يتشائم منها الإنسان كما أن عليه أن يعلم الثواب الجزيل المترتب على عدم التطير كما في حديث السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين «**لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون**»[٢] وأن يمضي في شئونه وأموره متوكلاً على الله معتمداً عليه موقناً بأنه لا خير إلاَّ خيره ولا طير إلاَّ طيره ولا إله غيره.

---

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٣/٣٠٨ـ٣١٢).

(٢) رواه البخاري، ح(٥٧٠٥)، ومسلم ح(٢٢٠).

ثانياً الحلف بغير الله :

الحلف بالله تعظيم له سبحانه والعدول عن الحلف به إلى الحلف بغيره يعد عدواناً على مقام الرب ـ عز وجل ـ وتنقصاً لكماله وعلو شأنه إذ أن الإنسان إذا أراد أن يؤكد صدق ما يقول أو نفي ما يلصق به حلف وأقسم بأجلّ وأعظم شيء في قلبه وهل في الوجود أعظم شأناً من الله أو أجلّ قدراً منه سبحانه، ولذا كان الحلف بغير الله من الشرك لقوله ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[١].

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يذكر كراهية الحلف بالأب أو بغير الله ويؤكد بأن الحلف لا يكون إلاَّ بالله ـ عز وجل ـ فيقول:
«ويكره أن يقسم بأبيه أو بغير الله، في الجملة فإن حلف حلف بالله وإلاَّ فليصمت»[٢].

ولقول الشيخ الجيلاني بالكراهية احتمالان:
الأول: أنه أراد الكراهة التحريمية وهذا يتفق مع ما ذهب إليه جمهور العلماء.

والثاني: أنه أراد الكراهة التنزيهية وهذا مرجوح حيث صرح شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بأنه حرام عند الجمهور فقال: «والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور وهو مذهب أبوحنيفة وأحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد وقد حكى إجماع الصحابة على ذلك، وقيل: هي مكروهة كراهة تنزيه. والأول أصح حتى قال عبدالله بن مسعود وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر: لأن أحلف

---

(١) رواه الترمذي في السنن، ح(١٥٣٥). والإمام أحمد في المسند، ح(٦٠٧٢)، وصححه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٩٧) ووافقه الذهبي.
(٢) الغنية للجيلاني (١/ ١٨).

بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغير الله صادقاً؛ لأن الحلف بغير الله شرك، والشرك أعظم من الكذب»[١].

ويقول في موضع آخر: «والصواب الذي عليه عامة علماء المسلمين سلفهم وخلفهم، أنه لا يحلف بمخلوق لا نبي ولا غير نبي، ولا ملك من الملائكة، ولا ملك من الملوك، ولا شيخ من الشيوخ، والنهي عن ذلك نهي تحريم عند أكثرهم كمذهب أبي حنيفة وغيره وهو أحد القولين في مذهب أحمد»[٢].

وقد أشار الشوكاني ـ رحمه الله ـ إلى السر في النهي عن الحلف بغير الله، وهو أن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه كما أسلفنا، فيقول: «قال العلماء: السر في النهي عن الحلف بغير الله أن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده فلا يحلف إلاَّ بالله وذاته وصفاته وعلى ذلك اتفق الفقهاء»[٣].

---

(١) الفتاوى لابن تيمية (١/ ٢٠٤).
(٢) الفتاوى لابن تيمية (٢٧/ ٣٤٩).
(٣) نيل الأوطار(١٠/ ١٦٠) للشوكاني.

ثالثاً الرقى :

الرقية هي العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات»[1].

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يذهب إلى القول بجوازها إذا كانت من القرآن فيقول:

«وكذلك الرقية بالقرآن وبأسماء الله تعالى جائزة لقوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[2]»[3].

وقد نقل الحافظ ابن حجر[4] ـ رحمه الله ـ الإجماع على جواز الرقى بشروطها فقال: «أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

الأول: أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته.

الثاني: أن تكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره.

الثالث: أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى، واختلفوا في كونها شرطاً، والراجح أنه لابدَّ من اعتبار الشروط المذكورة»[5].

---

(١) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/ ٢٥٤).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٤٠).

(٤) أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني من أئمة العلم ومن أشهر العلماء، ولد بالقاهرة سنة ٧٧٣ وأقبل على الحديث حتى أصبح حافظ الإسلام في عصره. وولي قضاء مصر ثم اعتزل، توفي سنة ٨٥٢هـ من أشهر مؤلفاته فتح الباري شرح صحيح البخاري، والإصابة، وغيرهما. الأعلام للزركلي ١/ ١٧٨.

(٥) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٠٦).

واستدل علماء أهل السنة والجماعة على الجواز بالحديث الصحيح الذي حدَّث به الصحابي عوف بن مالك الأشجعي[١]. قال: **«كنا نرقي في الجاهلية قلنا: يارسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: أعرضوا عليَّ رقاكم لابأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك»**[٢].

---

(١) عوف بن مالك الأشجعي من نبلاء الصحابة وممن شهد فتح مكة وغزوة مؤتة له عدة أحاديث، مات ـ رضي الله عنه ـ سنة ٧٣هـ.
سير أعلام النبلاء (٢/٤٨٧).

(٢) رواه مسلم، ح(٢٢٠٠).

رابعاً التمائم :

«جمع تميمة. وهي خرزات كان العرب يعلقونها على أولادهم يتقون بها العين في زعمهم. فأبطلها الإسلام. وكانوا يعتقدون أنها تمام الدواء والشفاء»[١].

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يرى جواز تعليق التميمة فيقول:

«ويكتب للمحموم ويعلق عليه لما روى عن الإمام أحمد أنه قال: حممت فكتب لي من الحمى بسم الله الرحمن الرحيم بسم الله وبالله، محمد رسول الله ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾[٢] اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل إشف صاحب هذا الكتاب بحولك وقوتك وجبروتك ياأرحم الراحمين»[٣].

ويقول في موضع آخر:

«قال بعض أصحابنا: يكتب للمرأة إذا عسرت عليها الولادة في جام أو آنية نظيفة: بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلاَّ الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾[٤] و﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٣٥﴾[٥] ثم يغسل ويسقي منه وينضح ما بقي منه على صدرها»[٦].

---

(١) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١/١٩٧).
(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ٦٩-٧٠.
(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٤٠).
(٤) سورة النازعات، الآية: ٤٦.
(٥) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.
(٦) الغنية للجيلاني (١/ ٤٠).

وقد حصل الخلاف بين العلماء في جواز تعليق التمائم إذا كانت من القرآن أو من أسماء الله وصفاته، وملخص الخلاف يذكره مصنف تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد فيقول:

«اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا في جواز تعليق التمائم التي من القرآن وأسماء الله وصفاته. فقالت طائفة: يجوز ذلك. وهو قول عبدالله بن عمرو بن العاص، وغيره وهو ظاهر ما روي عن عائشة وبه قال أبوجعفر الباقر[١] وأحمد في رواية، وحملوا الحديث على التمائم الشركية، أما التي فيها القرآن وأسماء الله وصفاته فكالرقية بذلك. قلت: وهو ظاهر اختيار ابن القيم. وقالت طائفة: لا يجوز ذلك وبه قال ابن مسعود وابن عباس، وهو ظاهر قول حذيفة[٢] وعقبة بن عامر[٣] وابن عكيم[٤] ـ رضي الله عنهم ـ وبه قال جماعة من التابعين منهم أصحاب ابن مسعود وأحمد

---

(١) أبوجعفر الباقر: هو محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب: تابعي ثقة، وهو خامس الأئمة عند الرافضة، وهو منهم ومن ضلالاتهم بريء، وقد كان من العُبَّاد والزُّهاد.
حلية الأولياء (٣/ ١٨٠).

(٢) حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ صاحب سر النبي ﷺ من نجباء الصحابة وأعيان المهاجرين شهد أحداً ومابعدها. توفي سنة ٣٦هـ.
الإصابة (١/ ٣١٦).

(٣) عقبة بن عامر الجهني: صاحب رسول الله ﷺ وكان عالماً مقرئاً فصيحاً فقيهاً فرضياً شاعراً كبير الشأن، شهد صفين مع معاوية، وشهد فتح مصر، وكان من أهل الصفة، ومن الرماة، توفي سنة ٥٨هـ.
سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦٧).

(٤) عبدالله بن عكيم الجهني: قيل له صحبة، وقد أسلم بلا ريب في حياة النبي ﷺ، وصلى خلف أبي بكر الصديق، وهو القائل: أتانا كتاب رسول الله ﷺ قبل موته بشهرين: «ألا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب» توفي في ولاية الحجاج.
سير أعلام النبلاء (٣/ ٥١٠).

في رواية اختارها كثير من أصحابه، وجزم بها المتأخرون واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه فإن ظاهره العموم ولم يفرق بين التي من القرآن وغيرها بخلاف الرقى فقد فرّق بينها ويؤيد ذلك أن الصحابة الذين رووا الحديث فهموا العموم كما تقدم عن ابن مسعود، وأما القياس على الرقية بذلك، فقد يقال بالفرق فكيف يقاس التعليق الذي لابد فيه من ورق أو جلود ونحوهما على ما لا يوجد ذلك فيه، فهذا إلى الرقى المركبة من حق وباطل أقرب»[١].

ويقول الشيخ حافظ الحكمي[٢]: «وفي التمائم المعلقات التي تعلق على الصبيان والدواب ونحوها إن تك آيات قرآنية وكذلك إن كانت من السنن الصحيحة الواضحات فالاختلاف في جوازها واقع بين السلف من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. فبعضهم أجازها، يروى ذلك عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وأبي جعفر محمد بن علي وغيرهما من السلف، والبعض منهم كف أي منع ذلك وكرهه ولم يره جائزاً، منهم عبدالله بن عكيم وعبدالله بن عمرو وعقبة بن عامر

---

(١) تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ (١٢١).

(٢) حافظ بن أحمد بن علي الحكمي: أحد علماء المملكة السلفيين، وعلم من أعلام منطقة الجنوب، ولد سنة ١٣٤٢هـ، وطلب العلم علي يد أخيه الشيخ محمد والشيخ عبدالله القرعاوي، ثم برع في شتى العلوم وأخذ يصنف المصنفات، نظماً ونثراً على منهج أهل السنة والجماعة منها معارج القبول، وغيره، وقد توفي رحمه الله في ريعان شبابه عام ١٣٧٧هـ، بعد أداء مناسك الحج، ودفن في مكة المكرمة، رحمه الله رحمة واسعة.

ترجمة ابنه الدكتور أحمد بن حافظ الحكمي والمدونة في أول كتاب معارج القبول، ص(١١).

وعبدالله بن مسعود وأصحابه كالأسود[١] وعلقمة[٢] ومن بعدهم كإبراهيم النخعي[٣] وغيرهم ـ رحمهم الله تعالى ـ».

ثم ذهب الشيخ حافظ الحكمي ـ رحمه الله ـ إلى ترجيح المنع، فقال: «ولا شك أن منع ذلك أسدُّ لذريعة الاعتقاد المحظور لاسيما في زماننا هذا، فإنه إذا كرهه أكثر الصحابة والتابعين في تلك العصور الشريفة المقدسة والإيمان في قلوبهم أكبر من الجبال فلأن يكره في وقتنا هذا وقت الفتن والمحن أولى وأجدر بذلك كيف وهم قد توصلوا بهذه الرخص إلى محض المحرمات وجعلوها حيلة ووسيلة إليها فمن ذلك أنهم يكتبون في التعاويذ آية أو سورة أو بسملة أو نحو ذلك ثم يضعون تحتها من الطلاسم الشيطانية ما لا يعرفه إلاَّ من اطلع على كتبهم، ومنها أنهم يصرفون قلوب العامة عن التوكل على الله ـ عز وجل ـ إلى أن تتعلق قلوبهم بما كتبوه بل أكثرهم يرجفون بهم ولم يكن قد أصابهم شيء فيأتي أحدهم إلى من أراد أن يحتال على أخذ ماله مع علمه أنه قد أولع به فيقول له: إنه

(١) الأسود بن يزيد النخعي الكوفي: الإمام القدوة، مخضرماً، أدرك الجاهلية والإسلام، حدث عن معاذ وابن مسعود وعائشة، وغيرهم. وهو نظير مسروق في الجلالة والعلم والثقة والسن يضرب بعبادتهما المثل وكان مجتهداً في العبادة، حتى نُقل عنه أنه كان يصوم الدهر، إما لأن النهي لم يبلغه أو أنه تأول، توفي سنة ٧٥هـ. سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠).

(٢) علقمة بن قيس النخعي الكوفي: فقيه الكوفة وعالمها ومقرئها الإمام الحافظ المجود المجتهد هاجر في طلب العلم والجهاد ولازم ابن مسعود حتى ترأس في العلم والعمل وتفقه به العلماء وثقه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، توفي رحمه الله سنة ٦١هـ. سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣).

(٣) الإمام التابعي إبراهيم بن يزيد النخعي: من أكابر التابعين صلاحاً وصدقاً ورواية وحفظاً للحديث، عاش بالكوفة وكان إماماً مجتهداً، توفي سنة ٩٦هـ. تهذيب التهذيب (١/ ١٧٧).

سيصيبك في أهلك أو في مالك أو نفسك كذا وكذا، أو يقول له: إن معك قريناً من الجن أو نحو ذلك، ويصف له أشياء ومقدمات من الوسوسة الشيطانية موهماً أنه صادق الفراسة فيه شديد الشفقة عليه حريص على جلب النفع إليه فإذا امتلأ قلب الغبي الجاهل خوفاً مما وصف له حينئذ أعرض عن ربه وأقبل على ذلك الدجال بقلبه وقالبه والتجأ إليه وعوّل عليه دون الله ـ عز وجل ـ وقال له: فما المخرج مما وصفت، وما الحيلة في دفعه، كأنما بيده الضر والنفع. فعند ذلك يتحقق فيه أمله ويعظم طمعه فيما عسى أن يبذله له فيقول له: إنك إن أعطيتني كذا وكذا كتبت لك من ذلك حجاباً طوله كذا وعرضه كذا، ويصف له ويزخرف له في القول، وهذا الحجاب عَلِّقْهُ من كذا وكذا من الأمراض.

أترى هذا مع هذا الاعتقاد من الشرك الأصغر لا بل هو تأله لغير الله وتوكل على غيره والتجاء إلى سواه وركون إلى أفعال المخلوقين وسلب لهم من دينهم فهل قدر الشيطان على مثل هذه الحيل إلاَّ بوساطة أخيه من شياطين الإنس»[1].

والذي أراه في هذه المسألة هو الحذر والمنع. لما في ذلك من المصلحة وهي سد ذرائع الشرك لأنه إذا استباح الناس التمائم من الآيات والأدعية انفتح باب الشرك، واشتبهت التميمة الجائزة بالمحذورة، وتعذر التمييز بينها إلاَّ بمشقة فلزم سد هذا الباب المفضي إلى الشرك حماية لجناب التوحيد، بالإضافة لما في ذلك من صيانة القرآن وذكر الله مما قد يتعرض له من الإهانة في حالة تعليقه. والله أعلم.

---

(١) معارج القبول، لحافظ الحكمي (٢/ ٥١٠).

المبحث الثالث

توحيد الأسماء والصفات

وهو القسم الثالث من أقسام التوحيدالتي لا يكمل توحيد العبد إلاَّ بتحقيقها وهو «إفراد الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى التي وردت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل إثباتاً يليق بجلاله وعظمته، ونفي ما نفاه - عز وجل - عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ مما ينافي كماله وجلاله.

وقد أشار الشيخ عبدالقادر الجيلاني إلى بعض هذه المعاني بقوله:

«إنفوا ثم أثبتوا. إنفوا عنه ما لا يليق به، وأثبتوا له ما يليق به، وهو ما رضيه لنفسه ورضيه له رسوله ﷺ إذا فعلتم هذا زال التشبيه والتعطيل من قلوبكم»[1].

وقد وافق بذلك ما درج عليه علماء سلف هذه الأمة من تعظيم الله - عز وجل - وتنزيهه عما لا يليق به سبحانه:

١- يقول محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة[2]: «اتفق الفقهاء كلهم

(١) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس السابع عشر ص(٦٢).

(٢) أبوعبدالله محمد بن الحسن صاحب الإمام أبوحنيفة. إمام علاَّمة في الفقه وأصوله فقيه العراق، أخذ عنه الشافعي وقال: ما ناظرت أذكى منه، وقيل للإمام أحمد من أين لك هذه المسائل الدقاق؟ قال: من كتب محمد بن الحسن. مات سنة ١٨٩. سير أعلام النبلاء (٩/ ١٣٤).

من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير تغيير ولا وصف ولا تشبيه فمن فسر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ، وفارق الجماعة فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا»[(١)].

٢ـ ويوضح الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ منهج أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء والصفات فيقول:

«ليس كمثله شيء في ذاته كما وصف نفسه، قد أجمل الله الصفة فحد لنفسه صفة ليس يشبهه شيء وصفاته غير محدودة ولا معلومة، إلاَّ بما وصف به نفسه، فهو سميع بصير بلا حد ولا قدر، ولا يبلغ الواصفون صفته، ولا نتعدى القرآن والحديث فنقول كما قال، ونصفه بما وصف به نفسه، ولا نتعدى ذلك»[(٢)].

٣ـ كما يشير الإمام ابن خزيمة ـ رحمه الله ـ[(٣)] إلى إجماع علماء أهل

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي برقم ٧٤٠.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص(٨٠).

(٣) محمد بن إسحاق بن خزيمة شيخ الإسلام إمام الأئمة الحافظ الحجة، ولد سنة ٢٢٣هـ وطلب العلم حتى صار يضرب به المثل في سعة العلم والإتقان، قال عنه الحافظ أبوعلي النيسابوري: لم أر أحداً مثل ابن خزيمة. وقال عنه الدارقطني: كان ابن خزيمة إماماً ثبتاً معدوم النظير. وقال عنه الذهبي في السير: «ولابن خزيمة عظمة في النفوس وجلالة في القلوب لعلمه ودينه واتباعه السنة وكتابه في التوحيد مجلد كبير وقد تأول حديث الصورة فليعذر من تأول بعض الصفات، وأما السلف فما خاضوا في التأويل بل آمنوا وكفوا وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق أهدرناه وبدّعناه لقل من يسلم من الأئمة معنا رحم الله الجميع بمنه وكرمه».
سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٥).

السنة والجماعة على إثبات الأسماء والصفات من غير تشبيه فيقول: «فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق، والشام ومصر مذهبنا أنا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه، نقر بذلك بألسنتنا ونصدق ذلك بقلوبنا، من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين، عزَّ ربنا عن أن يشبه المخلوقين، وجلَّ ربنا عن مقالة المعطلين وعزَّ أن يكون عدماً كما قاله المبطلون؛ لأن ما لا صفة له عدم، تعالى الله عما يقول الجهميون الذين ينكرون صفات خالقنا الذي وصف بها نفسه في محكم تنزيله على لسان نبيه محمد ﷺ»[(١)].

٤ـ وكذا الإمام الخطابي[(٢)] يوضح مذهب السلف في الإثبات ونفي التشبيه والكيفية فيقول: «إن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف، وإنما القصد سلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين، ودين الله تعالى بين الغالي فيه والجافي والمقصر عنه، والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله، فإذا كان معلوماً أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف فإذا

(١) كتاب التوحيد لابن خزيمة ص(١٠).

(٢) الإمام العلاّمة الحافظ أبوسليمان حمد بن محمد البستي الخطابي صاحب التصانيف، ولد سنة بضع عشرة وثلاثمائة، وتفقه على مذهب الشافعي وله كتاب «شرح الأسماء الحسنى» وكتاب الغنية عن الكلام وأهله.
سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٣).

قلنا يد وسمع وبصر وما أشبهها فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه، ولسنا نقول: إن معنى اليد القوة أو النعمة، ولا معنى السمع والبصر العلم، ولا نقول إنها جوارح ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إن القول إنما وجب بإثبات الصفات؛ لأن التوقيف ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها؛ لأن الله ليس كمثله شيء وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات»[1].

٥ـ وقد لخَّص شيخ الإسلام ابن تيمية معتقد أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات فقال:

«فأما الأول وهو التوحيد في الصفات، فالأصل في هذا الباب أن يُوصَفَ الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله نفياً وإثباتاً فيثبت لله ما أثبته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، وقد عُلِمَ أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد في أسمائه ولا في آياته، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ

(١) من رسالة الغنية عن الكلام وأهله للخطابي نقلاً عن الفتوى الحموية لابن تيمية ص(٣٤) وقد ذكرها ابن تيمية أيضاً في الفتاوى (٥/ ٨٥) وذكر الذهبي أوله في مختصر العلو ص(٢٥٧).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾[(١)].

فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتا بلا تشبيه، وتنزيها بلا تعطيل كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[(٢)] ففي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ رد للتشبيه والتمثل. وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ رد للإلحاد والتعطيل، والله بعث رسله بإثبات مفصل ونفي مجمل فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾[(٣)]. قال أهل اللغة: هل تعلم له سميا أي نظيرا يستحق مثل اسمه، ويقال مساميا يساميه، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس هل تعلم له سمياً مثيلا أو شبيهاً»[(٤)].

والقصد هنا ليس الاستقصاء فلو ذهبنا نتتبع كلام علماء الأمة من السلف والخلف في هذه المسألة لطال بنا البحث، وإنما الغرض هو إيراد نماذج من أقوالهم ـ رحمهم الله ـ والتي تتفق جميعها على وجوب إثبات الأسماء والصفات لله ـ عز وجل ـ من غير تشبيه ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل، وهو ما يتفق مع ما ذهب إليه الشيخ عبدالقادر الجيلاني كما أسلفنا.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٣) سورة مريم، الآية: ٦٥.
(٤) الفتاوى لابن تيمية (٣/٣).

منهج الشيخ عبدالقادر في إثبات الأسماء والصفات

تختلف الفرق في أسماء الله ـ عز وجل ـ وصفاته بحسب المناهج التي سلكتها كل فرقة.

ولأهل السنة والجماعة منهجهم في تقرير هذا النوع من التوحيد وغيره من مسائل الاعتقاد.

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يقرر هذا المنهج بعبارة جامعة موجزة كعادة السلف ـ رحمهم الله ـ في كلامهم عن العقيدة حيث يكتفون بالعبارة الموجزة المختصرة للدلالة على المقاصد الشرعية.

قال رحمه الله:

«ولا نخرج عن الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما، ونكل الكيفية إلى علم الله عز وجل»[1].

فاشتمل كلامه ـ رحمه الله على الأسس الثلاثة التي يقوم عليها منهج أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء والصفات وهي:

١ـ إثبات الأسماء والصفات.

٢ـ تنزيه الله عز وجل عن مشابهة خلقه.

٣ـ الاعتراف بالعجز عن إدراك الكيفية.

فقوله ـ رحمه الله ـ: «ولا نخرج عن الكتاب والسنة» إثبات للأسماء والصفات.

وقوله: «نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما» تنزيه الله ـ عز وجل ـ عن مشابهة خلقه إذ أن تفسير النص لابدَّ أن يوقع في التشبيه

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٥٧).

ولذلك فتفسير الآية والحديث الذي يشتمل على الأسماء والصفات هو قراءته وفهمه وإثباته.

وقوله: «ونكل الكيفية إلى علم الله عز وجل» الاعتراف بالعجز عن إدراك الكيفية.

وهذه هي الأسس الثلاثة التي ورد كلام السلف وعلماء أهل السنة والجماعة لتقريرها واعتمادها وهذه بعض أقوالهم حولها:

أولاً الإثبات:

أي أنهم يثبتون لله عز وجل جميع الأسماء والصفات التي جاءت في الكتاب والسنة على ما يليق به سبحانه مع اعتقادهم أنها دالة على معانٍ ثابتة كاملة في نفس الأمر من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل. وقد سبق ذكر بعض أقوالهم.

ويرتكز الإثبات عند السلف على قاعدتين رئيسيتين ذكرهما شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فقال:

القاعدة الأولى: أن القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر فإن من أثبت بعض الصفات كالحياة والقدرة والإرادة والكلام ويجعل ذلك كله حقيقة ثم ينكر المحبة والرضا والغضب ويجعل ذلك مجازاً يقال له: ما الفرق بين ما أثبته وما نفيته، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر. فإن قال: إن إرادته مثل إرادة المخلوقين. قيل: فكذلك رضاؤه وغضبه وهذا هو التمثيل.

وإن قال: إن له إرادة تليق به كما إن للمخلوقين إرادة تليق بهم. قيل له: فكذلك له محبة تليق به، وللمخلوقين محبة تناسب حالهم. وكذلك سائر الصفات كالرضا والغضب.

فإن قال: الغضب غليان الدم لطلب الانتقام. يقال له: الإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة ودفع مضرة.

فإن قال: هذه إرادة المخلوق. قيل له: وهذا غضب المخلوق. وكذلك يلزم القول في بقية الصفات فيجب أن يؤخذ الكل، أو يقال في الكل ما يقال في البعض، وبهذه القاعدة نردُّ على طوائف منحرفة في هذا الباب من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وأمثالهم.

القاعدة الثانية: القول في الصفات كالقول في الذات، فالله سبحانه وتعالى له ذات لا تشبه ذوات المخلوقين وكذلك صفاته وأفعاله لاتشبه صفات المخلوقين وأفعالهم. إذ يلزم من أقرَّ بأن لله حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء أن يقول: إن سمعه وبصره وكلامه الثابت في نفس الأمر لا يشابهه سمع المخلوقين ولا بصرهم ولا كلامهم.

فإذا قال قائل: أنا أنفي استواء الله خشية من تشبيه الله بخلقه. فيقال له: إنف وجود الله وذاته لأنه يلزم من ذلك تشبيه الله بخلقه. فإن قال: لله وجود يخصه وذات تخصه لا تشبه ذوات المخلوقين. قلنا: وكذلك نزوله واستواؤه وبهاتين القاعدتين نرد على من قال: إن مذهب السلف هو التفويض وليس الإثبات»[1].

---

(١) انظر: الفتاوى لابن تيمية (٣/١٧-٢٧).

ثانياً التنزيه:

يعتقد سلف الأمة أن الله لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته ولا في أفعاله، وأن إثبات ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يقتضي تشبيهاً أو تمثيلاً. يقول أبوعثمان الصابوني:

«إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم يشهدون لله تعالى بالوحدانية وللرسول ﷺ بالرسالة والنبوة، ويعرفون ربهم ـ عز وجل ـ بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله، أو شهد له بها رسوله ﷺ على ما وردت الأخبار الصحاح به، ونقلته العدول الثقات عنه، ويثبتون له ـ جل جلاله ـ منها ما أثبت لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه، فيقولون إنه خلق آدم بيده، كما نص سبحانه عليه في قوله ـ عز من قائل ـ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ﴾[1] ولا يحرفون الكلم عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين، أو القوتين، تحريف المعتزلة والجهمية أهلكهم الله، ولا يكيفونها بكيف، أو يشبهونهما بأيدي المخلوقين تشبيه المشبهة خذلهم الله وقد أعاذ الله تعالى أهل السنة من التحريف والتكييف والتشبيه ومنَّ عليهم بالتعريف والتفهيم حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه وتركوا القول بالتعليل والتشبيه واتبعوا قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[2]».

(١) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة والقدرة والعزة والعظمة والإرادة والمشيئة والقول والكلام والرضا والسخط والحياة واليقظة والفرح والضحك وغيرها، من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى وقاله رسوله ﷺ من غير زيادة عليه ولا إضافة إليه ولا تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتأويل منكر ويجرونه على الظاهر ويكلون علمه إلى الله تعالى»[١].

---

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني، ص(٣) تحقيق السبكي.

ثالثاً عدم إدراك الكيفية :

لما كانت الإحاطة بذات الباري سبحانه مستحيلة كما أخبر بذلك عز وجل: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾(١) كانت معرفة كيفية صفاته ـ عز وجل ـ مستحيلة أيضاً ولا سبيل إلى إدراكها؛ لأن معرفة كيفية الصفة متوقفة على معرفة كيفية الذات ومادمنا لا نقدر على معرفة كيفية الذات الإلهية فكذلك سنكون أعجز عن إدراك كيفية صفاته، ولذا فإن بعض أئمة السلف حينما سئلوا عن كيفية الاستواء قال: «الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة»(٢).

وهكذا يتبين موافقة الشيخ عبدالقادر الجيلاني لما ذهب إليه علماء أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء والصفات للباري ـ عز وجل .

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٢) ذكره اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة برقم (٦٦٤) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد نسبته إلى مالك: «ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك». الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٣٦٥).

عدد أسماء الله الحسنى

معرفة أسماء الله وصفاته والعلم بها يؤدي إلى كمال العلم بذاته ـ سبحانه ـ وبالتالي كمال الخضوع والعبودية له ـ عز شأنه ـ ولذا كان العلم بها من أشرف العلوم لتعلقها بذات الباري ـ عز وجل ـ فبها يسأل وبها يثنى عليه وبها يمدح ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومذهب الشيخ عبدالقادر الجيلاني في عدد أسماء الله الحسنى، وهل هي محصورة في العدد المحدد بالحديث الصحيح غير واضح فقد اكتفى بإيراد نص الحديث الذي ورد في عدد الأسماء فقال:

«ونعتقد أن الله عز وجل له تسعة وتسعون اسماً مَنْ أحصاها دخل الجنة»[١].

ثم استدل على ذلك بذكر الحديث الذي يرويه الصحابي الجليل أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلاَّ واحداً من أحصاها دخل الجنة»**[٢].

وهذا لا يكفي في ترجيح أي القولين يذهب إليه إلاَّ أنه بعد أن سردها وذكر السور القرآنية التي جاءت فيها تلك الأسماء نقل عن عبدالله بن أحمد ذكره لأسماء زائدة على هذه مثل ياقاهر، يافاصل، ياخالق، يارقيب، ياماجد، ياجواد، ياأحكم الحاكمين[٣]، وبعد أن نقل عن جعفر الصادق قوله: إن لله ثلاث مائة وستين اسماً رجَّح أن

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٦١).

(٢) رواه البخاري ح (٢٧٣٦)، ومسلم ح (٢٦٧٧).

(٣) لم أجده في كتاب السنة للإمام عبدالله بن أحمد.

الصحيح ما ذكر عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ومعنى هذا أنه يميل إلى القول بحصرها في العدد المحدد في الحديث السالف ذكره.

وأما جمهور علماء أهل السنة والجماعة فقد ذهبوا إلى أن أسماء الله ـ عز وجل ـ غير محصورة:

١ـ قال الإمام الخطابي: إن للهتسعة وتسعين اسماً فيه إثبات هذه الأسماء المحصورة بهذا العدد وليس فيه نفي ماعداها من الزيادة عليها وإنما وقع التخصيص بالذكر لهذه الأسماء لأنها أشهرُ الأسماء وأبينُها معان وأظهرها وجملة قوله: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**» قضية واحدة لا قضيتان ويكون تمام الفائدة في خبر إن في قوله: «**من أحصاها دخل الجنة**» لا في قوله: «**تسعة وتسعين اسماً**» وإنما هو بمنزلة قولك إن لزيد ألف درهم أعدَّها للصدقة وكقولك إن لعمرو مائة ثوب من زاره خلعها عليه. وهذا لا يدل على أنه ليس عنده من الدراهم أكثر من ألف درهم، ولا من الثياب أكثر من مائة ثوب، وإنما دلالته أن الذي أعده زيد من الدراهم للصدقة ألف درهم، وإن الذي أرصده عمرو من الثياب للخلع مائة ثوب»[1].

٢ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «جمهور العلماء وسلف الأمة وأئمتها على أن أسماء الله ـ عز وجل ـ غير محصورة في تسعة وتسعين إسماً». ثم قال: «وهو الصواب لثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن التسعة والتسعين إسماً لم يرد في تعيينها حديث صحيح.

الوجه الثاني: أنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إن الله

(١) شأن الدعاء للخطابي (٢٣).

وتر يحب الوتر»[١] وليس هذا الاسم في هذه التسعة والتسعين، وثبت في الصحيح أنه قال: «إن الله جميلٌ يحب الجمال»[٢] وليس هو فيها، وفي الصحيح أيضاً أنه قال: «إن الله طيبٌ لا يقبل إلاَّ طيباً»[٣] وليس هذا فيها.

الوجه الثالث: ما احتج به الخطابي وغيره وهو حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك عدلٌ فيَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علَّمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي وشفاء صدري وجلاء حزني وذهاب غمي وهمي إلاَّ أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً» قالوا: يارسول الله أفلا نتعلمهن؟ قال: «بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن»[٤]. قال الخطابي وغيره: فهذا يدل على أن له أسماء استأثر بها وذلك يدل على أن لله أسماء لم ينزلها في كتابه حجبها عن خلقه ولم يظهرها لهم»[٥].

ثم يواصل ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فيقول: «والله في القرآن قال:

---

(١) رواه البخاري ح (٢٧٣٦)، ومسلم ح (٢٦٧٧).
(٢) رواه مسلم رقم (٩١).
(٣) رواه مسلم رقم (١٠١٤).
(٤) أخرجه الإمام أحمد (١/٣٩١) وصححه ابن حبان رقم (٢٣٧٢) والحاكم في المستدرك (١/٥٠٩)، وقال أحمد شاكر في شرح المسند: إسناده صحيح (٥/٣٧١١)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٣٣٦) رقم (١٩٩).
(٥) شأن الدعاء للخطابي (٢٤).

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[١] فأمر أن يدعى بأسمائه الحسنى مطلقاً ولم يقل: ليست أسماؤه الحسنى إلاَّ تسعة وتسعين إسماً والحديث قد سلم معناه والله أعلم»[٢].

غير أن هناك من العلماء من ذهب إلى القول بحصرها في العدد المنصوص عليه في حديث أبي هريرة، وخالف ما اتفق عليه جمهور العلماء، ومنهم ابن حزم ـ رحمه الله ـ الذي تمسك بظاهر النص وشدَّد في ذلك زاعماً أن من أجاز أن يكون لله اسم زائد عليها فهو كافر حيث يقول:

«وأن له ـ عز وجل ـ تسعة وتسعين إسماً مائة غير واحد وهي أسماؤه الحسنى من زاد شيئاً من عند نفسه فقد ألحد في أسمائه وهي الأسماء المذكورة في القرآن والسنة وقد صح أنها تسعة وتسعون إسماً فقط، ولا يحل لأحد أن يجيز أن يكون له اسم زائد لأنه عليه السلام قال: «**مائة غير واحد**» فلو جاز أن يكون له تعالى اسم زائد لكانت مائة اسم ولو كان هذا لكان قوله عليه السلام مائة غير واحد كذباً ومن أجاز هذا فهو كافر»[٣].

وفي كلام العلماء السابق ذكره ما يرد على ابن حزم ويدفع مقولته التي لا تخلو من الجرأة والمبالغة كعادته ـ رحمه الله وغفر الله لنا وله ـ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٢) فتاوى ابن تيمية (٢٢/ ٤٨٢) بتصرف.
(٣) المحلى لابن حزم(١/ ٣٠).

هل يوصف الله عز وجل بغير ما وصف به نفسه

الدلالة على الذات الإلهية على ثلاثة أنواع وهي:

١ـ الأسماء.

٢ـ الصفات.

٣ـ الإخبار.

وأسماء الله الحسنى وصفاته العلى توقيفية لا مجال للرأي والاجتهاد فيها ولايجوز دعاء الله أو إطلاق أي اسم أو صفة عليه سبحانه إلاّ إذا ثبت ورودها بالدليل الشرعي من كتاب الله ـ عز وجل ـ أو سنة رسوله ﷺ بخلاف الإخبار عنه سبحانه فإنه يصح أن يخبر عنه بما هو حسن والشيخ عبدالقادر الجيلاني عقد فصلاً مطولاً فيما لا يجوز إطلاقه على الباري ـ عز وجل ـ من الصفات وما يجوز من ذلك ثم ختم الفصل بقوله:

«فإذا ثبت هذا على ما ذكرنا فلا يجوز أن يدعى ـ عز وجل ـ باسم لا يجوز إطلاقه عليه ـ عز وجل ـ على ماذكرنا في أول الفصل وإنما يجوز أن يدعى بما يسمى به من الأسماء التي يجوز وصفه بها وصفاته التي يجوز أن يوصف بها».

إلى أن قال: **«وإذا أراد أن يصفه ويدعو بماذكرنا في هذا الفصل جاز ذلك إلاّ أنه يجتنب في دعائه أن يدعوه عز وجل بقوله: ياساخر يامستهزيء ياماكر ياخادع ومبغض وغضبان ومنتقم ومعاد ومعدم ومهلك فلا يدعو بها وإن كان مما يجوز وصفه بها على وجه**

الجزاء والمقابلة لأهل الإجرام على وجه الاستحقاق»[١].

وكلامه هذا له احتمالان :

الاحتمال الأول: أنه أراد أن الله يوصف بهذه الصفات فهذا مردود لأن السلف مجمعون على عدم جواز وصفه تعالى بغير ما ورد. يقول قوام السنة الإمام الأصبهاني وهو يبين ضلال من سمى أو وصف الله ـ عز وجل ـ بغير ما سمى ووصف به نفسه أو سماه ووصفه به رسوله ﷺ:

«فلا يسمى أي الله تعالى إلاَّ بما سمى به نفسه في كتابه أو سماه به رسوله ﷺ وأجمعت عليه الأمة أو أجمعت الأمة على تسميته به ولا يوصف إلاَّ بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ أو أجمع عليه المسلمون فمن وصفه بغير ذلك فهو ضال»[٢].

الاحتمال الثاني: أنه أراد أنه يجوز الإخبار عنه سبحانه بتلك الألفاظ فهذا جائز لأن أهل السنة يرون أن ما يدخل في باب الأخبار أوسع مما يدخل في باب الأسماء والصفات كالشيء والموجود فإنه يصح أن يخبر عنه سبحانه بهذه الألفاظ مع أنها لا تدخل في الأسماء والصفات وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«ويفرق بين دعائه والإخبار عنه فلا يدعى إلاَّ بالأسماء الحسنى وأما الإخبار عنه فلا يكون باسم سيء لكن قد يكون باسم حسن أو باسم ليس بسيء وإن لم يكن بحسن مثل اسم شيء وذات وموجود»[٣].

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٨١).

(٢) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني (٢/ ٣٨٣).

(٣) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٦/ ١٤٢).

والأرجح أن الشيخ عبدالقادر الجيلاني إنما أراد أنه يجوز الإخبار عن الله سبحانه بها لا على أنها صفة من صفاته ـ عزوجل ـ بدليل تقييده بأن الله إنما يجوز وصفه بها على سبيل الجزاء والمقابلة لأهل الإجرام على وجه الاستحقاق والله أعلم.

تفصيل معتقد الشيخ عبدالقادر الجيلاني في الأسماء والصفات:

يلتزم الشيخ عبدالقادر في عرضه لأسماء الله وصفاته عز وجل غالباً بلفظ النصوص الواردة وهذا غاية الاحتياط منه ـ رحمه الله ـ في الحديث عن الله ـ عز وجل ـ وأسمائه وصفاته.

وقد تحدث عن جملة من أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته نوردها ثم نبين مدى موافقة منهجه ـ رحمه الله ـ لمذهب السلف في ذلك:

أولاً الصفات الذاتية :

وهي الصفات المتعلقة بذات الباري ـ سبحانه ـ ولا تتعلق بالمشيئة والاختيار بل لا تنفك عن الرب ـ عز وجل ـ بحال من الأحوال باعتبارها من لوازم الذات الإلهية ومنها:

١ـ اليدان:

من الصفات الثابتة لله عز وجل، وقد أشار الشيخ عبدالقادر الجيلاني إلى ثبوت هذه الصفة لله سبحانه فقال:

«له يدان وكلتا يديه يمين قال عز وجل: ﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾[١] وروى نافع عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: قرأ رسول الله ﷺ على المنبر والسموات مطويات بيمينه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكره ثم يقول: أنا العزيز، فلقد رأيت رسول الله يتحرك على المنبر حتى كاد يسقط[٢]»[٣].

وهو ـ رحمه الله ـ إنما ذكر إثبات اليدين على النحو الذي وردت به الآية الكريمة والحديث الشريف.

وإثبات اليدين لله ـ عز وجل ـ هو مذهب أهل السنة والجماعة إتباعاً لمنهجهم القويم في صفات الباري ـ سبحانه ـ وهو وجوب إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ من الصفات إثباتاً بلا تكييف ولا تمثيل وتنزيهاً بلا تحريف ولا تعطيل وذلك خلافاً لما ذهب إليه غيرهم من تأويل اليدين مرة بالنعمة[٤] ومرة بالقدرة[٥] مما

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٢) رواه البخاري بلفظ قريب من هذا ح (٧٤١٢).

(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٥٥).

(٤) انظر مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري (١/ ١٩٥، ٢١٨).

(٥) انظر مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري (١/ ١٩٥، ٢١٨).

لا دليل عليه من كتاب ولا سنة وهذا طرف من كلام علماء وأئمة أهل السنة والجماعة في إثبات صفة اليدين:

١ـ قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «من زعم أن يداه[1] نعمتاه، كيف يصنع بقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[2] مشددة[3].

٢ـ وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: إن لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع مفرداً أو مثنى أو مجموعاً، فالمفرد كقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[4] والمثنى كقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[5] والمجموع ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾[6].

فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد وعدى الفعل بالباء إليهما فقال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

وحيث ذكرها مجموعة أضاف الفعل إليها ولم يعدّ الفعل بالباء.

فهذه ثلاثة فروق فلا يحتمل ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ من المجاز[7] ما يحتمله ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ فإن كل واحد يفهم من قوله: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ما يفهمه من قوله عملنا وخلقنا كمايفهم ذلك من قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[8].

وأما قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن

---

(١) هكذا كتبت في المصدر [يداه] والصحيح أنها [يديه] لأنها منصوبة بأن.
(٢) سورة ص، الآية: ٧٥.
(٣) إبطال التأويلات لأخبار الصفات لأبي يعلى (١٠٢).
(٤) سورة الملك، الآية: ١.
(٥) سورة ص، الآية: ٧٥.
(٦) سورة يس، الآية: ٧١.
(٧) هذا على سبيل الحكاية عن أصحابه القائلين به وإلاَّ فإنه رحمه الله قد أبطل المجاز بأكثر من أربعين وجهاً في هذا الكتاب.
(٨) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى فكيف وقد دخلت عليها الباء وكيف إذا ثُنّيت.

وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد والمراد الإضافة إليه كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[١] و﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[٢]. وأما إذا أُضيف إليه الفعل ثم عدى بالباء إلى يده مفردة أو مثناة فهو مما باشرته يده ولهذا قال عبدالله بن عمر: «**إن الله لم يخلق بيده إلاَّ ثلاثاً خلق آدم بيده وغرس جنة الفردوس بيده، وكتب التوراة بيده**»[٣] فلو كانت اليد هي القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على كل شيء مما خلق بالقدرة»[٤].

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٠.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٣) لم أجد هذا الأثر فيما بين يدي من المراجع منسوباً إلى ابن عمر، وإنما وجدته مرفوعاً إلى النبي ﷺ ونصه: «خلق الله الفردوس بيده وخلق جنة عدن بيده وكتب التوراة لموسى بيده» رواه البيهقي في الأسماء والصفات ص(٣١٨). والدارقطني في الصفات رقم (٢٨). كما وجدته منسوبا إلى حكيم بن جابر وكعب الأحبار في الشريعة للآجري ص(٣٠٣).

(٤) مختصر الصواعق المرسلة للموصلي (٢٧، ٢٨).

- صفة القَدَم :

من الصفات الذاتية التي وردت بها الأدلة الصحيحة صفة القَدَم لله - عز وجل - والشيخ عبدالقادر الجيلاني يثبت لله هذه الصفة فيقول: «**ويضع قدمه في جهنم فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط**»[١] وهو بهذا يشير إلى الأحاديث الصحيحة التي جاء ذكر القدم فيها وهي:

ما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**لاتزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العزة تبارك وتعالى قدمه فتقول قط قط وعزتك ويزوى بعضها إلى بعض**»[٢].

وما في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**تحاجت النار والجنة فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلاَّ ضعفاء الناس وسقطهم وعجزهم. فقال الله للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكم ملؤها فأما النار فلا تمتلىء، فيضع قدمه عليها فتقول: قط قط، فهنالك تمتلىء ويزوى بعضها إلى بعض**»[٣].

وقد تلقى علماء أهل السنة والجماعة هذه الأحاديث الصحيحة بالقبول وأمروُّها كما جاءت ولم يخوضوا في الكيفية فهذا الإمام أحمد - رحمه الله - وقد سئل عن الأحاديث يضع قدمه وغيرها يقول نمرّها كما جاءت»[٤].

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري ح (٧٣٨٤)، ومسلم ح (٢٨٤٨).

(٣) رواه البخاري ح(٧٤٤٩)، ومسلم ح (٢٨٤٦).

(٤) إبطال التأويلات للقاضي أبويعلى (١/ ١٩٥).

أما الترمذي فيقول: «قد روي عن النبي ﷺ روايات كثيرة يذكر فيها أمر الرؤية وأن الناس يرون ربهم وذكر القدم وما أشبه هذه الأشياء والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل: سفيان الثوري ومالك بن أنس، وابن المبارك[١]، وابن عيينة[٢]، ووكيع[٣]، وغيرهم، أنهم رووا هذه الأشياء ثم قالوا: نروي هذه الأحاديث ونؤمن بها ولا يقال: كيف وهذا الذي اختاره أهل الحديث أن تروىٰ هذه الأشياء كما جاءت ويؤمن بها ولا تفسر ولا تتوهم ولا يقال كيف وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه»[٤].

---

(١) الإمام العالم المجاهد الثقة العابد عبدالله بن المبارك تفقه على مالك وسفيان الثوري وغيرهم، وكان من المجاهدين والمنفقين توفي عائداً من الغزو سنة ١٨١هـ.
سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٧٨).

(٢) هو: أبومحمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي ولد سنة ١٠٧هـ، بالكوفة وطلب العلم حتى صار إماماً عالماً حجة زاهداً ورعاً مجمعاً على إمامته وصحة حديثه.
سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٥٤).

(٣) الإمام الحافظ الحجة وكيع بن الجراح من حفّاظ الحديث ثبت ثقة له مصنفات مفيدة توفي إثر عودته من الحج سنة ١٩٧هـ.
سير أعلام النبلاء (٩/ ١٤٠).

(٤) سنن الترمذي (٤/ ٦٩٢).

٣ـ صفة الأصابع :

يثبت الشيخ عبدالقادر الجيلاني صفة الأصابع لله عز وجل، لورود الأدلة الصحيحة بشأنها فيقول:

«وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»[(١)].

وأدلة ثبوت صفة الأصابع كثيرة منها قوله ﷺ: **«إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء»** ثم قال ﷺ: **«اللهم مصرف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك»**[(٢)].

وعلى هذا الإثبات درج علماء أهل السنة والجماعة كعادتهم في إثبات ما جاء في الكتاب والسنة من الصفات على ما يليق بجلال الله ـ عز وجل ـ من غير تكييف ولا تمثيل:

١ـ قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: «وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ويوعيها ما أراد»[(٣)].

٢ـ وقال الإمام الدارمي[(٤)] في رده على بشر المريسي[(٥)]: «ورويت

---

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٥٥).

(٢) رواه مسلم، ح (٢٦٥٤).

(٣) طبقات الحنابلة (١/ ٢٩).

(٤) عثمان بن سعيد الدارمي: الإمام العلاّمة الحافظ الناقد، طاف الأقاليم في طلب الحديث، وصنَّف كتابين في الرد على بشر المريسي وعلى الجهمية، وفاق أهل زمانه وكان لهجاً بالسنة بصيراً بالمناظرة، قال عنه الذهبي: كان جذعاً في أعين المبتدعة، مات سنة ٢٨٠هـ.
سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣١٩).

(٥) بشر بن غياث المريسي العدوي: معتزلي عارف بالفلسفة رمي بالزندقة وقد أخذ آراء جهم ودعى إليها وروَّج لها.

=

أيها المريسي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» فأقررت أن النبي ﷺ قاله، ثم رددته بأقبح محال وأوحش ضلال ولو دفعت الحديث أصلاً كان أعذر لك من أن تقر به ثم ترده بمحال من الحجج وبالتي هي أعوج فزعمت أن إصبعي الله قدرتاه وكذلك قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1] أي في ملكه. فيقال لك أيها المعجب بجهالته: في أي لغات العرب وجدت أن إصبعيه قدرتيه، فأنبئنا بها فإنا قد وجدناها خارجة من جميع اللغات، إنما هي قدرة واحدة قد كفت الأشياء كلها وملأتها، واستنطقتها فكيف صارت القلوب من بين الأشياء بين قدرتين، وكم تعدها قدرة، فإن النبي ﷺ قال: «بين إصبعين من أصابع الرحمن» وفي دعواك هي أكثر من قدرتين وثلاث وأربع حكمت فيها للقلوب بقدرتين وسائرها لما سواها ففي دعواك هذا أقبح محال وأبين ضلال»[2].

= سير أعلام النبلاء (١٠/٢٩٩).

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٢) الرد على بشر المريسي للإمام الدارمي (٥٩).

- صفة العلو :

من صفات الكمال للذات الإلهية صفة العلو وهي فرع من توحيد الأسماء والصفات والله سبحانه متصف بالعلو المطلق من جميع الوجوه ذاتاً وقدراً وقهراً. وهذا هو الحق الذي عليه سلف الأمة وأئمتها والتابعون لهم بإحسان فإنهم يثبتون لله علوه بذاته على جميع خلقه على ما يليق به سبحانه بلا تشبيه ولا تكييف كما هو الشأن في كل ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ.

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يثبت لله هذه الصفة فيقول:

«وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش محتوٍ على الملك محيط علمه بالأشياء، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[(١)]، ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾[(٢)]»[(٣)].

وهو بهذا يوافق أهل السنة والجماعة فيما ذهبوا إليه من إثبات هذه الصفة وغيرها من صفات الكمال اللائقة بجلاله سبحانه. وسوف أعرض لهذه المسألة بشيء من التفصيل لأهميتها وكثرة المخالفين فيها من الطوائف المبتدعة الذين عطّلوا هذه الصفة لاعتمادهم على شبهات باطلة وأوهام واهية.

وقد دل الكتاب الكريم والسنة المطهرة على اتصاف الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالعلو والفوقية بأنواع كثيرة من الدلالات منها:

١ـ التصريح بالعلو المطلق ذاتاً وقدراً وقهراً. يقول تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٥.

(٣) الغنية للجيلاني (١/ ٥٤).

﴿رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾[(١)] و﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾[(٢)] و﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾[(٣)].

٢ـ التصريح بأنه في السماء لقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦﴾[(٤)] والسماء اسم جنس للعالي يتناول كل سماء كالسموات والكرسي والعرش فقوله: في السماء، أي في العلو فهو سبحانه العلي الأعلى.

ومن السنة الدالة على كونه تعالى في السماء ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري قال: بعث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها قال: فقسمها بين أربعة نفر، بين عيينة بن بدر[(٥)]، وأقرع بن حابس[(٦)]، وزيد

(١) سورة الأعلى، الآية: ١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٢، ٤٣.
(٤) سورة الملك، الآية: ١٦.
(٥) عيينة بن بدر: قال ابن حجر في الفتح: كذا نسب إلى جده الأعلى، وهو عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، صحابي من المؤلفة قلوبهم، أسلم قبل الفتح، وشهد فتح مكة وحنينا والطائف، كان النبي ﷺ يسميه الأحمق المطاع، ارتد في زمن أبي بكر، ومال إلى طليحة ثم عاد فأسلم وعاش إلى خلافة عثمان.
انظر: الإصابة (٤/٧٦٧). والفتح لابن حجر (٧/٦٦٦).
(٦) الأقرع بن حابس بن عقال المجاشعي: صحابي من سادات العرب في الجاهلية قدم على النبي ﷺ في وفد بني دارم من تميم، فأسلموا وشهد حنينا، وفتح مكة، والطائف، وسكن المدينة، وكان من المؤلفة قلوبهم ورحل إلى دومة الجندل في خلافة أبي بكر، وكان مع خالد بن الوليد في أكثر وقائعه حتى اليمامة واستشهد في =

الخيل[١]، والربيع إما علقمة[٢] وإما عامر بن الطفيل[٣] فقال رجل من أصحابه: كنا أحق بهذا من هؤلاء. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: **«ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءاً»** قال: فقام رجل غائر العينين مُشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار فقال: يارسول الله اتق الله! قال: **«ويلك أوَلست أحق أهل الأرض أن يتقي الله»** قال: ثم ولّى الرجل. قال خالد بن الوليد: يارسول الله

= الجوزجان، واسمه فراس والأقرع، لقب له لقرع في رأسه، وكان حكماً في الجاهلية.
الأعلام للزركلي (٢/ ٥).

(١) زيد بن مهلهل: من طيء من الأبطال في الجاهلية سمي زيد الخيل لكثرة خيله، وكثرة طراده بها، كان طويلاً جسيماً من أجمل الناس وكان شاعراً وخطيباً موصوفاً بالكرم، أدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ سنة ٩هـ، في وفد طيء فأسلم وسُرَّ به رسول الله وسماه زيد الخير وقال له: يازيد ما وصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلاّ رأيته دون ما وصف لي غيرك.
الأعلام للزركلي (٣/ ٦١).

(٢) علقمة بن علاثة العامري: صحابي من بني عامر بن صعصعة كان في الجاهلية من أشراف قومه، وفد على قيصر ثم أسلم ثم ارتد في أيام أبي بكر، وذهب إلى الشام فبعث إليه أبوبكر القعقاع بن عمرو، ففر منه ثم عاد إلى الإسلام وولاه عمر بن الخطاب حوران فنزلها حتى مات وكان رجلاً كريماً.
الأعلام (٤/ ٢٤٧).

(٣) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر: من بني عامر بن صعصعة فارس قومه، وأحد فتاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية، أدرك الإسلام شيخاً ووفد على رسول الله ﷺ في المدينة بعد فتح مكة يريد الغدر به، فلم يجرؤ عليه، فدعاه إلى الإسلام فاشترط أن يجعل له نصف ثمار المدينة، وأن يجعله ولي الأمر بعده فرده فعاد وهو يقول: لأملأنها خيلاً جرداً ورجالاً مرداً ولأربطن في كل نخلة فرساً. فمات في طريقه قبل أن يصل إلى قومه.
الأعلام للزركلي (٣/ ٢٥٢).

ألا أضرب عنقه؟ قال: «لا لعله أن يكون يصلي» قال خالد: وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه! قال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم» قال: ثم نظر إليه وهو مقف فقال: «إنه يخرج من ضئضئ[1] هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» وأظنه قال: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود»[2].

٣ـ إخباره ـ عز وجل ـ بعروج الأشياء وصعودها إليه سبحانه كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾[4].

ومن السنة: قوله ﷺ: «من تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلاَّ الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوَّه حتى تكون مثل الجبل»[5].

٤ـ التصريح بالفوقية في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾[6].

٥ـ التصريح بنزوله سبحانه كل ليلة إلى السماء الدنيا والنزول إنما

---

(١) يريد أن يخرج من نسله وعقبه. النهاية في غريب الحديث (٣/ ٦٩).

(٢) رواه البخاري ح (٤٣٥١)، ومسلم ح (١٠٦٤).

(٣) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(٥) رواه البخاري رقم (٧٤٣٠).

(٦) سورة النحل، الآية: ٥٠.

يكون من العلو. ففي الحديث الصحيح يقول النبي ﷺ: **ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ويقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له»**[١].

٦ـ الإشارة إليه سبحانه في جهة العلو؛ حين أشار إليه النبي ﷺ لما كان بعرفة في حجة الوداع فقال: **«وأنتم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت وأدَّيت ونصحت، ثم قال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد اللهم اشهد اللهم اشهد»**[٢].

وهكذا يتبين من خلال ما سبق دلالة الكتاب الكريم والسنة المطهرة على علو الله سبحانه وتعالى على خلقه واستوائه على عرشه وهو ما فهمه سلف هذه الأمة من الصحابة ومن بعدهم فأثبتوا لله العلو وهذاعرض لبعض أقوالهم:

أولاً: أقوال بعض الصحابة:

١ـ لما قُبِضَ رسول الله ﷺ دخل عليه أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ وقبّله وقال: بأبي أنت وأمي طبت حيًّا وميتاً، ثم قال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله في السماء حيٌّ لا يموت[٣].

٢ـ عندما لقي عمر بن الخطاب خولة بنت ثعلبة[٤] قال: هذه امرأة

---

(١) رواه البخاري، ح ١١٤٥.

(٢) رواه مسلم، ح (١٢١٨).

(٣) العلو للذهبي (٦٢).

(٤) خولة بنت مالك بن ثعلبة: امرأة أوس بن الصامت نزلت فيها وفي زوجها أوس صدر سورة المجادلة حينما ظاهر منها.
الإصابة لابن حجر (٨/٦٨).

سمع الله شكواها من فوق سبع سموات[1].

٣ـ حينما دخل عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ على أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهي تحتضر قال لها: لقد أنزل الله براءتك من فوق سبع سموات[2].

ثانياً: أقوال بعض التابعين :

يروي البيهقي بإسناد صحيح إلى الأوزاعي قال: كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله جل ذكره فوق عرشه ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته[3].

ثالثاً: أقوال بعض الأئمة :

١ـ قال رجل للإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: الله تعالى فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه وقدرته وعلمه بكل مكان. فقال له الإمام أحمد: نعم على عرشه لا يخلو شيء من علمه.[4].

٢ـ قال الإمام ابن عبدالبر: «لم يزل المسلمون في كل زمان إذا دهمهم أمر وكربهم غم يرفعون وجوههم وأيديهم إلى السماء رغبة إلى الله عز وجل في الكف عنهم»[5].

٣ـ استدل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ على إثبات علو الله ـ عز وجل ـ بكلام الشيخ عبدالقادر الجيلاني فقال ـ رحمه الله ـ:

---

(١) العلو للذهبي ص(٦٣).

(٢) العلو للذهبي (٩٦).

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (٤٨٠).

(٤) طبقات الحنابلة (١/ ٤٣١).

(٥) التمهيد لابن عبدالبر (٢٢/ ٨١).

«وقال الشيخ عبدالقادر في الغنية: أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهو أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد صمد - إلى أن قال: - وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش محتوٍ على الملك محيط علمه بالأشياء»[1].

وهكذا يتبين موافقة الشيخ عبدالقادر الجيلاني لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات هذه الصفة لله تعالى.

---

(١) الفتاوى لابن تيمية (٣/ ٢٢٢).

ثانياً: الصفات الفعلية

وهي التي تتعلق بمشيئة الله وإرادته سبحانه بحيث إن شاء الرب ـ عز وجل فعلها وإن شاء لم يفعلها وكل صفة فعلية فهي صفة ذاتية من جهة قدرة الرب ـ عزوجل ـ على فعلها في أي وقت شاء، وفيما يلي عرض للصفات الفعلية التي أوردها الشيخ عبدالقادر الجيلاني:

١ ـ الاستواء :

وهو من الصفات الثابتة لله ـ عز وجل ـ بالكتاب والسنة وإجماع السلف ـ رحمهم الله ـ الذين يعتقدون بأن الله مستوٍ على عرشه إستواءً يليق بعظمته وجلاله من غير تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل.

وقد أخذ الشيخ عبدالقادر الجيلاني في مسألة الاستواء بالمعنى الذي أثبته النص القرآني من غير تأويل ولا تعطيل مخالفاً بذلك ما ذهب إليه أهل الضلال الذين تأولوا النص وعطَّلوا هذه الصفة الثابتة له سبحانه بما يليق به، فدفع الشيخ عبدالقادر الجيلاني أقوالهم في رده عليهم بقوله:

«وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وأنه استواء الذات على العرش لا على معنى القعود والمماسة كما قالت المجسمة[١] والكرامية[٢] ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية[٣] ولا

---

(١) انظر عقيدة المجسمة في الاستواء بمقالات الإسلاميين للأشعري (١/ ٢١١).

(٢) انظر عقيدة الكرامية في الاستواء، الفرق بين الفرق للبغدادي (٢١٦).

(٣) انظر: الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٤٣٧).

على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة[١]؛ لأن الشرع لم يرد بذلك ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث بل المنقول عنهم حمله على الإطلاق»[٢].

وقد استدل ـ رحمه الله ـ على ذلك بما روي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ ـ رضي الله عنها ـ في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[٣] قالت: «الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول، والإقرار به واجب والجحود به كفر» وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي ﷺ في صحيحه[٤]. وكذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه[٥][٦].

ويؤكد الشيخ عبدالقادر إثباته لهذه الصفة معرِّضاً بالذين أوَّلوها بالعلو من الأشاعرة فيقول:

---

(١) انظر عقيدتهم في الاستواء، مقالات الإسلاميين للأشعري (١/ ١٥٧).
(٢) الغنية للجيلاني (١/ ٥٦).
(٣) سورة طه، الآية: ٥.
(٤) هذا الأثر لم يرد في شيء من الكتب الستة ولا المسند وإنما ورد في كتب أخرى، فقد رواه اللالكائي برقم (٦٦٣) موقوفاً عليها ولكنه لم يصحح السند فيها.
قال ابن تيمية بعد إيراده للأثر عن مالك: «وقد روى هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه» الفتاوى (٥/ ٣٦٥).
وقد ذكره الذهبي عن أم سلمة ثم علّق بقوله: «هذا القول محفوظ عن جماعة كربيعة الرأي ومالك الإمام وأبي جعفر الترمذي فأما أم سلمة فلايصح؛ لأن أباكنانة ليس بثقة وأبوعمير لا أعرفه» العلو للذهبي (٦٥).
(٥) هذا القول منقول عن جماعة من السلف كربيعة الرأي ومالك بن أنس رحمهما الله، وقد رواه اللالكائي بسنده برقم (٦٦٤، ٦٦٥) في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة.
(٦) الغنية للجيلاني (١/ ٥٦).

«وكونه ـ عز وجل ـ على العرش مذكوراً في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف؛ لأن الله لم يزل موصوفاً بالعلو والقدرة والاستيلاء والغلبة على جميع خلقه من العرش وغيره فلا يحمل الاستواء على ذلك فالاستواء من صفات الذات بعدما أخبرنا به ونص عليه وأكده في سبع آيات من كتابه[1] والسنة المأثورة به وهي صفة لازمة له، ولائقة به؛ كاليد والوجه والعين والسمع والبصر والحياة والقدرة، وكونه خالقاً ورازقاً ومحيياً ومميتاً موصوف بها، ولا نخرج من الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل»[2].

وكلام الشيخ عبدالقادر هنا له احتمالان:

الأول: أنه ـ رحمه الله ـ أراد أن الله عز وجل لم يزل قادراً على الفعل أزلاً، فهو سبحانه متصف بهذه القدرة في الأزل، ولم يتجدد له صفة لم تكن من قبل، ولكنه سبحانه إنما استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض مع أن العرش كان مخلوقاً قبل السموات والأرض كما ثبت ذلك في الصحاح.

وهذا هو المتفق مع اعتقاد الشيخ الإجمالي وكذلك مع اعتقاده في مسألة الاستواء كما تقدم في النص السابق قبل هذا من حيث المعنى العام.

الثاني: أن يكون أراد أن الله عز وجل لم يزل مستوياً على عرشه أزلاً وأن وصفه بذلك كوصفه بأن له يداً ووجهاً، وكإثبات السمع والبصر والحياة والقدرة وهي صفات ملازمة للذات أزلاً وأبداً.

---

(١) آيات الاستواء في القرآن الكريم هي: الأعراف ٥٤، ويونس ٣، والرعد ٢، وطه ٥، والفرقان ٥٩، والسجدة ٤، والحديد ٤.

(٢) الغنية للجيلاني (١/ ٥٧).

وذلك يعني أن الله عز وجل لم يفعل الاستواء بعد أن لم يكن.

ولكن الذي نرجحه: أنه ـ رحمه الله ـ أراد بقوله: «وهي صفة لازمة له» أي ثابتة وقوله: «ولائقة به كاليد والوجه...» أي أنها ثابتة له عز وجل كثبوت اليد والوجه ونحوها من صفات الكمال التي تليق به ـ عز وجل ـ فإن جميع الصفات الواردة في حقه ـ سبحانه ـ نثبتها على ما يليق به سبحانه.

هذا هو مجمل اعتقاده الذي ذكره حول ثبوت صفة الاستواء لله ـ عز وجل ـ استواءاً يليق بجلاله وهو بهذايتفق مع علماء أهل السنة والجماعة الذين يثبتون لله سبحانه وتعالى هذه الصفة الدالة على كمال عظمته وهذه بعض أقوالهم:

١ـ سُئل الإمام مالك ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾[1] كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء[2] ثم قال: «الاستواء معلوم والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلاَّ مبتدعاً» ثم أمر به فأُخرج.

وجميع أئمة الدين كابن الماجشون والأوزاعي والليث بن سعد وحماد بن زيد[3] والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم، كلامهم يدل على ما دل عليه كلام مالك من أن العلم بكيفية الصفات ليس بحاصل لنا؛ لأن العلم بكيفية الصفة فرع على العلم بكيفية

---

(١) سورة طه، الآية: ٥.

(٢) الرحضاء: العرق أثر الحمى، أو عرق يغسل الجلد كثره. القاموس المحيط ص(٨٢٩).

(٣) حماد بن زيد بن درهم: الإمام العلامة الحافظ الثبت أحد الأعلام. قال عنه عبدالرحمن بن مهدي: لم أر أحداً قط أعلم بالسنة والحديث من حماد مات سنة ١٧٩هـ.
سير أعلام النبلاء (٧/٤٥٦).

الموصوف، فإذا كان الموصوف لا تعلم كيفيته امتنع أن تعلم كيفية الصفة، ومتى جنب المؤمن طريق التحريف والتعطيل وطريق التمثيل سلك سواء السبيل[١].

٢ـ قرَّر الإمام الدارمي هذه العقيدة في إثبات صفة الاستواء فقال: «فالله تبارك وتعالى فوق عرشه فوق سمواته بائن من خلقه فمن لم يعرفه بذلك لم يعرف إلهه الذي يعبد وعلمه من فوق العرش بأقصى خلقه وأدناهم واحد لا يبعد عنه شيء ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[٢] سبحانه وتعالى عما يصفه المعطلون علوًّا كبيراً»[٣].

٣ـ فنَّد ابن القيم ـ رحمه الله ـ ادعاءات المبطلين من المعطلة الذين يعطلون صفة الاستواء ويزعمون أن الاستواء في الآيات الكريمة بمعنى الاستيلاء فقال:

«في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾[٤] في سبع آيات من القرآن حقيقة عند جميع الأمة إلاَّ الجهمية ومن وافقهم فإنهم قالوا هو مجاز ثم اختلفوا في مجازه والمشهور عنهم ما حكاه الأشعري عنهم[٥] وبدَّعهم وضللهم فيه بمعنى استولى أي ملك وقهر.

وقالت فرقة منهم: بل معنى قصد وأقبل على خلق العرش.

وقالت فرقة أخرى: بل هو مجمل في مجازاته يحتمل خمسة عشر

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٦/ ٣٩٨).
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣.
(٣) الرد على الجهمية للدارمي ص(٢٧١).
(٤) سورة طه، الآية: ٥.
(٥) انظر: الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري، ص(٤٨).

وجهاً كلها لا يعلم أيها المراد إلاَّ أنا نعلم انتفاء الحقيقة عنه بالعقل.»

ثم قال ـ رحمه الله ـ: «وهذا الذي قالوه باطل من اثنين وأربعين وجهاً، وأكتفي بذكر الوجه الأول والذي يبطل دعواهم على اللغة بغير ما وردت».

قال رحمه الله:

الوجه الأول: أن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله تعالى بلغتهم وأنزل بها كلامه نوعان: مطلق ومقيد:

فالمطلق: ما لم يوصل معناه بحرف مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾[1] وهذا معناه كمل، وتم يقال: استوى النبات واستوى الطعام.

والمقيد ثلاثة أضرب:

أحدها: مقيد بإلى كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[2] واستوى فلان إلى السطح وإلى الغرفة. وقد ذكر سبحانه هذا المعدَّى بإلى في موضعين من كتابه: في البقرة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[3] وفي سورة فصلت: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[4]. وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف.

الثاني: مقيد بعلى كقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾[5] وقوله

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٤.
(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٤) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٥) سورة الزخرف، الآية: ١٣.

تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[(٢)] وهذا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون ـ بواو ـ مع التي تعدي الفعل إلى المفعول معه نحو: استوى الماء والخشبة بمعنى ساواها وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ليس فيها معنى استولى البتة ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم، وإنما قاله متأخروا النحاة ومن سلك طريق المعتزلة والجهمية»[(٣)].

وقد استدل علماء أهل السنة والجماعة على إثبات صفة الاستواء لله عز وجل بما يلي:

أولاً: من الكتاب الكريم:

١ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾[(٤)].

٢ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾[(٥)].

٣ـ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٣) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/ ٣١٩).
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٥) سورة يونس، الآية: ٣.

بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾[(١)].

٤ـ قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾[(٢)].

٥ـ قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾[(٣)].

٦ـ قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾[(٤)].

٧ـ قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾[(٥)].

فهذه الآيات تدل دلالة صريحة واضحة لا تحتمل أي تأويل على أن الله تعالى مستوٍ على عرشه استواءاً يليق بجلاله وكمال عظمته لا يماثله ولا يشابهه شيء من خلقه.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.

(٢) سورة طه، الآية: ٥.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٩.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٤.

(٥) سورة الحديد، الآية: ٤.

ثانياً: من السنة المطهرة :

روى أبوبكر الخلال[١] في السنة عن قتادة بن النعمان[٢] أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لما فرغ الله من خلقه استوى على عرشه**» قال الذهبي رواته ثقات[٣].

(١) الإمام العلامة الفقيه شيخ الحنابلة أبوبكر محمد بن محمد الخلال ولد سنة ٢٣٤هـ، وأخذ الفقه عن خلق كثير من أصحاب الإمام أحمد، وتتبع نصوص الإمام أحمد ثم دونها، توفي سنة ٣١١هـ.
سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٩٧).

(٢) قتادة بن النعمان البدري: الأمير المجاهد من نجباء الصحابة وهو الذي وقعت عينه على خده يوم أحد فردها رسول الله ﷺ فكانت أصح عينيه وكان من الرماة المعدودين، مات رضي الله عنه سنة ٢٣هـ، بالمدينة.
سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٣١).

(٣) العلو للذهبي ص(٥٢).

٢ـ صفة النزول :

من الصفات الثابتة لله ـ عز وجل ـ صفة النزول من غير تكييف ولا تمثيل بل على وجه يليق بجلال الله لا يعلمه إلاَّ هو إذ هو القائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[١].

والشيخ عبدالقادر الجيلاني كعادته في إثبات الصفات يثبت هذه الصفة وينفي أن تكون بمعنى نزول رحمته وثوابه على ما ذهبت إليه الفرق المبتدعة الزائغة عن طريق الحق. فيقول:

«وأنه تعالى ينزل في كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء، وكما شاء فيغفر لمن أذنب وأخطأ وأجرم وعصى لمن يختار من عباده ويشاء، تبارك وتعالى العلي الأعلى لا إله إلاَّ هو له الأسماء الحسنى لا بمعنى نزول رحمته وثوابه على ما ادعته المعتزلة[٢] والأشعرية[٣]»[٤].

وهذا الإثبات هو معتقد أهل السنة والجماعة الذين يثبتون لله هذه الصفة كما يليق بجلاله سبحانه. وإليك بعض أقوالهم رحمهم الله:

١ـ قال الإمام أحمد: «وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف يشاء ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»[٥].

٢ـ يقرر الإمام الترمذي ـ رحمه الله ـ هذا المعتقد فيقول: «وما يشبه هذا من الروايات من الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٢) انظر: مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري (١/ ١٥٥).
(٣) انظر: شرح حديث النزول لابن تيمية (٥/ ٤١٠). وفتاوى ابن تيمية (٥/ ٣٨٦).
(٤) الغنية للجيلاني (١/ ٥٧).
(٥) طبقات الحنابلة (١/ ٢٩).

إلى السماء الدنيا قالوا: قد ثبتت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يتوهم ولا يقال كيف هكذا روي عن مالك وسفيان بن عيينة وعبدالله بن المبارك إنهم قالوا في هذه الأحاديث: أمروها بلا كيف. وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة، وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات وقالوا هذا تشبيه»[(١)].

٣ـ يؤكد الإمام ابن خزيمة على ذلك فيقول: «نشهد شهادة مقر بلسانه مصدق بقلبه مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الرب من غير أن نصف الكيفية لأن نبينا المصطفى ﷺ لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا وأعلمنا أنه ينزل والله جل وعلا لم يترك ولا نبيه ﷺ بيان ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية إذ النبي ﷺ لم يصف لنا كيفية النزول»[(٢)].

٤ـ يذكر الإمام الصابوني ما أقر به أهل السنة فيقول: «قلت فلما صح خبر النزول عن الرسول ﷺ أقرَّ به أهل السنة وقبلوا الخبر وأثبتوا النزول على ما قاله رسول الله ﷺ ولم يعتقدوا تشبيهاً له بنزول خلقه ولم يبحثوا عن كيفيته إذ لا سبيل إليها بحال وعلموا وتحققوا واعتقدوا أن صفات الله سبحانه لا تشبه صفات الخلق كما أن ذاته لا تشبه ذوات الخلق تعالى الله عما يقول المشبهة والمعطلة علواً كبيراً ولعنهم لعناً كثيراً»[(٣)].

٥ـ كذا الإمام ابن عبدالبر يذكر أن جمهور أئمة أهل السنة يعتقدون

---

(١) سنن الترمذي (٣/ ٤١).

(٢) التوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة (١٢٥).

(٣) عقيدة السلف للصابوني، ص(٤٢).

نزول الرب ويصدقون بذلك دون تكييف فيقول: «والذي عليه جمهور أئمة أهل السنة أنهم يقولون ينزل كما قال رسول الله ﷺ ويصدقون بهذا الحديث ولا يكيفون. والقول في كيفية النزول كالقول في كيفية الاستواء والمجيء والحجة في ذلك واحدة»(١)

وقد استدل أهل السنة على ذلك بالأدلة الصريحة الصحيحة والتي منها:

حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له»**(٢).

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر (٧/١٤٣).

(٢) رواه البخاري رقم (١١٤٥)، ومسلم رقم (٧٥٨).

٣ـ صفة الكلام :

صفة الكلام صفة ذات. باعتبار نوع الكلام وصفة فعل باعتبار تعلقها بإرادة الله عز وجل ومشيئته فهو سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء يتكلم بصوت يُسمع. يسمعه من شاء من خلقه. سمعه موسى عليه السلام من غير واسطة. وسمعه من أذن له من ملائكته ورسله. وسيسمعه المؤمنون في الآخرة ممن سبقت لهم من الله الحسنى نرجو الله أن نكون منهم.

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يقرر ثبوت هذه الصفة لله سبحانه ويصف من ينكر ذلك بالابتداع فيقول وهو يخاطب المبتدعة:

«يامبتدع: ما يقدر أن يقول أنا الله إلاَّ الله. ربنا عز وجل متكلم ليس بأخرس ولهذا أكَّد الله عز وجل الأمر في كلامه لموسى فقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾[1]»[2].

وما قرره الشيخ عبدالقادر الجيلاني هو مذهب أهل الحق من سلف هذه الأمة وإليك بعض أقوالهم:

١ـ قال حنبل قلت لأبي عبدالله: الله يكلم عبده يوم القيامة؟ قال: نعم، فمن يقضي بين الخلائق إلاَّ الله عز وجل يكلم عبده ويسأله الله متكلم لم يزل الله متكلماً يأمر بما يشاء ويحكم بما يشاء وليس له عِدْلٌ ولا مثل كيف شاء وأين شاء»[3].

٢ـ يقول الإمام أحمد أيضاً: «وكلم الله موسى تكليماً، من الله سمع موسى يقيناً، ولم يزل متكلماً عالماً تبارك الله أحسن

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٤.

(٢) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الستون (٢٠٩).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص(٨٣).

الخالقين»[١].

٣ـ أما شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فعندما عرض أقوال الناس في كلام الله ذكر عقيدة أهل السنة والجماعة فقال: «وقول الجمهور وأهل الحديث وأئمتهم أن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء وأنه يتكلم بصوت كما جاءت به الآثار والقرآن وغيره من الكتب الإلهية كلام الله تعالى تكلم به بمشيئته وقدرته ليس ببائن عنه مخلوقاً ولا يقولون إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً ولا أن كلام الله تعالى حدث من حيث هو حادث بل مازال متكلماً إذا شاء وإن كان كلم موسى وناداه بمشيئته وقدرته فكلامه لا ينفد»[٢].

هذا هو معتقد الشيخ عبدالقادر الجيلاني في إثبات الأسماء والصفات لله عز وجل والذي يوافق معتقد أهل السنة والجماعة. والله أعلم.

---

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٢٩).

(٢) فتاوى ابن تيمية (١٢/ ١٧٣).

حديث: «إن الله خلق آدم على صورته»

في معرض الحديث عن الصانع - عز وجل - ذكر الشيخ عبدالقادر الجيلاني حديث الصورة فقال:

«إن الله خلق آدم على صورته»(١). ولم يفصل في عود الضمير في كلمة على صورته وهل هو عائد على الله عز وجل أم على آدم عليه السلام. وكلامه هذا جزء من حديث متفق على صحته عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً فلماخلقه قال: اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم. فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن»(٢).

وقد اختلفت أقوال العلماء في إرجاع الضمير في الحديث فذهب كثير من علماء أهل السنة والجماعة، منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن الهاء في قوله: على صورته عائدة على الله عز وجل وأنكروا على من قال: إنها عائدة على آدم إذ يقول الإمام أحمد: «من قال: إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي وأي صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه»(٣).

وقد انتقد الإمام ابن قتيبة رحمه الله من أرجع الضمير في

(١) الغنية للجيلاني (١/ ٥٥).
(٢) رواه البخاري ح (٦٢٢٧) ومسلم ح (٢٨٤١).
(٣) انظر الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٣١٦).

الحديث إلى غير الله عز وجل فقال: «وقال قوم من أصحاب الكلام أراد خلق آدم على صورة آدم لم يزد على ذلك ولو كان المراد هذا ما كان في الكلام فائدة ومن يشك في أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته والسباع على صورها والأنعام على صورها» ثم قال رحمه الله: «والذي عندي والله تعالى أعلم أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن ونحن نؤمن بالجميع ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد»[1].

وممن قال بذلك الإمام الآجري حيث عقد باباً في كتابه الشريعة بعنوان: الإيمان بأن الله خلق آدم على صورته بلاكيف. وأورد عدداً من الأحاديث المصرحةبذلك ثم قال: «هذه هي السنن التي يجب على المسلمين الإيمان بها ولا يقال فيها كيف ولِمَ، بل تستقبل بالتسليم والتصديق وترك النظر كماقال من تقدم من أئمة المسلمين» ثم قال في نهاية الباب: «سمعت أباعبدالله الزبيري رحمه الله[2] وقد سئل عن معنى هذا الحديث ـ أي حديث خلق الله آدم على صورته ـ فذكر مثل ما قيل فيه ثم قال أبوعبدالله: نؤمن بهذه الأخبار التي جاءت كما جاءت، ونؤمن بها إيماناً ولا نقول كيف ولكن ننتهي في ذلك إلى حيث انتهي بنا فنقول في ذلك ما جاءت به الأخبار كما جاءت»[3].

وكذلك الإمام ابن بطة عندما ذكر مسائل العقيدة التي يجب الإيمان بها قال: «ثم الإيمان والقبول والتصديق بكل ما روته العلماء ونقله الثقات أهل الآثار عن رسول الله ﷺ وتلقاها بالقبول ولا ترد

---

(١) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، ص(٢١٩).

(٢) أبوعبدالله الزبيري: لم أجد له ترجمة.

(٣) الشريعة للآجري ص(٣١٥).

بالمعاريض ولا يقال لم وكيف، ولا تحمل على المعقول ولا تضرب لها المقاييس مثل أحاديث الصفات والرؤية ولا يقبح الوجه فإن الله خلق آدم على صورته»[١].

وهناك طائفة من أهل العلم يرون أن الضمير في كلمة «على صورته» عائد على آدم عليه السلام وطائفة يرون أن الضمير عائد على المضروب وجهه ومنهم الإمام ابن خزيمة الذي حمل حملة عنيفة على من أعاد الضمير على الله عز وجل فقال: «توهَّم البعض ممن لم يتحر العلم أن قوله على صورته يريد صورة الرحمن عز ربنا وجلَّ عن أن يكون هذا معنى الخبر بل معنى قوله خلق آدم على صورته الهاء في هذا الموضع كناية عن اسم المضروب والمشتوم أراد ﷺ أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب والذي قبَّح وجهه فزجر النبي ﷺ أن يقول ووجه من أشبه وجهك لأن وجه آدم شبيه وجه بنيه، فإذا قال الشاتم لبعض بني آدم قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك كان مقبحاً وجه آدم صلوات الله وسلامه عليه الذي وجوه بنيه شبيهة بوجهه فتفهموا رحمكم الله لا تغلطوا ولا تغالطوا فتضلوا عن سواء السبيل وتحملوا على القول بالتشبيه الذي هو ضلال»[٢].

والذي يتمشى مع قواعد أهل السنة والجماعة في الاستدلال هو ما ذهب إليه الإمام أحمد وغيره من علماء السلف من أن الضمير عائد على الله عز وجل مع قطع النظر عن المماثلة والمشابهة بل نكل علم كيفية ذلك إلى الله عز وجل والله أعلم.

---

(١) الشرح والإبانة على أصول الديانة (٢٣٥).

(٢) التوحيد لابن خزيمة (٣٧-٣٨).

المبحث الرابع
القرآن كلام الله عز وجل المُنَزَّل

لعل من المناسب قبل البدء في بيان عقيدة الشيخ عبدالقادر الجيلاني حول القرآن الكريم أن أشير باختصار إلى فتنة القول بخلق القرآن والتي عانت منها أمة الإسلام وعلماء أهل السنة والجماعة الشيء الكثير في أواخر عصر التابعين. وكان أول من أظهر هذه الفتنة الجهم بن صفوان الذي قال بالعديد من الكفريات ومنها القول بخلق القرآن، وقد تلقى هذه المقالة الباطلة عن الجعد بن درهم[(١)] الذي طارده خلفاء بني أمية بعد إظهاره لهذه المقولة الخبيثة فهرب منهم وسكن في الكوفة وهناك التقى بالجهم بن صفوان، وألقى عليه هذه الفكرة ثم يسّر الله هلاك الجعد بن درهم على يد خالد بن عبدالله القسري[(٢)] الذي قتله يوم عيدالأضحى بعد أن خطب الناس خطبة العيد ثم قال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضحٍ بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم

(١) الجعد بن درهم: من موالي بني مروان سكن دمشق، وكان يتردد على وهب بن منبه يسأله عن الصفات مشككاً ثم خرج على الناس ببدعة خلق القرآن، ونفي صفات الرحمن وأنكر أن يكون الله قد كلم موسى تكليماً، أو اتخذ إبراهيم خليلاً، وقد قبض عليه خالد القسري وقتله يوم العيد عام ١١٤هـ.
الكامل لابن الأثير (٤/ ٢٥٥).

(٢) خالد بن عبدالله القسري: أحد خطباء العرب وكرمائهم كان والياً لبني أمية في عدة بلدان، ضحى بالجعد بن درهم يوم الأضحى وكان يرمى بالزندقة والميل إلى دين النصارى لأن أمه نصرانية، سجنه يوسف بن عمر الثقفي ثم قتله في أيام الوليد بن يزيد. شذرات الذهب (١/ ١٧٠).

موسى تكليماً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ثم نزل فذبحه في أصل المنبر وذلك سنة ١١٤هـ»[١].

وقد أخذ الجعد بن درهم هذه البدعة عن رجل يقال له بيان بن سمعان[٢] الذي تلقاها عن طالوت[٣] ابن أخت لبيد بن الأعصم[٤] اليهودي الذي سحر النبي ﷺ ثم تقلّد هذا المذهب بشر بن غياث المريسي المتكلم شيخ المعتزلة وأحمد بن أبي دؤاد[٥] وعندها أخذت هذه البدعة على أيديهما بعداً سياسياً حيث استطاعا إقناع الخليفة العباسي المأمون[٦] الذي كان قد تشبع بأفكار المعتزلة فتبنى

(١) انظر: الشريعة للآجري (٣٢٨).

(٢) بيان بن سمعان النهدي: من بني تميم ظهر بالعراق وقال بإلهية علي ثم من بعده ابنه محمد بن الحنفية ثم في أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ثم من بعده في بيان هذا وكتب بهذا كتاباً إلى أبي جعفر الباقر ويخبره بأنه نبي وقد قتله خالد القسري.
انظر: الملل والنحل (١/ ٢٠٣).

(٣) طالوت: زنديق ينادي بزندقته، أخذ عن خاله لبيد بن الأعصم القول بخلق التوراة ثم زعم أن القرآن مخلوق، وتلقى بيان بن سمعان عنه ذلك وعلمه الجعد بن درهم الذي نقله إلى الجهم بن صفوان ثم إلى بشر المريسي.
الكامل لابن الأثير (٥/ ٣٩٤).

(٤) لبيد بن الأعصم: اليهودي اللعين الذي سحر النبي ﷺ كان يقول بخلق التوارة وقد ألقى هذا إلى ابن أخيه طالوت.
الكامل (٥/ ٢٩٤).

(٥) أحمد بن أبي دؤاد: رأس المعتزلة وعدو إمام السنة أحمد بن حنبل وداعية القول بخلق القرآن له كرم وسخاء وأدب ومكارم لكنه أطفأ ذلك ببدعته وتأليبه على قتل الإمام أحمد، مات منكوباً في عهد المتوكل.
سير أعلام النبلاء (١١/ ١٦٩).

(٦) الخليفة العباسي عبدالله بن هارون الرشيد، ولد سنة ١٧٠هـ، وقرأ العلم والأدب والفلسفة وفتن الناس ببدعة خلق القرآن وكانت له محاسن في حكمه وسياسته.
سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٨٢).

هذا القول أعني القول بخلق القرآن وحمل الناس على القول به وخاض معركة شرسة ضد أئمة السنة لإجبارهم على القول بخلق القرآن وتعرضوا للأذى الشديد والمحن القاسية من الحبس والضرب والقتل بما لم يحدث له مثيل في تاريخ الأمة الإسلامية وماكان هذا ليحدث لو أن علماء أهل السنة والجماعة كانوا هم السابقين إلى قلب الخليفة بإقناعه بالحق وحمله على الوقوف في وجه هذه البدعة المنكرة ومحاربتها والقضاء على القائلين بها كما حصل للجعد بن درهم والجهم بن صفوان ولكن ذكاء بشر المريسي وابن أبي دؤاد وقيامهما باستمالة قلب الخليفة المأمون واستغلال سلطته في نشر هذا المذهب الباطل وحمل الناس عليه بالقوة أدّى إلى ما حدث من بلاء على الأمة وعلمائها ولعل في هذه الحادثة ما يدعو إلى العظة والاعتبار من قبل العاملين للدعوة في هذا العصر وفي كل زمان فيعملوا على مد جسور التواصل والتواصي مع ولاة الأمر والحكام وإزالة الجفوة المفتعلة التي يفتعلها أعداء هذا الدين؛ لأن الداعية الإيجابي من يَقْدِر على جعل السلطان نصيراً له لا ظهيراً عليه، واستثارة الحكام واكتساب عداوتهم أمر سلبي جرَّ على الدعوات كثيراً من الويلات والمصائب كان بالإمكان تلافيها لو أن الدعاة أحسنوا التعامل مع الحكام بعدم إثارتهم واستقطاب عداوتهم وعملوا على التلطف معهم والدعاء والنصح والتوجيه لهم لأن في معاونة الحاكم للدعاة حماية للدعوة وتحقيق لكثير من المصالح، ولعل أقرب مثال على صحة ذلك ما وفق إليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب[1] رحمه الله من التعامل السديد مع الحاكم في زمنه وهو

(١) محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي النجدي: زعيم النهضة الإصلاحية في جزيرة العرب، ولد في العيينة سنة ١١١٥هـ، ورحل إلى الحجاز والعراق والشام =

الإمام محمد بن سعود[1] الذي تدرج في هدايته وتلطف في دعوته حتى كان في استجابته للدعوة من العون والتأييد والنصر والتمكين لهذا الدين ما سعدت به قلوب المؤمنين وقرّت به أعين الموحدين منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا فقد أثمرت دعوته ثمارها وأعادت للملة والعقيدة صفاءها وخلوصها وأزالت عنها أوضار الشرك وضلالات البدعة والخرافة وانتشرت هذه الدعوة الإصلاحية حتى عمّت جميع أرجاء الأرض خصوصاً بعد تأسيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وقيامها باستقبال الآلاف من طلبة العلم من جميع الديار ثم تعلمهم للعقيدة الصحيحة وعودتهم إلى بلادهم وأوطانهم دعاة للحق وهداة إلى السنة. أما الابتعاد عن الحاكم وترك المجال خالياً لأهل السوء للوصول إليه وكسب محبته فإن ذلك يولِّد الضغائن ويؤدي إلى سوء الظنون ويجر إلى المحن والمصائب مثل ما وقع من الخليفة المأمون»[2].

= في طلب العلم، وقد دعا إلى العودة إلى منهج السلف الصالح وتجريد التوحيد الخالص وترك البدع والخرافات. عرض دعوته على الأمير محمد بن سعود فقبلها، ونصره وآزره حتى مكّن الله له في الأرض وارتفعت راية التوحيد، مات رحمه الله سنة ١٢٠٦هـ، وله مؤلفات عديدة منها كتاب التوحيد، وكشف الشبهات، وغيرها. الأعلام للزركلي (٦/٢٥٧).

(١) محمد بن سعود بن محمد بن مرخان: أول من لقب بالإمامة من آل سعود في نجد، كان مقامه في الدرعية، وقد ولي الإمارة بعد أبيه وحسنت سيرته وقويت شوكته، وقد وفد عليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب عارضاً عليه مناصرته فتعاهدا على أن يكون حارساً للدين وناصراً للسنة، وأن يستمر ابن عبدالوهاب على الجهر بالدعوة. توفي بالدرعية عام١١٧٩هـ.
الأعلام للزركلي (٦/١٣٨).

(٢) انظر المزيد من أخبار محنة القول بخلق القرآن في البداية والنهاية (١٠/٢٩، ٢٨٤) لابن كثير.

عقيدة الشيخ عبدالقادر الجيلاني حول القرآن الكريم

لقد قرّر الشيخ عبدالقادر الجيلاني عقيدته في هذه المسألة الهامة من مسائل العقيدة ببيان أن القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسوله ﷺ حيث يقول:

«ونعتقد أن القرآن كلام الله وكتابه وخطابه ووحيه الذي نزل به جبريل على رسول الله ﷺ كما قال عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[1]. هو الذي بلغه رسول الله ﷺ أمته امتثالاً لأمر رب العالمين يقول تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾[2]»[3].

وفي وصاياه التي كان يوجهها لطلابه كان يؤكد على وجوب التأدب مع كتاب الله بعدم القول بخلقه فيقول:

«احترموا كتاب الله وتأدبوا معه هو الوصلة بينكم وبين الله لا تجعلوه مخلوقاً يقول الله عز وجل هذا كلامي، وتقولون أنتم لا؛ من رد على الله وجعل القرآن مخلوقاً فقد كفر بالله وبريء منه. هذا القرآن المتلو هذا المقروء هذا المسموع هذا المنظور هذا المكتوب في المصاحف كلامه عز وجل»[4].

وهو بهذا يتفق مع علماء أهل السنة والجماعة في القول بأن القرآن كلام الله المنزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود وهذه بعض

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣-١٩٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٣) الغنية للجيلاني (١/٥٨).
(٤) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الحادي عشر ص(٤١).

أقوالهم:

أولاً: ذكر من قال ذلك من الصحابة:

لما كانت مسألة القول بخلق القرآن من المسائل التي وقعت بعد انقراض الصحابة رضوان الله عليهم، فإن الآثار التي رويت عنهم قليلة جدًّا وهذا القليل مشكوك في صحته من ذلك ما روى عن عمرو بن دينار[١] أنه قال: «أدركت تسعة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون من قال القرآن مخلوق فهو كافر»[٢].

ثانياً ذكر إجماع التابعين:

١ـ عن سفيان بن عيينة قال: سمعت عمرو بن دينار يقول: «أدركت مشائخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود»[٣].

٢ـ وعن عبدالله بن المبارك قال: سمعت الناس منذ تسعة وأربعين عاماً يقولون: من قال القرآن مخلوق فامرأته طالق ثلاثاً بتة قلت ولم ذلك؟ قال: لأن امرأته مسلمة ومسلمة لا تكون تحت كافر قلت أنا ـ أي اللالكائي ـ فقد لقي عبدالله بن المبارك جماعة من

(١) عمرو بن دينار: الإمام الكبير الحافظ أبومحمد الجمحي أحد الأعلام وشيخ الحرم في زمانه ولد سنة ٤٦هـ، وسمع من بعض الصحابة. قال عنه ابن عيينة: عمرو ثقة ثقة ثقة. وقال شعبة: ما رأيت في الحديث أثبت من عمرو بن دينار. وقال عنه النسائي: عمرو ثقة ثبت.
سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٠٠).

(٢) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢/ ٢٥٣ـ٢٥٩)، وتعليق المحقق.

(٣) رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص(١١٧).

التابعين مثل سليمان التيمي[١] وحميد الطويل[٢] وغيرهما وليس في الإسلام في وقته أكثر رحلة منه وأكثر طلباً للعلم وأجمعهم له وأجودهم معرفة به وأحسنهم سيرة وأرضاهم طريقه مثله ولعله يروي عن ألف شيخ من التابعين فأي إجماع أقوى من هذا»[٣].

ثالثاً ذكر كلام بعض أئمة الفقهاء المشهورين :

١ـ الإمام أبوحنيفة، كان موقفه من هذه الفتنة هو موقف السلف من علماء أهل السنة والجماعة ولم يثبت بطريق صحيح أنه قال بغير ما قاله علماء أهل السنة وماذكره الإمام عبدالله بن أحمد بن حنبل في كتاب السنة من نقولات لم تثبت. بل الثابت خلاف ذلك فقد ذكر البيهقي عن محمد بن أبي أيوب[٤] قال: سألت أبايوسف فقلت أكان أبوحنيفة يقول: القرآن مخلوق قال: معاذ الله ولا أنا أقوله فقلت: أكان يرى رأي جهم فقال: معاذ الله ولا أنا أقوله ثم قال رواته ثقات»[٥]. أما هذا الاتهام الباطل فينفيه الإمام أحمد بن حنبل فيما يرويه أبوبكر المروزي قال: سمعت أباعبدالله أحمد بن حنبل يقول: لم يصح عندنا أن أباحنيفة كان يقول القرآن

(١) سليمان بن قته التيمي المقرىء: من فحول الشعراء عرض ختمة على ابن عباس وسمع من بعض الصحابة، وقد وثقه ابن معين، وقته هي أمه.
سير أعلام النبلاء (٤/٥٩٦).

(٢) حميد بن أبي حميد الطويل الإمام الحافظ أبوعبيدة البصري، ولد سنة ٦٨هـ، كان قصير القامة طويل اليدين مات رحمه الله وهو يصلي سنة ١٤٣هـ.
سير أعلام النبلاء (٦/١٦٣).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي برقم (٤٠٥).

(٤) لم أجده في مشايخ البيهقي، وإنما وجدت محمد بن أيوب بن ضُريس المحدث الثقة. ولد عام ٢٠٠هـ ومات سنة ٢٩٤هـ. سير أعلام النبلاء ١٣/٤٤٩.

(٥) الأسماء والصفات للبيهقي (٢٥١).

مخلوق»[١].

٢ـ قول الإمام مالك بن أنس عن إسماعيل بن أبي أويس[٢]، قال: «سمعت خالي مالك بن أنس وجماعة العلماء بالمدينة فذكروا القرآن فقالوا كلام الله وهو منه وليس من الله شيء مخلوق»[٣].

٣ـ قول الإمام الشافعي وعن الربيع بن سليمان[٤] قال: سمعت الشافعي يقول: «من قال القرآن مخلوق فهو كافر»[٥].

٤ـ قول الإمام أحمد بن حنبل روى عنه ابنه عبدالله قوله: «من قال القرآن مخلوق فهو عندنا كافر؛ لأن القرآن من علم الله وفيه أسماء الله»[٦].

ويروى عنه قوله وقد سئل عن القرآن فقال: «كلام الله عز وجل وليس بمخلوق»[٧].

وموقف الإمام أحمد بن حنبل من فتنة خلق القرآن موقف عظيم لا أجد كلاماً أفضل مما سطَّره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حيث يقول: «إن الإمام أحمد صار مثلاً سائراً يضرب به المثل

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٣/ ٣٨٤).

(٢) إسماعيل بن أبي أويس الإمام الحافظ الصدوق، قرأ القرآن على نافع وكان عالم أهل المدينة ومحدثهم، وثَّقه أحمد وضعفه غيره مات سنة ٢٢٦هـ.
سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٩١).

(٣) الشريعة للآجري ص(٧٩).

(٤) الربيع بن سليمان الأزدي سمع من ابن وهب ومن الشافعي، وروى عنه أبوداود والنسائي والطحاوي وآخرون، مات سنة ٢٥٦هـ.
سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٩١).

(٥) الشريعة للآجري (٨٢).

(٦) كتاب السنة للإمام عبدالله بن أحمد (١/ ١٠٢). تحقيق محمد سعيد القحطاني، برقم ١.

(٧) طبقات الحنابلة (١/ ١٨٩).

في المحنة والصبر على الحق وأنه لم تكن تأخذه في الله لومة لائم حتى صار اسم الإمام مقروناً باسمه في لسان كل أحد فيقال: الإمام أحمد وهذا مذهب الإمام أحمد لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[١] فإنه أعطى من الصبر واليقين ما يستحق به الإمامة في الدين وقد تداوله ثلاثة خلفاء مسلطون من شرق الأرض إلى غربها ومعهم من العلماء المتكلمين والقضاة والوزراء والسعاة والأمراء والولاة من لا يحصيهم إلاَّ الله فبعضهم بالحبس وبعضهم بالتهديد الشديد بالقتل وغيره، وبالترغيب في الرياسة والمال ما شاء الله، وبالضرب، وبعضهم بالتشريد والنفي، وقد خذله في ذلك عامة أهل الأرض حتى أصحابه العلماء والصالحون والأبرار وهو مع ذلك لم يعطهم كلمة واحدة مما طلبوه منه وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة ولا كتم العلم ولا استعمل التقية بل قد أظهر من سنة رسول الله ﷺ وآثاره ودفع من البدع المخالفة لذلك ما لم يتأت مثله لعالم من نظرائه وإخوانه المتقدمين والمتأخرين»[٢].

٥ـ أوضح الإمام الآجري أن القول بأن القرآن هو كلام الله المنزل غير مخلوق هو قول المسلمين الذين وفقوا للرشاد، فيقول: «اعلموا رحمنا الله وإياكم أن قول المسلمين الذين لم تزغ قلوبهم عن الحق ووفقوا للرشاد قديماً وحديثاً أن القرآن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق لأن القرآن من علم الله تعالى وعلم الله عز وجل لا يكون مخلوقاً تعالى الله عز وجل عن ذلك. دل على ذلك القرآن والسنة وقول الصحابة رضى الله تعالى عنهم وقول أئمة المسلمين

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

(٢) فتاوى ابن تيمية (١٢/٤٣٩).

رحمة الله تعالى عليهم لا ينكر هذا إلاّ جهمي خبيث»[١].

وقد استدل علماء أهل السنة والجماعة على عقيدتهم بأن القرآن الكريم كلام الله المنزل غير مخلوق بأدلة كثيرة اكتفى بإيراد بعضها مما ذكره الإمام أبوالحسن علي بن إسماعيل الأشعري[٢]. في كتابه الإبانة حيث يقول:

«إن سأل سائل عن الدليل على أن القرآن كلام الله غير مخلوق قيل له. الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾[٣] وأمر الله هو كلامه وقوله فلما أمرهما بالقيام فقامتا لا تهويان كان قيامهما بأمره وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٤] فالخلق جميع ما خلق داخل فيه؛ لأن الكلام إذا كان لفظه عاماً فحقيقته أنه عامٌ ولا يجوز لنا أن نزيل الكلام عن حقيقته بغير حجة ولا برهان فلما قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ كان هذا في جميع الخلق ولما

---

(١) الشريعة للآجري (٧٥).

(٢) علي بن إسماعيل الأشعري: العلامة أبوالحسن علي بن إسماعيل من نسل الصحابي الجليل أبوموسى الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين وكان عجباً في الذكاء وقوة الفهم، نشأ في أكناف المعتزلة فقد تربى في حجر زوج أمه أبوعلي الجبائي شيخ المعتزلة في عصره، وتعلم عليه ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه وتبرأ منه وصعد للناس وتاب إلى الله تعالى منه ثم أخذ يرد على المعتزلة ويهتك عوارهم وقد أعلن توبته من مذهب المعتزلة على منبر البصرة، فقد صعد المنبر وقال: إني كنت أقول بخلق القرآن، وإن الله لا يرى بالأبصار وأن الشر فعلي ليس بقدر وإني تائب. وقد أبان رحمه الله عقيدته التي يدين الله بها في كتاب سماه الإبانة عن أصول الديانة قرر فيه أن مذهبه ومعتقده هو مذهب أهل السنة والجماعة يقول قولنا الذي نقول به ديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون.

انظر سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/ ٨٥ـ٨٩). والإبانة للأشعري ص(٨).

(٣) سورة الروم، الآية: ٢٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

قال والأمر ذكر أمراً غير جميع الخلق فدل ما وصفنا على أن أمر الله غير مخلوق».

ثم قال ـ رحمه الله ـ: «ومما يدل من كتاب الله على أن كلامه غير مخلوق قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1] فلو كان القرآن مخلوقاً لوجب مقولاً له كن فيكون، ولو كان الله عز وجل قائلاً للقول كن لكان للقول قولاً وهذا يوجب أحد أمرين:

١ـ إما أن يؤول الأمر إلى أن قول الله غير مخلوق.

٢ـ أو يكون كل قول واقع بقول لا إلى غاية وهو ما يسمى بالدور والتسلسل وذلك محال وإذا استحال ذلك صح وثبت أن لله عز وجل قولاً غير مخلوق».

كما استدل ـ رحمه الله ـ بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[2]. «فلو كانت البحار مداداً كتبت لنفدت البحار وتكسرت الأقلام ولم يلحق الفناء كلمات ربي كما لا يلحق الفناء علم الله عز وجل، ومن فني كلامه لحقته الآفات وجرى عليه السكوت فلما لم يجز ذلك على ربنا عز وجل صح أنه لم يزل متكلماً لأنه لو لم يكن متكلماً لوجب عليه السكوت والآفات تعالى ربنا عن قول الجهمية علواً كبيراً»[3].

وليس المراد هنا هو الاستقصاء والتوسع في إيراد الحجج الدامغة والبراهين الساطعة التي أطلقها علماء أهل السنة والجماعة

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

(٣) الإبانة لأبي الحسن الأشعري (٧٢) وما بعدها.

لإبطال ضلالات ومقولات المبتدعة في هذه المسألة؛ لأن ذلك يؤدي إلى الخروج عن موضوع الرسالة والبحث وإنما الهدف هو إثبات موافقة اعتقاد الشيخ عبدالقادر الجيلاني لما عليه سلف هذه الأمة.

حكم من قال بخلق القرآن

لم يتردد الشيخ عبدالقادر الجيلاني في إطلاق الكفر على من زعم أن القرآن مخلوق وأن جميع الأحكام المتعلقة بالكافر تنطبق عليه حيث يقول:

«فمن زعم أنه مخلوق أو عبارته أو التلاوة غير المتلو أو قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم لا يخالط ولا يؤاكل ولا يناكح ولا يجاور بل يهجر ويهان ولا يصلى خلفه ولا تقبل شهادته ولا تصح ولايته في نكاح وليه، ولا يصلى عليه إذا مات، فإن ظفر به استتيب ثلاثاً كالمرتد فإن تاب وإلاَّ قُتل»[١]

وقد اشتمل كلامه ـ رحمه الله ـ على ثلاث قضايا:

الأولى: الحكم على القائل بخلق القرآن بأنه كافر بالله العظيم.

الثانية: الاستتابة فإن تاب وإلاَّ قُتل.

الثالثة: معاملته معاملة المرتد بهجره وعدم الصلاة خلفه وعدم قبول شهادته أو صحة ولايته.

وهذا يعني أن القائل بخلق القرآن كافر كفراً مخرجاً من الملة.

وهذا الموقف من الشيخ عبدالقادر الجيلاني قد ورد عن جماعة من علماء أهل السنة والجماعة منهم:

١ـ الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ فعن يحيى بن خلف المقري[٢] قال: «كنت عند مالك بن أنس سنة ثمان وستين ومائة، فأتاه

---

(١) الغنية للجيلاني (١/٥٨).

(٢) لم أجد له ترجمة.

رجلٌ فقال: ياأبا عبدالله ما تقول فيمن يقول: القرآن مخلوق؟ قال مالك بن أنس: أقتلوه كافر. فقال: ياأبا عبدالله إني لم أقله إنما قلت لك قال إنسان! قال مالك: إنما سمعته منك»[1].

٢ـ قال سفيان بن عيينة ـ وكان عنده مجموعة من العلماء ـ فتشوّش الناس فقال ابن عيينة: ما هذا؟ قالوا: قدم بشر المريسي. قال: ما يقول؟ قالوا: يقول القرآن مخلوق. قال: جيئوني بشاهدين حتى آمر الوالي بضرب عنقه[2].

٣ـ قال عبدالرحمن بن مهدي[3]: «لوددت أن أقوم على رأس الجسر فلا يمر أحد إلاَّ سألته فإن قال القرآن مخلوق ضربت عنقه وألقيته في الماء»[4].

ولكن جمهور العلماء على القول بتكفيرهم تكفيراً مطلقاً حيث أورد اللالكائي في شرح أصول أهل السنة والجماعة أسماء أكثر من خمسمائة وخمسين شخصاً من علماء السلف كلهم قالوا بكفر من قال بخلق القرآن وقد اتفقوا على عبارة واحدة تقريباً وهي: من قال بخلق القرآن فهو كافر[5].

ونظراً لخطورة إطلاق الكفر دون مراعاة للضوابط والقواعد الشرعية التي توضح نوعية الكفر وهل هو مخرج من الملة أم لا،

---

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٢٤٧).

(٢) ذكره اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة رقم (٥٠١).

(٣) عبدالرحمن بن مهدي بن حسان العبيري أبوسعيد البصري، ثقة ثبت حافظ عارف بالرجال وبالحديث قال عنه ابن المديني: ما رأيت أعلم منه. مات سنة ٩٨هـ، وعمره ٧٣ سنة. تقريب التهذيب ٣٥١.

(٤) انظر الشريعة للآجري (٧٩).

(٥) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢/ ٣٠٠ـ٣٤٤).

ولأن الجزم بتكفير المعين وإخراجه من دائرة الإسلام فيه خطورة عظيمة، لما يترتب عليه من الآثار والأحكام الشرعية كتحريم زوجته عليه، وعدم حل ذبيحته، وعدم جواز تغسيله والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين، وعدم جواز الاستغفار له بعد موته، ولأنه قد ورد الوعيد الشديد لمن أطلق كلمة الكفر على مسلم، ففي الحديث المتفق عليه: **«من قال لأخيه ياكافر فقد باء بها أحدهما»**[1].

وبما أن مسألة التكفير من المسائل الخطيرة التي ينبغي التحرز فيها إذ ليس كل من قال العلماء بتكفيره يكون كافراً إلاَّ إذا وجدت الشروط في حق ذلك المعين وانتفت الموانع التي تمنع من استحقاقه لذلك الحكم.

والإنسان قد يقول الكفر أو يعمله باجتهادٍ منه يظنه حقًّا ويكون بذلك مخطئاً ولا يكفر لأن الحقيقة لم تتضح له.

وقد حرر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هذه المسألة تحريراً دقيقاً يقتضي المقام إيراده بكامله لبيان موقف الشيخ عبدالقادر ومن وافقه من السلف الذي يفهم منه الحكم بالردة على من قال بخلق القرآن ليعرف مراد السلف بذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«المشهور من مذهب الإمام أحمد وعامة أئمة السنة تكفير الجهمية وهم المعطلة لصفات الرحمن فإن قولهم صريح في مناقضة ما جاءت به الرسل من الكتاب وحقيقة قولهم جحود الصانع ففيه جحود الرب وجحود ما أخبر به عن نفسه على لسان رسله، ولهذا قال عبدالله بن المبارك: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا

(١) رواه البخاري ح (٦١٠٣)، ومسلم ح (٦٠).

نستطيع أن نحكي كلام الجهمية. وقال غير واحد من الأئمة: أنهم أكفر من اليهود والنصارى. يعنون من هذه الجهة، ولهذا كفروا من يقول إن القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخرة وأن الله ليس على العرش ولا قدرة ولا رحمة ولا غضب ونحو ذلك من صفاته.

وأما المرجئة فلا تختلف نصوصه أنه لا يكفرهم فإن بدعتهم من جنس اختلاف الفقهاء في الفروع وكثير من كلامهم يعود النزاع فيه إلى نزاع في الألفاظ والأسماء، ولهذا يسمى الكلام في مسائلهم «باب الأسماء» وهذا من نزاع الفقهاء، ولكن يتعلق بأصل الدين فكان المنازع فيه مبتدعاً.

وكذلك الشيعة المفضِّلون لعلي على أبي بكر لا يختلف قوله أنهم لا يكفرون فإن قال ذلك قول طائفة من الفقهاء أيضاً وإن كانوا يبدعون.

وأما القدرية المقرُّون بالعلم والروافض الذي ليسوا من الغالية والجهمية والخوارج فيذكر عنه في تكفيرهم روايتان هذا حقيقة قوله المطلق مع أن الغالب عليه التوقف عن تكفير القدرية المقرين بالعلم والخوارج مع قوله: ما أعلم قوماً شراً من الخوارج.

ثم طائفة من أصحابه يحكون عنه في تكفير أهل البدع مطلقاً روايتين حتى يجعلوا المرجئة داخلين في ذلك وليس الأمر كذلك وعنه في تكفير من لا يكفِّر روايتان أصحهما أنه لا يكفر وربما جعل بعضهم الخلاف في تكفير من لا يكفِّر مطلقاً وهو خطأ محض.

والجهمية عند كثير من السلف مثل عبدالله بن المبارك ويوسف ابن أسباط[1]، وطائفة من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم ليسوا من

(١) يوسف بن أسباط: الإمام العابد الزاهد كان أبوه قدرياً وأخواله من الروافض، فأنقذه الله منهم بسفيان الثوري، ووثَّقه ابن معين، وضعفه أبوحاتم والبخاري، مات =

الثنتين والسبعين فرقة التي افترقت عليها هذه الأمة. بل أصول هذه عند هؤلاء هم الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية»[1] وهذا هو المأثور عن أحمد وهو المأثور عن عامة أئمة السنة والحديث أنهم كانوا يقولون من قال القرآن مخلوق فهو كافر، ومن قال إن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر ونحو ذلك.

ثم حكى أبونصر السجزي[2] عنهم في هذا قولين:

أحدهما: أنه كفر ينقل من الملة. قال: وهو قول الأكثرين.

والثاني: أنه كفر لا ينقل ولذلك قال الخطابي: إن هذا قالوه على سبيل التغليظ. وكذلك تنازع المتأخرون من أصحابنا في تخليد المكفر من هؤلاء فأطلق أكثرهم عليه التخليد كما نقل ذلك عن

= سنة ١٩٥هـ. له حكم ومواعظ منها قوله وقد سئل عن التواضع؟ قال: ألاّ تلقى أحداً إلاّ رأيت له الفضل عليك.
سير أعلام النبلاء ٩/ ١٦٩.

(١) قال عبدالله بن المبارك: أصل اثنين وسبعين هوى أربعة أهواء فمن هذه الأربعة الأهواء تشعبت الاثنتان وسبعون هوى: القدرية والمرجئة والشيعة والخوارج، فمن قدم أبابكر وعمر وعثمان وعلياً على أصحاب رسول الله ﷺ ولم يتكلم في الباقين إلاّ بخير ودعا لهم فقد خرج من التشيع أوله وآخره. ومن قال الإيمان قول وعمل يزيد وينقص فقد خرج من الإرجاء أوله وآخره. ومن قال الصلاة خلف كل بر وفاجر والجهاد مع كل خليفة ولم ير الخروج على السلطان بالسيف ودعا لهم بالصلاح فقد خرج من قول الخوارج أوله وآخره. ومن قال: المقادير كلها من الله عز وجل خيرها وشرها يضل من يشاء ويهدي من يشاء فقدخرج من قول القدرية أوله وآخره وهو صاحب سنة.
شرح السنة للإمام البربهاري رقم(١٢٢).

(٢) أبونصر السجزي هو الحافظ عبدالله بن سعيد بن حاتم البكري نزيل مصر، كان متقناً بصيراً بالحديث والسنة واسع الرواية سمع بخراسان والعراق والحجاز ومصر وتوفي بمكة سنة ٤٤٤هـ.
شذرات الذهب (٣/ ٢٧١).

طائفة من متقدمي علماء الحديث كأبي حاتم[١] وأبي زرعة[٢] وغيرهم وامتنع بعضهم عن القول بالتخليد.

وسبب هذا التنازع تعارض الأدلة فإنهم يرون أدلة توجب إلحاق أحكام الكفر بهم ثم إنهم يرون من الأعيان الذين قالوا تلك المقالات من قام به من الإيمان ما يمتنع أن يكون كافراً فيتعارض عندهم الدليلان وحقيقة الأمر أنهم أصابهم في ألفاظ العموم في كلام الأئمة ما أصاب الأولين في ألفاظ العموم في نصوص الشارع كلما رأوهم قالوا: من قال كذا فهو كافر اعتقد المستمع أن هذا اللفظ شامل لكل من قاله. ولم يتدبروا أن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وأن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين إلاّ إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه.

فإن الإمام أحمد مثلاً قد باشر الجهمية الذين دعوه إلى خلق القرآن ونفي الصفات وامتحنوه وسائر علماء وقته وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب والحبس والقتل والعزل عن الولايات وقطع الأرزاق ورد الشهادة، وترك تخليصهم

---

(١) أبوحاتم محمد بن إدريس بن المنذر الإمام الحافظ الناقد شيخ المحدثين كان من بحور العلم طاف البلاد وبرع في المتن والإسناد وجمع وصنَّف وجرح وعدَّل وصحّح وعللّ، ولد سنة ١٩٥هـ وهو من نظراء البخاري ومن طبقته.
سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٤٧).

(٢) أبوزرعة عبدالرحمن بن عمرو الدمشقي، محدث الشام الإمام الصادق جمع وصنف وذاكر الحفاظ وتميز وتقدم على أقرانه لمعرفته وعلو سنده قال عنه ابن أبي حاتم كان ثقة صدوقاً مات سنة ٢٨١هـ.
سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣١١).

من أيدي العدو بحيث كان كثير من أولي الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاء وغيرهم يكفرون كل من لم يكن جهمياً موافقاً لهم على نفي الصفات مثل القول بخلق القرآن ويحكمون فيهم بحكمهم في الكافر فلا يولونه ولاية، ولا يفتكُّونه من عدو، ولا يعطونه شيئاً من بيت المال، ولا يقبلون له شهادة ولا فتيا، ولا رواية. ويمتحنون الناس عند الولاية والشهادة والافتكاك من الأسر وغير ذلك فمن أقر بخلق القرآن حكموا له بالإيمان ومن لم يقر به لم يحكموا له بحكم أهل الإيمان. ومن كان داعياً إلى غير التجهم قتلوه أو ضربوه وحبسوه.

ومعلوم أن هذا من أغلظ التجهم فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها وإثابة قائلها وعقوبة تاركها، أعظم من مجرد الدعاء إليها والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب.

ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره ممن ضربه وحبسه واستغفر لهم وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم، فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية الذين كانوا يقولون: القرآن مخلوق وأن الله لا يرى في الآخرة. وقد نقل عن أحمد مايدل على أنه كفَّر به قوماً معينين فأما أن يذكر عنه في المسألة روايتان ففيه نظر أو يحمل الأمر على التفصيل فيقال: من كفر بعينه فلقيام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير وانتفت موانعه، ومن لم يكفره بعينه فلإنتفاء ذلك في حقه، هذا مع إطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم.

والدليل على هذا الأصل الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار.

أما الكتاب فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[2]

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: **«أن الله تعالى قال: قد فعلت لما دعا النبي ﷺ والمؤمنون بهذا الدعاء»**[3] وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: **«أعطيت الفاتحة وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش وأنه لم يقرأ بحرف منها إلاَّ أعطيه»**[4].

وإذا ثبت بالكتاب المفسر بالسنة أن الله قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان فهذا عام عموماً محفوظاً، وليس في الدلالة الشرعية ما يوجب أن الله يعذب من هذه الأمة مخطئاً على خطئه وإن عذب المخطىء من غير هذه الأمة.

وأيضاً قد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«إن رجلاً لم يعمل خيراً قط فقال لأهله إذا مات فأحرقوه، ثم اذروا نصفه في البر ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه**

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٣) رواه مسلم ح (١٢٦).

(٤) لم أجده في البخاري كما أشار ـ رحمه الله ـ ولكني وجدت في صحيح مسلم حديثاً هذا نصه: «عن ابن عباس قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلاَّ اليوم فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلاَّ اليوم فسلم وقال: ابشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلاَّ أعطيته» صحيح مسلم ح (٨٠٦).

ليعذبنه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين، فلما مات الرجل فعلوا به كما أمرهم فأمر الله البر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه فإذا هو قائم بين يديه ثم قال: لم فعلت هذا قال: من خشيتك يارب وأنت أعلم فغفر الله له»[١].

وهذا الحديث متواتر عن النبي ﷺ رواه أصحاب الحديث والأسانيد من حديث أبي سعيد وحذيفة وعقبة بن عمرو وغيرهم عن النبي ﷺ من وجوه متعددة يعلم أهل الحديث أنها تفيدهم العلم اليقيني، وإن لم يحصل ذلك لغيرهم، ممن لم يشركهم في أسباب العلم، فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل في قدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم بعدما أحرق وذري وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك وهذان أصلان عظيمان:

أحدهما: متعلق بالله تعالى وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير.

والثاني: متعلق باليوم الآخر وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت ويجزيه على أعماله ومع هذا فلما كان مؤمناً بالله في الجملة ومؤمناً باليوم الآخر في الجملة وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت وقد عمل عملاً صالحاً، هو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح.

وأيضاً فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «أن الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان» وفي رواية: «مثقال دينار من خير ثم يخرج من النارمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان». وفي رواية: «من خير ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان أو خير»[٢] وهذا وأمثاله من النصوص المستفيضة عن

(١) رواه مسلم ح (٢٧٥٦).

(٢) رواه البخاري ح (٧٤١٠).

النبي ﷺ يدل على أنه لا يخلد في النار من معه شيء من الإيمان والخير وإن كان قليلاً وإن الإيمان مما يتبعض ويتجزأ ومعلوم قطعاً أن كثيراً من هؤلاء المخطئين معهم مقدار ما من الإيمان بالله ورسوله، إذ الكلام فيمن يكون كذلك.

وأيضاً فإن السلف أخطأ كثير منهم في كثير من هذه المسائل واتفقوا على عدم التكفير بذلك مثل ما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع نداء الحي، وأنكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة وأنكر بعضهم رؤية محمد ربه ولبعضهم في الخلافة والتفضيل كلام معروف وكذلك لبعضهم في قتال بعض ولعن بعض وإطلاق تكفير بعض أقوال معروفة.

وكان القاضي شريح[1] ينكر قراءة من قرأ: ﴿بل عجبت﴾[2] ويقول إن الله لا يعجب فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال: إنما شريح شاعر يعجبه علمه كان عبدالله أفقه منه فكان يقول: ﴿بل عجبت﴾ فهذا قد أنكر قراءة ثابتة. وأنكر صفة دل عليها الكتاب والسنة، واتفقت الأمة على أنه إمام من الأئمة، وكذلك بعض السلف أنكر بعضهم حروف القرآن مثل إنكار بعضهم قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[3] وقال: إنما هي أولم يتبين الذين آمنوا وإنكار الآخر قراءة قوله: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[4] وقال: إنما هي

(١) القاضي شريح بن الحارث بن قيس الكندي قاضي الكوفة قيل له صحبة ولم يصح بل هو ممن أسلم في حياة النبي ﷺ وقدم من اليمن في زمن الصديق وولاه عمر قضاء الكوفة وله نوادر في شئون القضاء مات سنة ٨٠هـ.
سير أعلام النبلاء (٤/ ١٠٠).

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٢.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

ووصى ربك، وبعضهم حذف المعوذتين وآخر يكتب سورة القنوت وهذا خطأ معلوم بالإجماع والنقل والتواتر، ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك لم يكفروا وإن كان يكفر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر.

وأيضاً فإن الكتاب والسنة قد دل على أن الله لا يعذب أحداً إلاَّ بعد إبلاغ الرسالة، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأساً ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلاَّ على إنكار ماقامت عليه الحجة الرسالية.

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾[6] وقوله تعالى:

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٧.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٧١.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٦) سورة القصص، الآية: ٥٩.

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧ ﴾[3] ونحو هذا في القرآن في مواضع متعددة.

فمن كان قد آمن بالله ورسوله ولم يعلم بعض ما جاء به الرسول فلم يؤمن به تفصيلاً إما أنه لم يسمعه أو سمعه من طريق لا يجب التصديق بها، أو اعتقد معنى آخر لنوع من التأويل الذي يعذر به، فهذا قد جعل فيه من الإيمان بالله ورسوله ما يوجب أن يثيبه الله عليه وما لم يؤمن به فلم تقم عليه به الحجة التي يكفر مخالفها.

وأيضاً فقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من الخطأ في الدين ما لا يكفر مخالفه بل ولا يفسق بل ولا يأثم مثل الخطأ في الفروع العملية، وإن كان بعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن المخطىء فيها آثم وبعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن كل مجتهد فيها مصيب فهذان القولان شاذان ومع ذلك فلم يقل أحد بتكفير المجتهدين المتنازعين فيها ومع ذلك فبعض هذه المسائل قد ثبت خطأ المنازع فيها بالنصوص والإجماع القديم مثل استحلال بعض السلف والخلف لبعض أنواع الربا واستحلال آخرين لبعض أنواع

---

(١) سورة الملك، الآية: ٨-٩.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣٤.

(٣) سورة القصص، الآية: ٤٧.

الخمر واستحلال آخرين للقتال في الفتنة.

وأهل السنة والجماعة متفقون على أن المعروفين بالخير كالصحابة المعروفين وغيرهم من أهل الجمل وصفين من الجانبين لا يفسق أحد منهم فضلاً عن أن يكفر حتى عدَّى ذلك من عدَّاه من الفقهاء إلى سائر أهل البغي فإنهم مع إيجابهم لقتالهم منعوا أن يحكم بفسقهم لأجل التأويل كما يقول هؤلاء الأئمة: إن شارب النبيذ المتنازع فيه متأولاً لا يجلد ولا يفسق، وقد قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾[2].

وثبت في الصحاح من حديث عمرو بن العاص وأبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**»[3] وثبت في الصحيح عن بريدة بن الحصيب أن النبي ﷺ قال: «**إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن انزلهم على حكمك وحكم أصحابك فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم**»[4] وأدلة هذا الأصل كثيرة لها موضع آخر.

وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من بلغته رسالة النبي

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٨، ٧٩.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٥.

(٣) رواه البخاري ح (٧٣٥٢)، ومسلم ح (١٧١٦).

(٤) رواه مسلم ح (١٧٣١).

ﷺ فلم يؤمن به فهو كافر لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة؛ ولأن العذر بالخطأ حكم شرعي فكما أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر والواجبات تنقسم إلى أركان وواجبات ليست أركاناً، فكذلك الخطأ ينقسم إلى مغفور وغير مغفور والنصوص إنما أوجبت رفع المؤاخذة بالخطأ لهذه الأمة وإذا كان كذلك فالمخطىء في بعض هذه المسائل إما أن يلحق بالكفار من المشركين وأهل الكتاب مع مباينته لهم في عامة أصول الإيمان، وإما أن يلحق بالمخطئين في مسائل الإيجاب والتحريم مع أنها أيضاً من أصول الإيمان.

فإن الإيمان بوجوب الواجبات الظاهرة المتواترة وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة هو من أعظم أصول الإيمان وقواعد الدين والجاحد لها كافر بالاتفاق مع أن المجتهد في بعضها ليس بكافر بالاتفاق مع خطئه.

وإذا كان لابد من إلحاقه بأحد الصنفين فمعلوم أن المخطئين من المؤمنين بالله ورسوله أشد شبهاً منه بالمشركين من أهل الكتاب فوجب أن يلحق بهم وعلى هذا مضى عمل الأمة قديماً وحديثاً في أن عامة المخطئين من هؤلاء تجري عليهم أحكام الإسلام التي تجري على غيرهم، هذا مع العلم بأن كثيراً من المبتدعين منافقون النفاق الأكبر وأولئك كفار في الدرك الأسفل من النار فما أكثر ما يوجد في الرافضة والجهمية ونحوهم زنادقة منافقون بل أصل هذه البدع هو من المنافقين الزنادقة، ممن يكون أصل زندقته عن الصابئين والمشركين فهؤلاء كفار في الباطن ومن علم حاله فهو كافر في الظاهر أيضاً.

وأصل ضلال هؤلاء الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ من الكتاب والحكمة وابتغاء الهدى في خلاف ذلك. فمن كان هذا أصله

فهو بعد بلاغ الرسالة كافر لا ريب فيه مثل من يرى أن الرسالة للعامة دون الخاصة كما يقوله قوم من المتفلسفة وغالية المتكلمة والمتصوفة أو يرى أنه رسول إلى بعض الناس دون بعض كما يقوله كثير من اليهود والنصارى فهذا الكلام يمهد أصلين عظيمين:

أحدهما: أن العلم والإيمان والهدى فيما جاء به الرسول وأن خلاف ذلك كفر على الإطلاق فنفي الصفات كفر والتكذيب بأن الله يرى في الآخرة أو أنه على العرش أو أن القرآن كلامه أو أنه كلم موسى أو أنه اتخذ إبراهيم خليلاً كفر وكذلك ما كان في معنى ذلك وهذا معنى كلام أئمة السنة وأهل الحديث.

والأصل الثاني: أن التكفير العام كالوعيد العام يجب القول بإطلاقه وعمومه. وأما الحكم على المعين بأنه كافر أو مشهود له بالنار فهذا يقف على الدليل المعين فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه وانتفاء موانعه.

ومما ينبغي أن يعلم في هذا الموضع أن الشريعة قد تأمرنا بإقامة الحد على شخص في الدنيا إما بقتل أوجلد أو غير ذلك ويكون في الآخرة غير معذب مثل قتال البغاة المتأولين مع بقائهم على العدالة ومثل إقامة الحد على من تاب بعد القدرة عليه توبة صحيحة، فإنا نقيم الحد عليه مع ذلك كما أقامه النبي ﷺ على ماعز ابن مالك وعلى الغامدية، مع قوله: «**لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له**»[1]، ومثل إقامة الحد على من شرب النبيذ المتنازع فيه متأولاً[2] مع العلم بأنه باقٍ على العدالة، بخلاف من لا تأويل له

(١) رواه مسلم ح (١٦٩٥).

(٢) انظر: المغني لابن قدامة (٨/ ٣١٧، ١٠(٣٤١).

فإنه لما شرب الخمر بعض الصحابة واعتقدوا أنها تحل للخاصة تأول قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[1] «اتفق الصحابة مثل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وغيرهما على أنهم إن أقروا بالتحريم جلدوا وإن أصروا على الاستحلال قتلوا»[2].

وكذلك نعلم أن خلقاً لايعاقبون في الدنيا مع إنهم كفار في الآخرة مثل أهل الذمة المقرين بالجزية على كفرهم، ومثل المنافقين المظهرين الإسلام فإنهم تجري عليهم أحكام الإسلام وهم في الآخرة كافرون، كما دل عليه القرآن في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾[4] وهذا لأن الجزاء في الحقيقة إنما هو في الدار الآخرة التي هي دار الثواب والعقاب وأما الدنيا فإنما يشرع فيها من العقاب ما يدفع به الظلم والعدوان كما قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٣.
(٢) انظر: الدر المنثور للسيوطي (٣/ ١٧٤).
(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٥.
(٤) سورة الحديد، الآية: ١٣-١٥.

ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[2]. وهذا لأن المقصود بإرسال الرسل وإنزال الكتب هو إقامة القسط كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾[3].

وإذا كان الأمر كذلك فعقوبة الدنيا غير مستلزمة لعقوبة الآخرة، ولا بالعكس، ولهذا أكثر السلف يأمرون بقتل الداعي إلى البدعة الذي يضل الناس لأجل إفساده في الدين سواء قالوا هو كافرأو ليس بكافر.

وإذا عُرف هذا فتكفير المعين من هؤلاء الجهال وأمثالهم بحيث يحكم عليه بأنه من الكفار لا يجوز الإقدام عليه، إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسل، وإن كانت هذه المقالة لا ريب أنها كفر.

وهذا الكلام في تكفير جميع المعينين مع أن بعض هذه البدعة أشد من بعض وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض، فليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين، وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة، ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل عنه ذلك بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة»[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٢.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٤) فتاوى ابن تيمية (١٢/ ٤٨٤ ـ ٥٠١).

وبهذا التحرير الدقيق المستنبط من نصوص الوحي وكلام السلف يتبين موقف المسلم من أعيان المخالفين وأنهم ليسوا كلهم على درجة واحدة. والله الموفق.

المبحث الخامس
رؤية الله عز وجل

رؤية الله عزوجل في الآخرة من المسائل المهمة في العقيدة والتي تعددت فيها مذاهب الناس نفياً وإثباتاً.

وقد ذهب الشيخ عبدالقادر الجيلاني إلى إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة في الدار الآخرة، حيث يقول:

[**وينظر أهل الجنة إلى وجهه ويرونه لا يضامون في رؤيته، قال** تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(١)] قيل الحسنى: هي الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾(٢)(٣).

وما يعتقده الشيخ عبدالقادر الجيلاني في الرؤية وإثباتها هو اعتقاد السلف الصالح من أهل السنة والجماعة ومن سار على نهجهم وسلك سبيلهم.

وهذه بعض أقوال السلف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في إثبات الرؤية:

أولاً: من الصحابة:

١ ـ أبوبكر الصديق وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما اللذان قالا في

---

(١) يونس: ٢٦.
(٢) القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.
(٣) الغنية ١/٥٥.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[١] أن الحسنى الجنة، وأن الزيادة النظر إلى وجه الله[٢].

٢ ـ أبوموسى الأشعري[٣]، حيث قال في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٤] قال: النظر إلى وجه ربهم[٥].

ثانياً: من التابعين:

١ ـ الحسن البصري[٦]، الذي قال في قوله عزوجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[٧]، قال: الناضرة: الحسنة حسنها الله بالنظر إلى ربها عزوجل وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى ربها جل جلاله[٨].

٢ ـ مجاهد بن جبر قال في قوله عزوجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[٩]، قال: ضاحكة إلى ربها ناظرة[١٠].

---

(١) سورة يونس: ٢٦.
(٢) السنة لعبدالله بن أحمد، تحقيق محمد سعيد القحطاني رقم ٤٧١، ٤٧٣.
(٣) أبوموسى الأشعري: عبدالله بن قيس بن سليم المشهور باسمه وكنيته معاً، هاجر إلى الحبشة وقيل لم يهاجر استعمله النبي ﷺ على بعض اليمن كزبيد وعدن واستعمله على البصرة وافتتح الأهواز وأصبهان واستعمله عثمان على الكوفة وكان أحد الحكمين في صفين ثم اعتزل الفريقين/ الإصابة لابن حجر ٤/١١٩.
(٤) يونس: ٢٦.
(٥) التوحيد لابن خزيمة ص١٨٤.
(٦) سيد التابعين الحسن بن أبي الحسن يسار البصري الأنصاري ثقة فقيه زاهد فاضل كان يرسل كثيراً وكان من أفصح الناس وأجملهم مات سنة ١١٠هـ تقريب التهذيب ١/١٦٥.
(٧) القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.
(٨) السنة لعبدالله بن أحمد، تحقيق: د/ محمد سعيد القحطاني برقم ٤٧٩.
(٩) القيامة ٢٢ ـ ٢٣.
(١٠) السنة لعبدالله بن أحمد تحقيق: د/ محمد سعيد القحطاني، برقم ٤٨٠.

٣ ـ عكرمـة[١] في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾، قال: تنظر إليه نظراً[٢].

ثالثاً: من أئمة وعلماء أهل السنة والجماعة:

١ ـ الإمام مالك، الذي قال: الناس ينظرون إلى الله عزوجل يوم القيامة بأعينهم[٣].

٢ ـ الشافعي، جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[٤] قال الشافعي: فلما أن حجبوا هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أنهم يرونه في الرضا. قيل له: ياأباعبدالله وبه تقول، قال: نعم وبه أدين لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبدالله تعالى[٥].

٣ ـ الإمام أحمد، نقل عنه ابنه عبدالله أنه كان يصحح الأحاديث التي تروى عن النبي ﷺ في الرؤية ويذهب إليها[٦].

٤ ـ ذكر الإمام ابن قتيبة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة فقال: «إن الله عزوجل احتجب عن جميع خلقه في الدنيا ويتجلى لهم يوم الحساب ويوم الجزاء والقصاص فيراه المؤمنون كما يرون القمر ليلة البدر ولا يختلفون فيه كما لا يختلفون في القمر...

(١) الإمام التابعي مولى بن عباس عكرمة بن عبدالله البربري ثم المدني أحد الأعلام المفسر الكبير كان كثير التنقل في الأقاليم وكان الأمراء يكرمونه ويصلونه مات سنة ١٠٧هـ/ البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٢٤٤.

(٢) السنة لعبدالله بن أحمد، تحقيق د/ محمد سعيد القحطاني برقم ٤٨١.

(٣) الشريعة للآجري ٢٥٤.

(٤) سورة المطففين ١٥.

(٥) الحجة في بيان المحجة ٢/٢٤٨.

(٦) السنة لعبدالله بن أحمد رقم ٤١١.

إلى أن قال رحمه الله.

والحديث الصحيح لا يجوز على مثله الكذب لتتابع الروايات عن الثقات به من وجوه كثيرة ولو كان يجوز أن يكون مثله كذباً جاز أن يكون كل ما نحن عليه من أمور ديننا في التشهد الذي لم نعلمه إلا بالخبر وفي صدقه النعم وزكاة النَّاضِّ[١] من الأموال والطلاق والعتاق وأشباه ذلك من الأمور التي وصل إلينا علمها بالخبر ولم يأت لها بيان في الكتاب باطلاً.

ولم يقع التشبيه بها على كل حالات القمر في التدوير والمسير والحدود وغير ذلك وإنما وقع التشبيه بها على أننا ننظر إليه عزوجل كما ننظر إلى القمر ليلة البدر كما لا يختلف في القمر وقوله في الحديث «لا تضامون في رؤيته» دليل لأن التضام من الناس يكون في أول الشهر عند طلبهم الهلال فيجتمعون ويقول واحد: هو ذاك هو ذاك، ويقول آخر: ليس به وليس القمر، كذلك لأن كل واحد يراه بمكانه ولا يحتاج إلى أن ينضم إلى غيره لطلبه»[٢].

- عقد الإمام ابن خزيمة باباً بعنوان: [باب ذكر البيان أن رؤية الله يختص بها أولياؤه يوم القيامة] التي ذكر الله في قوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾[٣] ثم قال: ويفضل بهذه الفضيلة أولياءه من المؤمنين ويحجب جميع أعدائه عن النظر إليه من مشرك ومتهود ومتنصر ومتحمس[٤] ومنافق كما أعلم في قوله ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ

(١) أهل الحجاز يسمون الدراهم والدنانير النضَّ والنَّاضَّ/ مختار الصحاح ٢٧٧.

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٣) القيامة ٢٢ ـ ٢٣.

(٤) قال صاحب اللسان الحَمْسُ الضلال والهلكة والشر والحُمْسُ قريش لأنهم كانوا =

عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[١] وهذا نظر أولياء الله إلى خالقهم جل ثناؤه بعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيزيد الله المؤمنين كرامة وإحسانا إلى إحسانه تفضلا منه وجودا بإذنه إياهم النظر إليه ويحجب عن ذلك جميع أعدائه[٢].

٦ - افتتح الإمام الآجري كتاب التصديق بالنظر إلى وجه الله عزوجل بقوله: «الحمد لله على جميل إحسانه ودوام نعمه حمد من يعلم أن مولاه الكريم يحب الحمد فله الحمد على كل حال وصلى الله على محمد النبي الأمي وسلم وعلى آله أجمعين وحسبي الله ونعم الوكيل.

أما بعد: فإن الله جل ذكره وتقدست أسماؤه خلق خلقه كما أراد لما أراد فجعلهم شقيا وسعيدا.

فأما أهل الشقوة، فكفروا بالله العظيم وعبدوا غيره وعصوا رسله وجحدوا كتبه فأماتهم على ذلك فهم في قبورهم يعذبون وفي القيامة عن النظر إلى الله محجوبون وإلى جهنم واردون وفي أنواع العذاب يتقلبون وللشياطين مقارنون وهم فيها خالدون.

وأما أهل السعادة، فهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى فآمنوا بالله وحده ولم يشركوا به شيئا وصدقوا القول بالفعل فأماتهم على ذلك فهم في قبورهم ينعمون وعند المحشر يبشرون وفي الموقف إلى الله عزوجل بأعينهم ينظرون وإلى الجنة بعد ذلك

= يتشددون في دينهم وشجاعتهم والأحمس المتشدد على نفسه في الدين. لسان العرب لابن منظور ٦/٥٧ وابن خزيمة يعني بالمتحمس الإباضية من الخوارج الذين ينكرون رؤية الله في الآخرة.

(١) المطففين: ١٥.

(٢) التوحيد لابن خزيمة ١٨٠.

وافدون وفي نعيمها يتفكّهون وللحور العين معانقون والولدان لهم يخدمون وفي جوار مولاهم الكريم أبداً خالدون ولربهم عزوجل في داره زائرون وبالنظر إلى وجهه الكريم يتلذّذون وله مكلّمون وبالتحية لهم من الله عزوجل والسلام منه عليهم يكرمون ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فإن اعترض جاهل ممن لا علم معه أو بعض هؤلاء الجهمية الذين لم يوفقوا للرشاد ولعب بهم الشيطان وحرموا التوفيق فقال: وهل المؤمنون يرون الله عزوجل يوم القيامة؟

قيل له: نعم والحمد لله على ذلك.

فإن قال الجهمي: أنا لا أؤمن بهذا.

قيل له: كفرت بالله العظيم.

فإن قال: وما الحجة؟

قيل: لأنك رددت القرآن والسنة وقول الصحابة رضي الله عنهم وقول علماء المسلمين واتبعت غير سبيل المؤمنين وكنت ممن قال الله عزوجل فيهم: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾[1] ثم ساق الأدلة التي استدل بها أهل السنة والجماعة على إثبات الرؤية[2].

٧ ـ ينقل الإمام الصابوني شهادة أهل السنة على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة فيقول:

ويشهد أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم تبارك وتعالى يوم القيامة بأبصارهم وينظرون إليه على ما ورد به الخبر

---

(١) النساء: ١١٥.

(٢) الشريعة للآجري ٢٥١.

الصحيح عن رسول الله ﷺ في قوله: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»[1]، والتشبيه في هذا الخبر وقع للرؤية لا للمرئي[2].

وهكذا يتبين أن عقيدة سلف هذه الأمة في الرؤية الإثبات بأنها كائنة في الآخرة لأهل الإيمان بلا إحاطة ولا كيفية وتبين كذلك ما وردت به النصوص وما يجيزه العقل وبأن الله تجلى للجبل وهو جماد. فلا مانع أن يتجلى لعباده بالكيفية التي تليق بجلاله وكماله وأن الشيخ عبدالقادر الجيلاني يتفق مع ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة والله أعلم.

(١) رواه البخاري ح٧٤٣٤.
(٢) عقيدة السلف للصابوني ٦٣.

أدلة أهل السنة والجماعة على إثبات رؤية الله عزوجل

استدل أهل السنة والجماعة على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة بالنقل والعقل.

أولاً: من النقل:

أ ـ استدلوا من الكتاب الكريم بعدة آيات منها:

١ ـ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾[(١)]

ووجه الاستدلال أن الرؤية لو لم تكن ممكنة لما سألها موسى عليه السلام لأنه إما أن يعلم امتناعها أو يجهله فإن علمه فالعاقل لا يطلب الممتنع وإن جهله فالجاهل يمتنع أن يكون نبياً كليماً وأيضاً فإن الله عزوجل لم ينكر على موسى عليه السلام طلب الرؤية ولم يقل له لا تجوز رؤيتي أو أنني لا أُرى[(٢)].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[(٣)]، ووجه الاستدلال أنه سبحانه لو لم تكن رؤيته ممكنة لما حصل التمدح بقوله ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ وهذا

---

(١) الأعراف: ١٤٣.

(٢) حادي الأرواح لابن القيم ٢٢٣.

(٣) الأنعام: ١٠٣.

يفيد أنه جائز الرؤية»[١] لأن المنفي إنما هو: الإدراك لا أصل الرؤية.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٢] فقد فسر كثير من الصحابة والتابعين الحسنى بالجنة والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، كما سبق بيانه.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[٣] وهذه أيضاً فسرها كثير من السلف كما تقدم بأنها ناظرة أي رائية رؤية بصرية»[٤].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾[٥] ووجه الاستدلال بها أنه سبحانه جعل أعظم عقوبة للكفار حجبهم عن رؤيته.[٦]

ب ـ كما استدل أهل السنة والجماعة على إثبات الرؤية بالأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ ومنها:

١ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن ناساً قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: **«هل تضامون في رؤية القمر ليلة البدر؟»** قالوا: لا يارسول الله. قال: **«هل تضامون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟»** قالوا: لا، قال: **«فإنكم ترونه كذلك»**[٧].

---

(١) انظر: تفسير الفخر الرازي ١٣/١٢٥.
(٢) يونس: ٢٦.
(٣) القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.
(٤) انظر: الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري ص١٢.
(٥) المطففين: ١٥.
(٦) انظر: روح المعاني للألوسي ٣٠/٧٣ وحادي الأرواح لابن القيم ص٢٦٥.
(٧) رواه البخاري ح٤٧٣٧ ومسلم ح١٨٢.

٢ ـ حديث جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: **«إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب فافعلوا»**[1].

٣ ـ حديث صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عزوجل تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا أم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزوجل»**[2].

وأوجه الاستدلال في هذه الأحاديث جلية وظاهرة ولا تحتاج إلى إيضاح.

ثانياً: من جهة العقل:

أما استدلالهم على إثبات الرؤية من جهة العقل فبالرغم من أن أكثر العلماء قد ذهب إلى وجوب الاستدلال على إمكان رؤية الله بالأدلة النقلية فقط لأن الله عزوجل أخبر عن نفسه بأنه يرى يوم القيامة وهو أعلم بما يجوز عليه تعالى وأخبر عنه رسوله ﷺ وهو أعرف الخلق بربه تعالى وأعلمهم بما يجوز عليه تعالى وما يمتنع إلا أن موافقة الدليل العقلي لما ثبت بالنقل يؤيده ويقويه ولذا فسوف أذكر بعض الأدلة العقلية التي ذكرها أهل العلم ومنها:

١ ـ دليل الوجود فإن وجود الله دليل على جواز رؤيته والذي لا يجوز أن يرى هو المعدوم. يقول أبوالحسن الأشعري: «ومما يدل على رؤية الله عزوجل بالأبصار أنه ليس موجود إلا وجائز

(١) رواه البخاري ح٧٤٣٤.

(٢) رواه مسلم ح١٨١.

أن يرى وإنما لا يجوز أن يرى المعدوم. فلما كان الله عزوجل موجوداً مثبتاً كان غير مستحيل أن يرينا نفسه عزوجل»[١].

٢ ـ «ومما يدل على رؤية الله بالأبصار أن الله عزوجل يرى الأشياء وإذا كان للأشياء رائياً فلا يرى الأشياء من لا يرى نفسه وإذا كان لنفسه رائياً فجائز أن يرينا نفسه»[٢].

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري ١٦.

(٢) المصدر السابق ص١٦.

نفاة الرؤية والرد على شبههم

نفاة الرؤية من أهل البدع والضلال كالجهمية والمعتزلة ومن سلك سبيلهم من الخوارج والروافض يعترضون على أدلة أهل السنة والجماعة باعتراضات باطلة وحجج واهية.

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يعرض بهم ويذكر المعتزلة صراحة يقول: «**فإذا جمعهم ليوم حسابه يتجلى لأحبابه فيشاهدونه بالبصر كما يرى القمر لا يحجب إلا من أنكر الرؤية من المعتزلة**»[(١)].

وسأتحدث فقط عن المعتزلة حيث خصهم الشيخ الجيلاني بالذكر من بين النفاه والمعتزلة ينفون عن الله الرؤية مطلقاً لا في الدنيا ولا في الآخرة لأنهم يرون أن القول بإمكانية الرؤية هدم للتنزيه فوقعوا فيما هو أفظع وهو التعطيل[(٢)].

وقد استدلوا بأدلة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[(٣)].

ووجه الدلالة أنه نفى أن يدرك بالأبصار ومادام الإدراك قد قرن بالبصر فإنه يفيد عدم الرؤية بالبصر وعليه يكون قوله تعالى لا تدركه الأبصار بمعنى لا تراه الأبصار فثبت أنه نفى عن نفسه إدراك الأبصار[(٤)].

---

(١) فتوح الغيب للجيلاني ١٢٨.
(٢) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ١/١٥٧.
(٣) الأنعام: ١٠٣.
(٤) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص٢٣٢.

وقد أجاب أهل السنة على المعتزلة بما يلي:

١ ـ قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والاستدلال بهذا أعجب فإنه من أدلة النفاة وقد قرر شيخنا ـ يعني ابن تيمية ـ وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه وقال لي أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله فمنها هذه الآية وهي على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها.

فإن الله سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية وأما العدم المحض فليس بكمال ولا يمدح به وإنما يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم إذا تضمن أمراً وجوبياً كتمدحه بنفي السِنة والنوم المتضمن كمال القيومية ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته وإلهيته وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال الصمدية والغنى، ونفي الشفاعة عنده بدون إذنه المتضمن كمال توحيده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته.

ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمراً ثبوتياً فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم. ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه فلو كان المراد بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ أنه لا يرى بحال لم يكن في ذلك مدح ولا كمال

لمشاركة المعدوم له في ذلك فإن العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار والرب جل جلاله يتعالى أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض فإذاً المعنى أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به إلى أن قال رحمه الله: فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ يدل على غاية عظمته وأنه أكبر من كل شيء وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية[1].

٢ ـ ومن أدلة المعتزلة على نفي الرؤية قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾[2].

ووجه استدلالهم. أن: «لن» تفيد التأبيد وأن موسى عليه السلام لما أفاق قال: سبحانك. أي: أنزهك عما لا يجوز عليك وأنه تاب مما وقع منه وهو طلب الرؤية[3].

وقد أبطل أهل السنة استدلال المعتزلة بهذه الآية بإجابات عديدة نذكر منها إجابة شارح الطحاوية حيث قال:

«وأما دعواهم تأبيد النفي بلن وأن ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة فكيف إذاً أطلقت قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾[4] مع

(١) حادي الأرواح لابن القيم ص٢٠١.
(٢) الأعراف: ١٤٣.
(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ٢٦٤.
وتفسير الفخر الرازي ١٤/ ٢٣٣، والكشاف للزمخشري ٢/ ١١٥.
(٤) البقرة: ٩٥.

قوله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[١] ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾[٢].

فثبت أن «لن» لا تقتضي النفي المؤبد. يقول ابن مالك:

ومن رأى النفي بـ «لن» مؤبداً

فقوله اردد وسواه فاعضدا[٣]

أما قول موسى عليه السلام: سبحانك، فلم اطلع على جواب لأهل السنة عليها، وفي اعتقادي أن موسى عليه السلام إنما نزَّه الله عزوجل بقوله: سبحانك، لما رأى من كمال قدرته وعظمته حيث لم يستطع الجبل أن يتحمل قوة نوره سبحانه.

وقول موسى عليه السلام: «تبت إليك»، قال القرطبي: قال مجاهد في قوله: «تبت إليك» من مسألة الرؤية في الدنيا، وقيل: قاله على جهة الإنابة والخشوع له عند ظهور الآيات كما مرَّ وقد أجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية[٤].

وبهذا يتبين تهافت أدلة النفاة في مواجهة الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة التي صرحت برؤية المؤمنين لله عزوجل في جنات عدن نسأل الله أن يمنَّ علينا جميعاً برؤيته في دار كرامته إنه سميع مجيب.

---

(١) الزخرف: ٧٧.

(٢) يوسف: ٨٠.

(٣) شرح الطحاوية تحقيق التركي الأرناؤوط ١/ ٢١٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٢٧٩.

رؤية النبي ﷺ لربه عزوجل في الدنيا

وقع الخلاف بين أهل السنة والجماعة في رؤية النبي ﷺ لربه في الدنيا والشيخ عبدالقادر الجيلاني يذهب إلى القول بأن النبي ﷺ رأى ربَّه عندما أسري به بعيني رأسه. لا بفؤاده وفي اليقظة لا في المنام فيقول:

«ونؤمن بأن النبي ﷺ رأى ربه عزوجل ليلة الإسراء بعيني رأسه لا بفؤاده ولا في المنام»[١].

وقد استدل على ما ذهب إليه بعدة أحاديث، منها حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي قال: **«أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ﷺ»**[٢].

والخلاف في هذه المسألة قديم منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم. على قولين:

القول الأول: إثبات رؤية النبي ﷺ لربه تبارك وتعالى في الدنيا جاء هذا عن بعض الصحابة منهم عبدالله بن عباس رضي الله عنهما فقد روى الإمام أحمد في المسند عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«رأيت ربي تبارك وتعالى»** قال عبدالله بن أحمد: وقد سمعت هذا الحديث من أبي أملى علي في موضع آخر[٣].

وهذا الحديث وردت فيه الرؤية مطلقة غير مقيدة بالعين أو

---

(١) الغنية للجيلاني ١/٦٦.

(٢) رواه الآجري بسنده في الشريعة ٤٩١.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند ١/ ٢٨٥ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح.

بالقلب في حين وردت أحاديث أخرى أصح من هذا الحديث عن ابن عباس نفسه قُيِّدت فيها الرؤية مرة بالقلب كما في حديث عطاء[(١)] عن ابن عباس قال: «رآه بقلبه»[(٢)] ومرة بالفؤاد كما في حديث أبي العالية[(٣)] عن ابن عباس قال: «رآه بفؤاده مرتين»[(٤)].

وبحمل المطلق على المقيد يزول التعارض الظاهر ويتضح الأمر ويزول اللبس.

القول الثاني: نفي رؤية النبي ﷺ لربه عزوجل في الدنيا بعيني رأسه روي هذا عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم منهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ففي الصحيحين عن مسروق[(٥)] قال: كنت متكئاً عند عائشة فقالت: ياأبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن

---

(١) الإمام شيخ الإسلام مفتي الحرم عطاء بن أبي رباح حدث عن كثير من الصحابة وأخذ عنه كبار الأئمة وكان لا يفتي الناس في الحج إلا هو. قال عنه أبوحنيفة ما لقيت أفضل من عطاء وقال الأوزاعي مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس ومع غزارة علمه ما كان يتردد إذا سئل عن شيء لا يعلمه أن يقول لا أدري ومرة سئل عن مسألة فقال لا أدري قيل ألا تقول برأيك قال: إني أستحي من الله أن يدان في الأرض برأيي/ سير أعلام النبلاء للذهبي ٥/ ٧٨.

(٢) رواه مسلم ح١٧٦.

(٣) رفيع بن مهران الإمام المقريء الحافظ المجود المشهور بأبي العالية الرياحي أدرك زمن النبي ﷺ وهو شاب وأسلم في خلافة أبي بكر. ودخل عليه مات سنة ٩٠/ سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٠٧.

(٤) رواه مسلم ح١٧٦.

(٥) مسروق بن الأجدع الإمام القدوة العالم الكوفي حدث عن كثير من الصحابة وعداده في كبار التابعين قال عنه الشعبي: ما علمت أن أحداً كان أطلب للعلم في أفق من الآفاق من مسروق وكان كثير العبادة تحكي عنه امرأته أنه كان يصلي حتى تتورم قدماه وكان كثير السجود يقول لسعيد بن جبير: ما بقي شيء يرغب فيه إلا أن نعفر وجوهنا في التراب. قال عنه يحيى بن معين: مسروق ثقة لا يسأل عن مثله مات سنة ٦٣/ سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٣.

فقد أعظم الفرية قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئاً فجلست وقلت: ياأم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل الله عزوجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾[(١)] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾[(٢)]، فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض أولم تسمع أن الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾[(٣)] أولم تسمع أن الله يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[(٤)]. ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ﴾[(٥)]، ومن حدثك أنه كتم فقد كذب، ثم قرأت: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾[(٦)]، ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين[(٧)].

ففي هذا الحديث المتفق عليه التصريح من النبي ﷺ بنفي رؤيته لربه عزوجل حين سألته عائشة عن ذلك وإخباره لها بأن الرؤية المذكورة في الآيتين إنما كانت لجبريل عليه السلام.

(١) التكوير: ٢٣.
(٢) النجم: ١٣.
(٣) الأنعام: ١٠٣.
(٤) الشورى: ٥١.
(٥) لقمان: ٣٤.
(٦) المائدة: ٦٧.
(٧) رواه البخاري ح٤٨٥٥ ومسلم ح١٧٧.

وقد نشأ الخلاف بين القائلين بإثبات الرؤية ونفيها من تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾[1]، وقوله عزوجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾[2] فالذين أثبتوا رؤية النبي ﷺ لربه في الدنيا جعلوا الضمائر في رآه في الآيتين عائدة على الله عزوجل. والذين نفوا الرؤية جعلوها عائدة على جبريل عليه السلام.

والذي يتفق مع السياق القرآني أن المرئي هو جبريل لاسيما وقد صرحت بذلك الأحاديث الصحيحة، منهاحديث عطاء عن أبي هريرة «﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ قال: رأى جبريل»[3].

وبالنظر في أدلة القولين فإن القول بنفي رؤية النبي ﷺ بعيني رأسه في الدنيا أقرب إلى الصواب وأن ما ذهب إليه المثبتون يمكن حمله على رؤية القلب جمعاً بين الأدلة وبهذا يتبين أن ما ذهب إليه الشيخ عبدالقادر الجيلاني من أن النبي ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء بعيني رأسه لا بفؤاده قول مرجوح. والله أعلم.

---

(١) النجم: ١٣.

(٢) التكوير: ٢٣.

(٣) رواه مسلم ح١٧٥.

المبحـــث الســـادس
القضــاء والقــدر

الإيمان بالقضاء والقدر من أصول الإيمان التي لا يصح إيمان العبد إلا بها.

ويعرف أهل اللغة القضاء بأنه الحكم ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1] أي: حكم.

ويكون بمعنى الفراغ تقول: قضيت حاجتي أي فرغت منها.

وضربه فقضى عليه، أي: قتله كأنه فرغ منه. وقضى نحبه، أي: مات.

ويأتي بمعنى الصنع والتقدير ومنه، قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[2] ومنه القضاء والقدر[3].

وعلى هذه المعاني تدور معظم التعريفات التي ذكرها أهل اللغة[4].

كما يعرفون القدر بأنه القَدْرَ بإسكان الدال أي التقدير وتبيين كمية الشيء وبفتحها ـ القَدَرَ ـ لغتان معروفتان القضاء والحكم ومبلغ الشيء[5].

---

(١) الإسراء: ٢٣.
(٢) فصلت: ١٢.
(٣) الصحاح للجوهري ٦/ ٢٤٦٣.
(٤) انظر النهاية لابن الأثير ٤/ ٧٨ والمفردات للراغب الأصفهاني ص٤٠٦.
(٥) النهاية لابن الأثير ٤/ ٢٢.

وقد اختلفت عبارات العلماء رحمهم الله في تعريف القضاء والقدر شرعاً، أكثرها دلالة ووضوحاً قول السفاريني رحمه الله(١): القدر عند السلف ما سبق به العلم وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد وأن الله عزوجل قدَّر مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدَّرها(٢).

وعن تلازم القضاء والقدر يقرر الإمام الخطابي أن أحدهما لا ينفك عن الآخر فيقول: القضاء والقدر أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه(٣).

والإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان ومبنى من مبانيه العظام ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حول قصة جبريل عليه السلام ومجيئه إلى النبي ﷺ وتعليمه للصحابة أمور دينهم قوله ﷺ لجبريل حين سأله عن الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر

---

(١) هو محمد بن أحمد بن سالم السفاريني ولد بقرية سفارين من قرى نابلس سنة ١١١٤ ورحل إلى دمشق لطلب العلم وحصل منه على الشيء الكثير في زمن يسير ثم عاد إلى نابلس واشتهر بالذكاء والفضل وقام بالتدريس والإفتاء وصنف العديد من المؤلفات المفيدة منها شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد. والبحور الزاخرة في علوم الآخرة. ولوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية في العقيدة وكانت وفاته عام ١١٨٨) مقدمة لوامع الأنوار طبعة المكتب الإسلامي بيروت ١٤١١هـ.

(٢) لوامع الأنوار للسفاريني ١/٢٤٨.

(٣) معالم السنن للخطابي ٤/٣٢٣.

خيره وشره من الله تعالى[١].

وهو أي الإيمان بالقضاء والقدر من الأمور الغيبية التي حجب الله علمها عن البشر وأوجب على المسلم الإيمان الجازم والتسليم الكامل بها لما يرتبه ذلك من السعادة للعبد في الدنيا والآخرة فإنه إذا علم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه اطمأن قلبه وهدأت نفسه ورضي بتقدير مولاه فتخف عليه وطأة المصائب ويتعلق القلب بالرب عزوجل وهذا مقتضى الإيمان.

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يذكر أن من متطلبات الإيمان الصادق أن يؤمن الإنسان بالقضاء والقدر فيقول:

«وينبغي أن يؤمن بخير القدر وشره وحلو القضاء ومره. وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه بالحذر وما أخطأه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب، وأن جميع ما كان في سالف الدهور والأزمان، وما يكون إلى يوم البعث والنشور بقضاء الله وقدره المقدور. وأنه لا محيص لمخلوق من القدر المقدور الذي خط في اللوح المسطور»[٢].

وعلى هذا درج سلف هذه الأمة في الإيمان بالقضاء والقدر باعتباره ركناً من أركان الإيمان لا يتم إلا به. وهذه بعض أقوالهم:

أولاً: أقوال بعض الصحابة:

١ ـ قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «والله لا يطعم رجل طعم الإيمان حتى يؤمن بالقدر ويقر ويعلم أنه ميت مخرج وأنه مبعوث بعد الموت»[٣].

---

(١) رواه البخاري ح٥٠ ومسلم ح٨.

(٢) الغنية للجيلاني ١/ ٦٥.

(٣) شرح أصول أهل السنة والجماعة برقم ١٢١٨.

٢ ـ قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «القدر نظام التوحيد فمن وحَّد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقضاء نقضاً للتوحيد ومن وحد الله وآمن بالقدر كان العروة الوثقىٰ التي لا انفصام لها»[١].

ثانياً: أقوال بعض التابعين:

١ ـ قال الحسن البصري رحمه الله: «من كذَّب بالقدر فقد كذَّب بالحق إن الله قدَّر خلقاً وقدَّر أجلاً وقدَّر بلاءاً وقدَّر مصيبة وقدَّر معافاة، من كذب بالقدر فقد كذَّب بالقرآن»[٢].

٢ ـ قال زيد بن علي رضي الله عنه[٣]: وقد جاءه رجل فقال له: يازيد أنت تزعم أن الله أراد أن يعصى فقال له زيد: أيعصى الله عنوة؟ قال: فأقبل يخطر أي يعدو[٤].

ثالثاً: أقوال بعض علماء أهل السنة والجماعة:

١ ـ سئل الإمام أحمد عن القدر فقال: «القدر قدرة الله على العباد»[٥]. وعن وجوب الإيمان به يقول:

ونؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره وحلوه ومره[٦] ويقول:

---

(١) الشريعة للآجري ص٢١٥.

(٢) شرح أصول أهل السنة والجماعة برقم ١٢٥٤.

(٣) زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي العلوي روى عن والده زين العابدين وأخيه الباقر وعروة بن الزبير وكان ذا علم وجلالة وصلاح خرج على بني أمية، لما لاحظ من اضطهادهم لأهل البيت وقد التف حوله أهل الكوفة ووعدوه بالنصر والمؤازرة ثم تخلوا عنه حتى قتل وصلب سنة ١٢٢هـ/ سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٨٩ وشذرات الذهب ١/ ١٥٨.

(٤) شرح أصول أهل السنة والجماعة برقم ١٢٦٤.

(٥) مسائل إسحاق بن هاني ٢/ ١٥٥.

(٦) طبقات الحنابلة ١/ ٣٤٣.

القدر خيره وشره وقليله وكثيره وظاهره وباطنه وحلوه ومره ومحبوبه ومكروهه وحسنه وسيئه وأوله وآخره من الله قضاءاً قضاه وقدراً قدره عليهم لا يعدو واحد منهم مشيئة الله عزوجل. ولا يجاوز قضاؤه بل هم كلهم صائرون إلى ما خلقهم له. واقعون فيماقدر عليهم لامحالة وهو عدل منه عز ربنا وجل»[١].

٢ ـ قال ابن قتيبة رحمه الله: «ونحن نعلم أن كل شيء بقدر الله وقضائه غير أننا ننسب الأفعال إلى فاعليها ونحمد المحسن على إحسانه ونلوم المسيء بإساءته ونعتد على المذنب بذنوبه»[٢].

٣ ـ ويوضح الإمام الآجري بشيء من التفصيل عقيدة أهل السنة والجماعة فيقول:

«مذهبنا في القدر أن نقول إن الله عزوجل خلق الجنة وخلق النار ولكل واحدة منهما أهلاً وأقسم بعزته أنه يملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ثم خلق آدم عليه السلام واستخرج من ظهره ذرية هو خالقها إلى يوم القيامة ثم جعلهم فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير وخلق إبليس وأمره بالسجود لآدم عليه السلام.

وقد علم أنه لا يسجد للمقدور الذي قد جرى عليه من الشقوة التي سبقت في العلم من الله عزوجل لا معارض لله الكريم في حكمه يفعل في خلقه ما يريد عدلاً من ربنا قضاؤه وقدره وخلق آدم وحواء عليهما السلام وللأرض خلقهما

(١) المصدر السابق ١/ ٣٥.

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٢٣٦.

أسكنهما الجنة وأمرهما أن يأكلا منها رغداً ما شاءا ونهاهم عن شجرة واحدة ألا يقرباها.

وقد جرى مقدوره أنهما سيعصيانه بأكلهما من الشجرة فهو تبارك وتعالى في الظاهر نهاهما وفي الباطن من علمه قد قدَّر عليهما أنهما يأكلان منها ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾(١) لم يكن لهما بد من أكلهما سبباً للمعصية وسبباً لخروجهما من الجنة إذ كانا للأرض قد خلقا وأنه سيغفر لهما بعد المعصية كل ذلك سابق في علمه لا يجوز أن يكون شيء يحدث في جميع خلقه إلا وقد جرى مقدوره فيه وأحاط به علماً قبل كونه أنه سيكون.

خلق الخلق كما شاء لما شاء فجعلهم شقياً وسعيداً قبل أن يخرجهم إلى الدنيا وهم في بطون أمهاتهم وكتب آجالهم وكتب أرزاقهم وكتب أعمالهم ثم أخرجهم إلى الدنيا وكل إنسان يسعى فيما كتب له وعليه.

ثم بعث رسله وأنزل عليهم وحيه وأمرهم بالبلاغ لخلقه فبلغوا رسالات ربهم ونصحوا قومهم فمن جرى في مقدور الله عزوجل أن يؤمن آمن ومن جرى في مقدوره أن يكفر كفر قال الله عزوجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾(٢).

أحب من أراد من عباده فشرح صدره للإيمان والإسلام. ومقت آخرين فختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم.

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

(٢) التغابن: ٢.

فلن يهتدوا أبداً يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

الخلق كلهم له يفعل في خلقه ما يريد غير ظالم لهم جل ذكره عن أن ينسب ربنا إلى الظلم إنما يظلم من يأخذ ما ليس له بملك وأما ربنا عزوجل فله ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وله الدنيا والآخرة جل ذكره وتقدست أسماؤه أحب الطاعة من عباده وأمر بها فجرت ممن أطاعه بتوفيقه لهم ونهى عن المعاصي وأراد كونها من غير محبة منه لها. ولا بالأمر بها تعالى الله عزوجل أن يأمر بالفحشاء أو يحبها وجل ربنا وعز أن يجرى في ملكه ما لم يرد أن يجري. أو شيء لم يحط به علمه قبل كونه.

قد علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم وبعد أن يخلقهم قبل أن يعملوا قضاءاً وقدراً. قد جرى القلم بأمره عزوجل في اللوح المحفوظ بما يكون من بر أو فجور يثني على من عمل بطاعته من عبيده، ويضيف العمل إلى العباد ويعدهم عليه الجزاء العظيم ولولا توفيقه لهم ما عملوا ما استوجبوا به منه الجزاء ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾[2]. قال محمد بن الحسين رحمه الله تعالى هذا مذهبنا في القدر[3].

٤ ـ قال الإمام ابن بطه في الشرح والإبانة وهو يوضح معتقد أهل السنة والجماعة في مسألة القدر:

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

(٢) الحديد: ٢١.

(٣) الشريعة للآجري ص١٥٠.

ثم من بعد ذلك الإيمان بالقدر خيره وشره وحلوه ومره وقليله وكثيره مقدور واقع من الله عزوجل. على العباد في الوقت الذي أراد أن يقع لا يتقدم الوقت ولا يتأخر على ما سبق بذلك علم الله وأن ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وما تقدم لم يكن ليتأخر وما تأخر لم يكن ليتقدم.في هذا من صحة الدلائل وثبوت الحجة في جميع القرآن وأخبار المصطفى ﷺ ما لا يمكن دفعه ولا يقدر على رده إلا بالافتراء على الله عزوجل ومنازعته في قدره.

وإلى ما وصفناه دعت الرسل وأنزلت الكتب وعليه اتفق أهل التوحيد ممن أقر لله بالربوبية وعلى نفسه بالعبودية من ملك مقرب ونبي مرسل منذ كان الخلق إلى انقضائه مجمعون على أنه ليس شيء كان ولا شيء يكون في السموات ولا في الأرض إلا ما أراده الله عزوجل وشاءه وقضاه والخلق كلهم أضعف في قوتهم وأعجز في أنفسهم من أن يحدثوا في سلطان الله عزوجل شيئاً يخالفون فيه مراده ويغلبون مشيئته ويردون قضاءه.

فالإيمان بهذا حق لازم فريضة من الله عزوجل على خلقه فمن خالف ذلك أو خرج عنه أو طعن فيه ولم يثبت المقادير لله عزوجل ويضيفها ويضيف المشيئة إليه فهو أول الزنادقة[1].

٥ ـ لخص شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مذهب أهل السنة والجماعة في القضاء والقدر فقال:

«مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب ما دل عليه

(١) الشرح والإبانة لابن بطة العكبري ص٢١٣.

الكتاب والسنة وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وهو أن الله خالق كل شيء ومليكه وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. فلا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته لا يمتنع عليه شيء شاءه بل هو القادر على كل شيء ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه. وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون. وقد دخل في ذلك أفعال العباد. وغيرها.

وقد قدَّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم قدَّر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم. وكتب ذلك وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء. وقدرته على كل شيء ومشيئته لكل ما كان وعلمه بالأشياء قبل أن تكون وتقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون»[1].

(١) فتاوى ابن تيمية ٨/ ٤٤٩.

أدلة أهل السنة والجماعة على الإيمان بالقضاء والقدر

استدل أهل السنة والجماعة على الإيمان بقضاء الله وقدره بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

أولاً: من القرآن الكريم:

١ ـ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾[١] قال ابن جرير الطبري عند تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى ذكره وكل شيء كان أو هو كائن أحصيناه فأثبتناه في أم الكتاب وهو الإمام المبين. قاله مجاهد وقتاده»[٢].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾[٣] قال ابن كثير: أي قدَّر قدراً وهدى الخلائق إليه ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل تبرمها وردوا بهذه الآية وما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عهد الصحابة»[٤].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقْدُورًا ٣٨﴾[٥] قال ابن جرير الطبري: إن الله كان علمه معه قبل أن يخلق الأشياء كلها فأتم

---

(١) يس: ١٢.
(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ١٢/ ٦٥٥.
(٣) القمر: ٤٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٢٦٧.
(٥) الأحزاب: ٣٨.

في علمه أن يخلق خلقاً ويأمرهم وينهاهم ويجعل ثواباً لأهل طاعته وعقاباً لأهل معصيته فلما أتم ذلك الأمر قدره فلما قدره كتب وغاب عليه فسماه الغيب وأم الكتاب وخلق الخلق على ذلك الكتاب أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم. وما يصيبهم من الأشياء من الرخاء والشدة من الكتاب الذي كتبه أنه يصيبهم»[١].

ثانياً: من الأحاديث النبوية:

١ ـ ما ثبت في الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق. **«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه بالروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»**[٢].

٢ ـ ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء»**[٣].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ١٢/ ١٥.
(٢) رواه البخاري ح ٣٢٠٨ ومسلم ح٢٦٤٣.
(٣) رواه مسلم ح٢٦٥٣.

٣ ـ ما أخرجه مسلم أيضاً عن طاووس[١] أنه قال: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر، قال: وسمعت عبدالله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: **«كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز»**[٢].

ووجه الاستدلال في الأحاديث السابقة ظاهر وهو سبق علم الله وتقديره لمقادير الخلائق وأعمالهم وآجالهم وما سيصيرون إليه من سعادة أو شقاء.

وهذا العلم هو صفة كمال في الرب عزوجل، إذ أنه لا يعلم ما سيكون في المستقبل إلا الله ولو لم يكن يعلم لاستوى في العلم مع الناس الذين لا يعلمون ما سيكون إلا بعد وقوعه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولكن هذا العلم سابق لا سائق بمعنى أن علم الله الذي سبق أن فلاناً من الناس سيخلق وسيبلغ سن التكليف وسيقوم بأوامر الله ويبتعد عن نواهيه باختياره وبموجب ما منحه الله من قدرة على سلك سبيل الخير أو الشر فسلك سبيل الخير وترتب على هذا علم الله بأنه سيكون سعيداً من أهل الجنة هذا العلم السابق غير سائق لهذا الإنسان بحيث لا يقدر إلا على فعل الخير فقط والله عزوجل لن يسأل الناس عما قضاه وقدره عليهم ولكنه سيسألهم عما عملوه وكسبوه في هذه الحياة.

---

(١) طاووس بن كيسان الفقيه القدوة عالم اليمن سمع من بعض الصحابة ولازم ابن عباس، حج أربعين حجة قال عنه عمرو بن دينار ما رأيت مثل طاووس وقال عنه ابن معين وأبوزرعة طاووس ثقة مات سنة ١٠٦/ سير أعلام النبلاء ٣٨/٥.

(٢) رواه مسلم ح٢٦٥٥.

ذكر ابن عبدالبر أن عمر بن عبدالعزيز كتب إلى الحسن البصري: إن الله لا يطالب خلقه بما قضى عليهم وقدر ولكن يطالبهم بما نهاهم عنه وأمر فطالب نفسك من حيث يطالبك ربك والسلام ثم قال ابن عبدالبر وروينا أن الناس لما خاضوا في القدر بالبصرة اجتمع مسلم بن يسار[1] ورفيع أبوالعالية فقال أحدهما لصاحبه: تعال حتى ننظر فيما خاض الناس فيه هذا الأمر قال: فقعدا ففكرا فاتفق رأيهما أنه يكفى المؤمن من هذا الأمر أن يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله عليه وأنه مجزي بعمله»[2].

(١) مسلم بن يسار القدوة الفقيه الزاهد روى عن ابن عباس وابن عمر. قال عنه ابن سعد كان ثقة فاضلاً عابداً ورعاً قال في القضاء والقدر: هما واديان عميقان يسلك فيهما الناس لن يدرك غورهما فاعمل عمل رجل تعلم أنه لن ينجيك إلا عملك وتوكل توكل رجل تعلم أنه لا يصيبك إلا ما كتب الله لك مات سنة ١٠٠/ سير أعلام النبلاء ٤/ ٥١٠.

(٢) التمهيد لابن عبدالبر ١٨/ ١٨.

أفعـال العبـاد

١ ـ يقرر القرآن الكريم أن الله عزوجل خالق كل شيء فلا يخرج عن التقدير شيء لا الإنسان ولا أفعاله قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾[1].

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يذكر عقيدته في هذه القضية ويقرر أن أفعال العباد خلق الله عزوجل وهي في نفس الوقت كسب لهم فيقول:

«ونعتقد أن أفعال العباد خلق الله عزوجل وكسب لهم خيرها وشرها حسنها وقبيحها ما كان منها طاعة ومعصية لا على معنى أنه أمر بالمعصية لكن قضى بها وقدرها وجعلها على حسب قصده وأنه قسم الأرزاق وقدَّرها فلا يصدها صاد ولا يمنعها مانع لا زائدها ينقص ولا ناقصها يزيد ولا ناعمها يخشن ولا خشنها ينعم ورزق غد لا يؤكل اليوم وقسم زيد لا ينقل إلى عمرو وأنه تعالى يرزق الحرام كما يرزق الحلال على معنى أنه يجعله غذاءً للأبدان وقواماً للأجسام لا على معنى إباحة الحرام. وكذلك القاتل لم يقطع أجل المقتول المقدر له. بل يموت بأجله وكذلك الغريق ومن هدم عليه الحائط وألقى من شاهق ومن أكله سبع وكذلك هداية المسلمين والمؤمنين وضلالة الكافرين. إليه عزوجل جميع ذلك فعل له وصنعه لا شريك له في ملكه»[2].

---

(١) الزمر: ٦٢.

(٢) الغنية للجيلاني ١/ ٦٤.

وما ذهب إليه الشيخ عبدالقادر الجيلاني هو معتقد أهل السنة والجماعة الذين يقررون أن أفعال العباد كلها من الطاعات والمعاصي داخلة في خلق الله وقضائه وقدره فقد علم الله ما سيخلقه في عباده وعلم ما هم فاعلون وكتب ذلك في اللوح المحفوظ وخلقهم الله كما شاء ومضى فيهم قدره فعملوا على النحو الذي شاءه فيهم وهدى الله من كتب لهم السعادة وأضل من كتب لهم الشقاوة وعلم أهل الجنة فيسَّرهم لعمل أهلها نسأل الله أن يجعلنا منهم، وعلم أهل النار ويسَّرهم لعمل أهلها نعوذ بالله من ذلك وهذا لا يعني أن العبد مجبور على التصرف مسلوب الإرادة فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن العبد فاعل على الحقيقة وأن له مشيئته وقدرته ولكنها غير خارجة عن قدرة الله ومشيئته بل هي تابعة لها. وهذه بعض أقوالهم:

١ـ قال حنبل: سمعت أباعبدالله يقول: أفاعيل العباد مخلوقة وأفاعيل العباد مقضية بقضاء وقدر. قلت: الخير والشر مكتوبان على العباد؟ قال: المعاصي بقدر.

قال: وسمعت عبدالرحمن بن مهدي يقول: المعاصي بقدر. قال أبوعبدالله: والخير والشر بقدر والطاعة والمعصية بقدر وأفاعيل العباد كلها بقدر.

وقال حنبل عن رجل عن عبدالرحمن بن مهدي قال: من قال المعاصي ليست بقدرفقد أعظم على الله الفرية قال أبوعبدالله ما أحسن ما قال عبدالرحمن قال أبوعبدالله: فمن لم يؤمن بالقدر ورده فقد ضاد الله عزوجل في أمره ورد على رسول الله ﷺ ما جاء به وجحد القرآن وما أنزل الله عزوجل»[(١)].

---

(١) كتاب السنة للخلال ٣/ ٥٤٤.

٢ ـ يحرر شيخ الإسلام بن تيمية مذهب أهل السنة والجماعة في أفعال العباد بقوله:

«مذهب أهل السنة والجماعة أن الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه لا رب غيره ولا خالق سواه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير. وبكل شيء عليم. والعبد مأمور بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ. منهي عن معصيته ومعصية رسوله ﷺ. فإن أطاع كان ذلك نعمة وإن عصى كان مستحقاً للذم والعقاب وكان لله عليه الحجة البالغة ولا حجة لأحد على الله تعالى.

وكل ذلك كائن بقضائه وقدره ومشيئته وقدرته. لكن يحب الطاعة ويأمر بها ويثيب أهلها على فعلها ويكرمهم ويبغض المعصية وينهى عنها ويعاقب أهلها ويهينهم وما يصيب العبد من النعم فالله أنعم بها عليه وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه»[1].

وقد استدل أهل السنة والجماعة على ما ذهبوا إليه من أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله عزوجل. بالكتاب والسنة:

أولاً: من الكتاب الكريم.

١ـ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[2] يقول ابن كثير يحتمل أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية فيكون تقدير الكلام خلقكم وعملكم ويحتمل أن تكون بمعنى الذي وتقديره «والله خلقكم والذي تعملون»

(١) فتاوى ابن تيمية ٨/٦٣.

(٢) الصافات: ٩٦.

وكلا القولين متلازم والأول أظهر»[١].

٢ـ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾[٢] قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: يخبر الله تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته»[٣].

ثانياً: من السنة المطهرة:

ما أخرجه البخاري من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يصنع كل صانع وصنعته**»[٤].

ووجه الاستدلال ظاهر في أن أفعال العباد هي من الله خلقاً وتقديراً وهي من العباد كسباً وفعلاً. فالله هو الخالق لهم ولأفعالهم وهم الفاعلون لها. والله أعلم.

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٣.
(٢) الزمر: ٦٢.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٦١.
(٤) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص٢٥.

الفرق التي ضلت في القدر

مسألة القدر من أخطر المسائل العقدية التي حار فيها العقلاء والنظار في القديم والحديث فلم يصلوا إلى اليقين والصواب فيها لأنهم التمسوا الهدى من غير مظانه فتعبوا وأتعبوا وضلوا وأضلوا وأساءوا الظن بربهم.

ولقد وفق الله أهل السنة والجماعة للحق في هذه المسألة وفي جميع المسائل لاتباعهم لكتاب الله عزوجل ولسنة رسوله ﷺ. إذ لا يمكن الوصول إلى الحق في هذه القضية وفي كل قضية إلا عن طريقهما وبالفهم الصحيح الذي فهمه سلف هذه الأمة لهما.

وممن ضل عن طريق الحق في هذه المسألة الجبرية والقدرية وقد أشار الشيخ عبدالقادر الجيلاني إلى ضلالهما وانحرافهما عن منهج الحق فقال:

«وإنما أثبتنا للعباد كسباً لموضع توجه الأمر والنهي والخطاب إليه ثم استحقاق الثواب والعقاب لديه. كما وعد وضمن جلّ وعزّ قال الله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾[1]، وقال عزوجل: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾[2]، وقال جل وعلا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤﴾[3]، وقال تبارك وتعالى: ﴿هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ

---

(١) السجدة ١٧ والأحقاف ١٤ والواقعة ٢٤.

(٢) الرعد ٢٤.

(٣) المدثر: ٤٢ ـ ٤٤.

(٤) الطور: ١٤.

يَدَاكَ ﴾[١] وغير ذلك من الآيات فعلق سبحانه الجزاء على أفعالهم فأثبت لهم كسباً خلاف ما قالت الجهمية[٢] (الجبرية) من أنه لا كسب للعباد وأنهم كالباب يرد ويفتح والشجرة تحرك وتهتز وهم الجاحدون للحق الرادون للكتاب والسنة والدليل على أن ذلك خلق الله عز وجل وكسب للعباد خلافاً للقدرية في قولهم: إن جميع ذلك خلق للعباد دون الله عزوجل. تباً لهم وهم مجوس هذه الأمة جعلوا لله شركاء ونسبوه إلى العجز وأن يجري في ملكه ما لا يدخل في قدرته ولا إرادته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»[٣].

ويقول في موضع آخر وهو يوصي بعض طلابه: «اقطع همك من الناس من سائر الوجوه والأسباب حتى إن كان لك نسب ذو مال لا تتمن موته لترث ماله فاخرج من الخلق جداً واجعلهم كالباب يرد ويفتح وشجرة توجد فيها ثمرة تارة وتختل أخرى. وكل ذلك بفعل فاعل وتدبير مدبر وهو الله جل وعلا لتكون موحداً للرب ولا تنس مع ذلك كسبهم لتخلص من مذهب الجبرية واعتقد أن الأفعال لا تتم بهم دون الله لا تعبدهم وتنس الله ولا تقل فعلهم دون الله فتكفر فتكون قدرياً ولكن قل هي لله خلقاً وللعباد كسباً كما جاءت به الآثار لبيان موضع الجزاء من الثواب والعقاب»[٤].

---

(١) الحج: ١٠

(٢) يطلق على الجبرية الجهمية أيضاً لأن عقيدة الجهمية في أفعال العباد أنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله وحده وأنه هو الفاعل وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال: تحركت الشجرة ودار الفلك وزالت الشمس وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله سبحانه) انظر: مقالات الإسلاميين ٢٧٩.

(٣) الغنية للجيلاني ١/ ٦٤.

(٤) فتوح الغيب للجيلاني ص٢٢، المقالة العاشرة.

والشيخ عبدالقادر الجيلاني في كلامه هذا يقرر عقيدة أهل السنة والجماعة ويرد عقيدة الجبرية والقدرية التي تخالف الكتاب والسنة ومذهب علماء الأمة.

وفيما يلي عرض موجز لعقيدة كل من طائفتي الجبرية والقدرية بإيجاز مع إبطال الشبه التي عرضت لهم:

الطائفة الأولى: الجبرية:

وهم الذين غلوا في إثبات القدر حتى سلبوا العبد قدرته وأنكروا أن يكون للعبد فعل وأن كل ما خلقه الله فقد رضيه وأحبه وأن العباد ليسوا بحاجة إلى العمل والأخذ بالأسباب فما قدر عليهم سوف يأتيهم وزعموا أن العباد مجبورون على أفعالهم وأن الإنسان لا قدرة له تؤثر في الفعل بل هو كالريشة في مهب الريح. ولذا تركوا العمل احتجاجاً بالقدر وإذا عملوا أعمالاً مخالفة للشرع تنصلوا عن المسئولية فيها واحتجوا بالقدر على وقوعها(١).

وترتب على هذه العقيدة الفاسدة تعطيل قدرات الإنسان نحو الإصلاح واستسلامه لشهواته وغرائزه والوقوع في الذنوب والمعاصي باعتبار أن ذلك مما قدَّره الله عليهم. وأحبه ورضيه وأن كل ما قدره على العبد سيصيبه فلا داعي لمجاهدة النفس لأن ذلك لا يرد القدر.

وقد أدَّى بهم ذلك إلى ترك الأعمال الصالحة والأخذ بالأسباب المنجية من عذاب الله من صلاة وصيام ودعاء لأنه لا فائدة من ذلك فالذي قدره الله كائن لا ينفع معه دعاء ولا عمل. فتركوا الأمر بالمعروف ولم يهتموا بإقامة الحدود لأن الجرائم قدر لابد منها

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي ٢١١.

ورضوا بظلم الظالمين وإفساد المفسدين لأن ما يفعله هؤلاء قد قدره الله وأراده.

وقد تصدى علماء أهل السنة والجماعة لمزاعم هؤلاء الضالين بالإبطال والرد لما ذهبوا إليه وبينوا أن الإيمان بالقدر لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية وقدرة على الإتيان بها دلَّ على ذلك الشرع والعقل.

فمن الشرع آيات وأحاديث كثيرة وردت مثبتة لقدرة الله عزوجل وقدرة الإنسان.

أولاً: من القرآن الكريم:

١ ـ قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٣٩﴾﴾[١].

٢ ـ قال تعالى: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾[٢].

ووجه الاستدلال في الآيتين وغيرهما في القرآن كثير أن الله أثبت للعباد مشيئة في اتخاذ السبيل الموصل إلى مرضاته وأثبت لهم مشيئة في إتيان زوجاتهم في موضع الحرث كيف شاءوا.

ثانياً: من السنة المطهرة:

قوله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار»، فقالوا يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» إلخ الحديث[٣].

---

(١) النبأ: ٣٩.

(٢) البقرة: ٢٢٣.

(٣) رواه البخاري ح٤٩٤٩ ومسلم ٢٦٤٧.

ثالثاً: من جهة العقل:

فإن كل إنسان يعلم أن له مشيئة وقدره يفعل بهما مايريد ويترك ما يريد وأنه يفرق بين ما وقع بإرادته ويتحمل مسئوليته وبين ما يقع قسراً عليه ولا يشعر بالمسئولية تجاهه كالاحتلام في نهار رمضان الذي لا تأثير له على الصيام لوقوعه بدون اختيار من العبد بينما لو تعمد الإنسان الاستمناء حتى أمنى لأفسد صومه لوقوع ذلك بإرادته واختياره[1].

ولكن هذه المشيئة والقدرة داخلة ضمن مشيئة الله وقدرته يقول عزوجل: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾[2]، فالآية أثبتت للعبد مشيئة داخلة ضمن مشيئة الرب عزوجل.

قال الإمام أحمد وقد سئل عن رجل يقول إن الله جبر العباد على أفعالهم. فقال: هكذا لا نقول وأنكر هذا وقال: يضل من يشاء ويهدي من يشاء وجاءه رجل فقال إن فلاناً قال إن الله جبر العباد على الطاعة قال: بئس ما قاله»[3].

وقد هتك الله أستار هؤلاء بما سلطه عليهم من شهب الحق التي قذفهم بها العلامة ابن القيم في كتابه شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل حيث يقول عن الجبرية في مقدمة ذلك الكتاب.

«ثم نبغت طائفة أخرى من القدرية ـ يعني الجبرية ـ فنفت فعل

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة ٣/ ٣٩.

(٢) التكوير: ٢٨ ـ ٢٩.

(٣) السنة للخلال ٣/ ٥٥٠.

العبد وقدرته واختياره وزعمت أن حركته الاختيارية ـ ولا اختيار ـ كحركة الأشجار عند هبوب الرياح وكحركات الأمواج وأنه على الطاعة والمعصية مجبور وأنه غير ميسر لما خلق له. بل هو عليه مقسور ومجبور ثم تلاهم أتباعهم على آثارهم مقتدين ولمنهاجهم مقتفين فقرروا هذا المذهب وانتموا إليه وحققوه وزادوا عليه. أن تكاليف الرب تعالى لعباده كلها تكليف بما لا يطاق وأنها في الحقيقة كتكليف المقعد أن يرقى إلى السبع الطباق فالتكليف بالإيمان وشرائعه تكليف بما ليس من فعل العبد ولا هو له بمقدور وإنما هو تكليف بفعل من هو متفرد بالخلق وهو على كل شيء قدير فكلف عباده بأفعال وليسوا عليها قادرين، ثم عاقبهم عليها وليسوا في الحقيقة لها فاعلين. إلى أن قال رحمه الله:

وزعمت هذه الفرقة أنهم بذلك للسنة ناصرون وللقدر مثبتون ولأقوال أهل البدع مبطلون هذا وقد طووا بساط التكليف وطففوا في الميزان غاية التطفيف وحمَّلوا ذنوبهم على الأقدار وبرأوا أنفسهم في الحقيقة من فعل الذنوب والأوزار وقالوا إنها في الحقيقة فعل الخلاق العليم. وإذا سمع المنزه لربه هذا قال سبحانك هذا بهتان عظيم فالشر ليس إليك والخير كله في يديك.

ولقد ظنت هذه الطائفة بالله أسوأ الظن ونسبته إلى أقبح الظلم وقالوا إن أوامر الرب ونواهيه كتكليف العبد أن يرقى فوق السموات وكتكليف الميت إحياء الأموات والله يعذب عباده أشد العذاب على فعل ما لا يقدرون على تركه وعلى ترك ما لا يقدرون على فعله بل يعاقبهم على نفس فعله الذي هو لهم غير مقدور وليس أحد ميسر له. بل هو عليه مقهور ونرى العارف منهم ينشد مترنماً ومن ربه

متشكياً ومتظلماً.

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له: إياك إياك أن تبتل بالماء.

وليس عند القوم في نفس الأمر سبب ولا غاية ولا حكمة ولا قوة في الأجسام ولا طبيعة ولا غريزة فليس في الماء قوة التبريد ولا في النار قوة التسخين ولا في الأغذية قوة الغذاء ولا في الأدوية قوة الدواء. ولا في العين قوة الإبصار، ولا في الأذن قوة السماع، ولا في الأنف قوة الشم، ولا في الحيوان قوة فاعله ولا جاذبة ولا ممسكة ولا دافعة والرب تعالى لم يفعل شيئاً بشيء ولا شيئاً لشيء فليس في أفعاله باء تسبيب ولا لام تعليل وما ورد من ذلك فمحمول على باء المصاحبة ولام العاقبة وزادوا على ذلك أن الأفعال لا تنقسم في نفسها إلى حسن وقبيح ولا فرق في نفس الأمر بين الصدق الكذب والبر والفجور والعدل والظلم والسجود للرحمن والسجود للشيطان والإحسان إلى الخلق والإساءة إليهم. ومسبة الخالق والثناء عليه. وإنما نعلم الحسن من ذلك من القبيح بمجرد الأمر والنهي. ولذلك يجوز النهي عن كل ما أمر به والأمر بكل ما نهى عنه ولو فعل ذلك لكان هذا قبيحاً وهذا حسناً»[1].

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم ص٥.

الطائفة الثانية: القدريـة:

هؤلاء هم نفاة القدر الذين يزعمون أن الله لا يعلم الأشياء قبل حصولها ولا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها وإذا أمر عباده ونهاهم فهو لا يعلم من يطيعه منهم ومن يعصيه فإذا أطاعوه أو عصوه علم بعد ذلك السعداء منهم والأشقياء. وأن الإنسان هو الذي يوجد فعل نفسه من غير إرادة الله أو علمه به[١]. وقد نشأ هذا القول الباطل في أواخر عهد الصحابة وأول من قال به معبد الجهني[٢] ويسمى هؤلاء بالقدرية الأولى، ثم نقله عنه رؤوس الاعتزال كواصل بن عطاء[٣] وعمرو بن عبيد[٤] الذين أقروا بعلم الله عزوجل. ولكنهم أنكروا خلقه لأفعال العباد وزعموا أن العباد هم الخالقون لأفعالهم. وتبنّوا هذه البدعة حتى عرفوا عند أهل السنة بالقدرية[٥] وهم المعتزلة.

وقد أنكر الصحابة رضوان الله عليهم هذه الضلالة ونهو الناس

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٤٣ والفرق بين الفرق للبغدادي ١٨.

(٢) معبد الجهني أول من تكلم في القدر قال أبوحاتم قدم المدينة فأفسد فيها ناساً وقال الدارقطني حديثه صالح ومذهبه رديء وقال الأوزاعي أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر أخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد وقد اختلفوا في موته فقيل صلبه عبدالملك بن مروان وقيل قتله الحجاج بعد أن عذبه سنة ٨٠ هجرية/ تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٢٥.

(٣) واصل بن عطاء البصري المخزومي ولد سنة ٨٠ وكان يتجنب النطق بالراء لأنه يلثغ بها وكان رجلاً فصيحاً بليغاً كان في مجلس الحسن البصري فلما قال بأن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر طرده الحسن البصري وانضم إليه عمرو بن عبيد واعتزلا مجلسه فسموا المعتزلة مات سنة ١٣١هـ/ سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٦٤.

(٤) عمرو بن عبيد القدري كبير المعتزلة وأولهم. قال النسائي ليس بثقة كان زاهداً قال فيه المنصور كلكم يمشي رويد كلكم يطلب صيد غير عمرو بن عبيد قال الذهبي اغتر بزهده وأغفل بدعته مات سنة ١٤٤/ سير أعلام النبلاء ٦/ ١٠٤.

(٥) انظر: المقالات لأبي الحسن ٢/ ٢٢١ وشرح الأصول الخمسة ٢٩٩.

عن استماع هذه البدعة المنكرة استجابة لخبر رسول الله ﷺ الدال على نبوته والذي يرويه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: لكل أمة مجوس ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم[(١)].

كما نص الأئمة على كفر هذه الطائفة التي لم تقر بعلم الله عزوجل وممن نص على كفرهم الإمام مالك والشافعي وأحمد[(٢)].

والقدرية إنما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه بقصد تنزيه الله وتقديسه فزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر وحجتهم أن ذلك يؤدي إلى الظلم إذ كيف يشاء الله الكفر من الكافر ثم يعذبه عليه.

ولكنهم كما يقول الطحاوي كالمستجير من الرمضاء بالنار لأنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه ويلزمهم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى فإن الله قد شاء الإيمان منه على قولهم. والكافر شاء الكفر فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى وهذا من أقبح الاعتقاد وهو قول لا دليل عليه بل هو مخالف للدليل[(٣)].

والحقيقة أن مشيئة الله الكونية القدرية ليست ظلماً كما يدعي

---

(١) أخرجه أبوداود في السنن باب القدر ح٤٦٩١ والحاكم في المستدرك ١/ ٨٥ عن أبي حازم عن ابن عمر وهو منقطع لأن أباحازم سلمه بن دينار لم يسمع من ابن عمر. ورواه اللالكائي في شرح أصول أهل السنة والجماعة برقم ١١٥٠ من طريق زكريا بن منظور وهو ضعيف وقد قال الألباني عن الحديث في صحيح الجامع الصغير بأنه حسن انظر صحيح الجامع للسيوطي رقم ٥١٦٣.

(٢) انظر: فتاوى ابن تيمية ٨/ ٢٨٨.

(٣) شرح الطحاوية بتحقيق التركي والأرناؤوط ١/ ٣٢١.

القدرية. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فله الحجة البالغة والعدل المطلق والحكمة في كل شيء ففي صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي[١] قال: قال لي عمران بن الحصين[٢] رضي الله عنه: «أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قد قضى عليهم من قدر ما سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم. فقلت: بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم فقال: أفلا يكون ظلماً ففزعت فزعاً شديداً وقلت كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون فقال لي يرحمك الله إني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يارسول الله: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق. أو فيما يستقبلون به نبيهم وثبتت الحجة عليهم فقال: لا بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك من كتاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[٣][٤].

ومن تصدى لهذه الفرقة الضالة وفند ضلالاتها شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله حيث يصفهم بأنهم مجوس هذه الأمة كما وصفهم الشيخ عبدالقادر الجيلاني فيما ذكرنا سابقاً. قال ابن تيمية:

---

(١) أبوالأسود الدؤلي ويقال الديلي البصري اسمه ظالم بن عمرو بن سفيان ثقة فاضل مخضرم مات سنة ٦٩. انظر: تقريب التهذيب ٦١٩.

(٢) عمران بن الحصين صاحب رسول الله ﷺ سنة ٧ للهجرة. بعثه عمر رضي الله عنه إلى أهل البصرة يفقههم ويعلمهم أمور دينهم. غزا مع النبي ﷺ غير مرة. وكان ممن اعتزل الفتنة مات رضي الله عنه سنة ٥٢/ سير أعلام النبلاء ٣/٥٠٨.

(٣) الشمس: ٧ ـ ٨.

(٤) رواه مسلم ح ٢٦٥٠.

وسلف الأمة وأئمتها متفقون أيضاً على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به منهيون عما نهاهم الله عنه ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة ومتفقون أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه ولا محرم فعله بل لله الحجة البالغة على عباده ومن احتج بالقدر على ترك مأمور أو فعل محذور أو دفع ما جاءت به النصوص في الوعد والوعيد فهو أعظم ضلالاً وافتراءً على الله ومخالفة لدين الله من أولئك القدرية فإن أولئك مشبهون بالمجوس وقد جاءت الآثار فيهم أنهم مجوس هذه الأمة كما روى ذلك عن ابن عمر وغيره من السلف»[1].

وبتأمل أقوال كل طائفة يتضح أن كلاً من الجبرية والقدرية قد أصابت في جانب وأخطأت في الجانب الآخر.

فالجبرية أصابت في جعلها أفعال العباد مخلوقة لله ولكنها أخطأت في سلب العبد قدرته على فعل أفعاله.

والقدرية أصابت في تحميل العبد مسئولية فعله ولكنها أخطأت في سلب الرب عزوجل قدرته الغالبة على خلق كل شيء. ومن ذلك أفعال العباد في حين وفق الله أهل الحق وهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة والمنعم عليهم وفقهم إلى القول الحق المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فأثبتوا للرب خلقه وفعله وأثبتوا أيضاً للعبد فعله ومسئوليته عن تصرفاته.

ولعل من المناسب أن أختم الحديث عن الجبرية والقدرية بكلام نفيس ذكره شارح الطحاوية حول هذا المعنى حيث يقول:

---

(١) فتاوى ابن تيمية ٨/ ٤٥٢.

«وقال أهل الحق أفعال العباد بها صاروا طائعين وعصاة وهي مخلوقة لله تعالى والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه فالجبرية غلو في إثبات القدر فنفوا صنع العبد أصلاً كما غلت المشبهة في إثبات الصفات فشبهوا[1] والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة بل أردأ من المجوس من حيث أن المجوس أثبتوا خَالِقَين وهؤلاء أثبتوا خالِقين.

وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فكل دليل صحيح. يقيمه الجبري فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء وأنه على كل شيء قدير. وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار.

وكل دليل يقيمه القدري فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة وأنه مريد له مختار له حقيقة. وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق ولايدل على أنه غير مقدور لله تعالى أو أنه واقع بغير مشيئته وقدرته.

فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى

---

(١) التشبيه هو التسوية بين الخالق والمخلوق وهو مذموم لأنه معارض لقول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى: ١١، وأول من قال بالتشبه الروافض الغلاة ويسمون البيانية الذين قالوا: أن معبودهم على صورة إنسان في أعضائه وأنه يفنى كله إلا وجهه. (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً). انظر الفرق بين الفرق ص٢١٤، والملل والنحل ١/١٠٦.

فإنما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم وهذا هو الواقع في نفس الأمر فإن أدلة الحق لا تتعارض والحق يصدق بعضه بعضاً»(١).

(١) شرح الطحاوية بتحقيق التركي والأرناؤوط ٢/ ٦٤٠.

منازعة الأقدار

ينسب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني قوله:

«كثير من الرجال إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا وأنا انفتحت لي فيه روزنة[١] فنازعت[٢] أقدار الحق بالحق للحق والولي من يكون منازعاً للقدر لا من يكون موافقاً له»[٣].

وقد بحثت عن هذا الكلام فيما بين يدي من مؤلفات الشيخ عبدالقادر التي سبق أن أوضحت صحة نسبتها إليه في الباب الأول. فلم أعثر عليه، ولعله مما قاله مشافهة ثم نقل عنه دون أن يدوَّن في شيء من كتبه. وقد أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية عن مقصود الشيخ عبدالقادر الجيلاني فقال:

«جميع الحوادث كائنة بقضاء الله وقدره، وقد أمرنا الله سبحانه أن نزيل الشر بالخير بحسب الإمكان ونزيل الكفر بالإيمان والبدعة بالسنة والمعصية بالطاعة، من أنفسنا ومن عندنا، فكل من كفر أو فسق أو عصى فعليه أن يتوب. وإن كان ذلك بقدر الله. وعليه أن يأمر غيره بالمعروف وينهاه عن المنكر بحسب الإمكان، ويجاهد في سبيل الله» وإن كان ما يعمله من المنكر والكفر والفسوق والعصيان

---

(١) الروزنة: الكوة والنافذة/ لسان العرب لابن منظور ١٣/ ١٧٩.

(٢) المنازعة المعاطاة قال تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝٢٣﴾ أي يتعاطون والمنازعة المصافحة. والمنازعة المجاذبة في الأعيان والمعاني/ لسان العرب لابن منظور ٨/ ٣٥١.

(٣) فتاوى شيخ الإسلام لابن تيمية ٢/ ٤٥٨، ٨/ ٣٠٦، ٨/ ٥٤٧، ١٠/ ١٥٨.

بقدر الله، ليس للإنسان أن يدع السعي فيما ينفعه الله به متكلاً على القدر، بل يفعل ما أمر الله ورسوله كما روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[١]. فأمر النبي ﷺ أن يحرص على ما ينفعه والذي ينفعه يحتاج إلى منازعة شياطين الإنس والجن ودفع ما قدر من الشر بما قدره الله من الخير، وعليه أن يستعين بالله فإنه لا حول ولا قوة إلاَّ به.

وهذا حقيقة قولك: إياك نعبد والذي قبله حقيقة وإياك نستعين، فعليه أن يعبد الله بفعل المأمور وترك المحذور، وأن يكون مستعيناً بالله على ذلك، وفي عبادة الله وطاعته فيما أمر إزالة ما قدر من الشر بما قدر من الخير، ودفع ما يريده الشيطان ويسعى فيه من الشر قبل أن يصل بما يدفعه الله به من الخير».

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «فالذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي أمر الله به ورسوله»[٢].

ويقول في موضع آخر:

«والشيخ عبدالقادر ـ رضي الله عنه ـ كان يعظم الأمر والنهي ويوصي باتباع ذلك، وينهى عن الاحتجاج بالقدر وكذلك شيخه حماد الدباس، وذلك لما رأوه في كثير من السالكين من الوقوف عند القدر المعارض للأمر والنهي، والعبد مأمور بأن يجاهد في سبيل الله

---

(١) رواه مسلم ح ٢٦٦٤.

(٢) فتاوى ابن تيمية ٨/ ٥٤٧.

ويدفع ما قدر من المعاصي بما يقدر من الطاعات فهو منازع للمقدور المحظور بالمقدور المأمور لله تعالى وهذا هو دين الله الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين»[١].

(١) فتاوى ابن تيمية ١/٣٠٦.

الفصل الثالث

النبـــوات

وتحته أربعة مباحث:

المبحـــث الأول: مفهوم النبوة والرسالة والفرق بينهما

المبحـــث الثاني: الإيمان بنبوة محمد ﷺ

المبحـــث الثالث: عموم بعثته ﷺ إلى الثقلين

المبحـــث الرابع: معجزاته ودلائل نبوته ﷺ

المبحث الأول
مفهوم النبوة والرسالة والفرق بينهما

تعريف النبي لغة:

للنبوة عند أهل اللغة ثلاثة استعمالات:

الأول: حينما تكون مشتقة من النبأ فتكون بمعنى الإخبار لأن النبأ معناه الخبر ومنه قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾[1].

الثاني: حينما تشتق من النباوة أي الارتفاع فتكون بمعنى العلو والرفعة والظهور.

الثالث: عند اشتقاقها من النبيء بالهمز أي الطريق الواضح فتكون بمعنى الطريق الموصل إلى مرضاة الله عزوجل[2].

وكل هذه المعاني موافقة للمعنى الشرعي للنبوة فهي إخبار عن الله عزوجل. بما أوحى إليه من ربه وهي أيضاً رفعة لصاحبها لما فيها من التكريم والتشريف فإن مقام النبوة مقام رفيع لا يكون إلا لمن يقع عليه الاختيار من الله عزوجل بحمل أعباء الرسالة وإبلاغها للناس يقول عزوجل: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[3] ويقول سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[4] كما أنها الطريق الواضح الجلي الذي لا يمكن الوصول إلى مراضي الله واجتناب مساخطه والفوز

---

(١) النبأ: ١ ـ ٢.

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور ١/ ١٦٢ مادة نبأ.

(٣) الأنعام: ١٢٤.

(٤) القصص: ٦٨.

بجنته والنجاة من ناره إلا عن طريقه. إلا أن أخص تلك المعاني بالدلالة هو الاستعمال الأول. لأن وظيفة النبي الرئيسية الإخبار عن الله وإبلاغ الأمة ما أوحي إليه من ربه.

تعريف الرسول لغة:

الرسول مأخوذ من الإرسال. أي البعث والتوجيه والرسول بمعنى الرسالة وهو الذي يتابع أخبار الذي بعثه[١].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾[٢] وعلى ذلك فالرسل إنما سمو بذلك لأن الله أرسلهم وبعثهم بالرسالات إلى أممهم وكلّفهم بحملها وتبليغها قال عزوجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾[٣].

الفرق بين النبي والرسول:

شاع عند العلماء أن النبي هو من أوحي إليه بشرع وإن لم يؤمر بتبليغه فإن أمر بتبليغه فهو رسول. فبينهما عموم وخصوص مطلق فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول[٤].

إلا أن هذا التعريف لا يستقيم مع ما دلت عليه الآية الكريمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور ١١/ ٢٨٤ مادة رسل.

(٢) النمل: ٣٥.

(٣) المؤمنون: ٤٤.

(٤) انظر لوامع الأنوار للسفاريني ١/ ٤٩.

أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[١] فإنها قد صرحت بأن كلاً منهما مرسل وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى تعريف أفضل وتفريق أكمل فقال:

والنبي هو الذي ينبؤه الله وهو ينبيء بما أنبأه الله به فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول. إلى أن قال رحمه الله: فقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾[٢] دليل على أن النبي مرسل ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنه حق[٣].

وإلى هذا المعنى ذهب أيضاً الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[٤]

---

(١) الحج: ٥٢.

(٢) الحج: ٥٢.

(٣) النبوات لابن تيمية ٢٥٥.

(٤) محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ولد في موريتانيا عام ١٣٢٥هـ، وحفظ القرآن وبعض المختصرات ثم تبحر في سائر الفنون خصوصاً في الفقه على المذهب المالكي. وفي أصول الفقه والتفسير والمنطق والصرف والبلاغة وقد مارس التدريس والإفتاء والقضاء فترة من الزمن في بلاده حتى تيسرت له فرصة أداء فريضة الحج فعزم على الاستقرار في المملكة العربية السعودية وقد أسندت إليه بعض المهام التعليمية منها التدريس في المسجد النبوي الشريف ثم التدريس في كليتي الشريعة واللغة بالرياض لمدة عشر سنوات ثم التدريس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. وأستاذاً زائراً بمعهد القضاء العالي بالرياض إلى جانب اختياره عضواً بهيئة كبار العلماء ورابطة العالم الإسلامي. توفي رحمه الله بعد أداء فريضة الحج عام ١٣٩٣هـ تاركاً ثروة علمية عظيمة منها أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ودفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب وغيرها) ترجمة تلميذه الشيخ عطية محمد سالم مع مقدمة أضواء البيان.

في كتابه أضواء البيان حيث يقول: «النبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة. التي تثبت بها نبوته، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول هو من لم ينزل عليه كتاب وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة»[١].

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٥/ ٧٣٥.

المبحث الثاني
الإيمان بنبوة ورسالة محمد ﷺ

الإيمان بنبوة محمد ﷺ، وأن الله أرسله إلى الناس بشيراً ونذيراً أصل عظيم من أصول الإيمان إذ لا يتم إيمان العبد حتى يؤمن بأن محمداً رسول رب العالمين.

والشهادة برسالته أحد فرعي الركن الأول من أركان الإسلام المذكورة في الحديث المتفق على صحته من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان»[١].

فيجب على كل مسلم الإيمان الجازم بأن محمداً ﷺ سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين وخاتم النبيين وأنه وحده الذي تجب طاعته والاقتداء به حتى ينال العبد محبة الله استجابة لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[٢] وأن يؤمن بأن طاعته طاعة لله ومعصيته معصية لله عزوجل عملاً بقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾[٣].

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يذكر أن هذا هو ما تعتقده أمة

---

(١) رواه البخاري ح٨ ومسلم ح١٦.
(٢) آل عمران: ٣١.
(٣) النساء: ٨٠.

الإسلام فيقول:

«ويعتقد أهل الإسلام قاطبة أن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم رسول الله وسيد المرسلين وخاتم النبيين عليهم السلام»(١).

والإيمان بالرسول ﷺ معلوم من الدين بالضرورة وتقريره مستفيض عند عموم الأمة فضلاً عن علمائها وأئمتها لأنه المبلغ عن الله والمخبر للناس عن سر خلقهم وحكمة إيجادهم وهي عبادة الله وحده لا شريك له. وهناك تلازم دائم بين الإيمان بالله والإيمان بالرسول ﷺ. يوضحه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله:

«لقد بيَّن القرآن إن الرسل أمروا بعبادة الله وحده لا شريك له. ونهوا عن عبادة شيء من المخلوقات سواه. وأن أهل السعادة هم أهل التوحيد وأن المشركين هم أهل الشقاوة. وبيَّن أن الذين لم يؤمنوا بالرسل مشركون فعلم أن التوحيد والإيمان بالرسل متلازمان وكذلك الإيمان باليوم الآخر فالثلاثة متلازمة. ولهذا يجمع بينهما في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾(٢)(٣).

كما أن الإيمان برسالته صلوات الله وسلامه عليه توجب طاعته واتباعه فقد أمر الله بطاعته في كثير من الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) الغنية للجيلاني ١/ ٧٤.

(٢) الأنعام: ١٥٠.

(٣) الفتاوى لابن تيمية ١٨/ ٥٥.

(٤) النساء: ٦٤.

لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[(١)]. إذ لا سعادة للعبد في الدنيا ولا نجاة له في الآخرة إلا باتباع هذا الرسول الكريم. يقول عزوجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾[(٢)].

ومن السنة قوله صلوات الله وسلامه عليه: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا يارسول الله ومن يأبى قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[(٣)].

وقوله ﷺ: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال ياقوم إني رأيت الجيش بعيني وأني أنا والله النذير العريان[(٤)] فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبته طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»[(٥)].

وعن الآثار العظيمة المترتبة على الإيمان بالرسول ﷺ ومتابعته

---

(١) آل عمران: ٣٢.
(٢) النساء: ١٣ ـ ١٤.
(٣) رواه البخاري ح٧٢٨٠.
(٤) قال النووي قوله ﷺ: «وأنا النذير العريان» قال العلماء أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً منهم ليخبرهم بما دهمهم. وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم وهو طليعتهم ورقيبهم قالوا: وإنما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظراً فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو وقيل معناه أنا النذير الذي أدركني جيش العدو فأخذ ثيابي فأنا أنذركم عرياناً) شرح صحيح مسلم للنووي ٨/ ٥٣ الحديث رقم ٢٢٨٣.
(٥) رواه البخاري ٧٢٨٣ ومسلم ح٢٢٨٣.

يتحدث بن القيم رحمه الله فيقول:

«والمقصود أنه بحسب متابعة الرسول تكون العزة والكفاية والنصرة كما أنه بحسب متابعته تكون الهداية والفلاح والنجاة فالله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته وجعل شقاوة الدارين في مخالفته. فلاتباعه الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش في الدنيا والآخرة. ولمخالفيه الذلة والصغار والخوف والضلال والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة.

وقد أقسم ﷺ بأنه: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[(١)] وأقسم الله سبحانه بأنه لا يؤمن من لا يحكمه في كل ما تنازع فيه هو وغيره ثم يرضى بحكمه ولا يجد في نفسه حرجاً مما حكم به ثم يسلم له تسليماً وينقاد له انقياداً[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[(٣)] فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره وأمر رسوله فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره ﷺ بل إذا أمر فأمره حتم»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري ح١٥ ومسلم ح٤٤.

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء: ٦٥.

(٣) الأحزاب: ٣٦.

(٤) مقدمة زاد المعاد لابن القيم ١/٣٧.

المبحث الثالث
عموم بعثته ﷺ إلى الثقلين

لقد بعث الله رسوله ﷺ بعد أن انحرف الناس عن تعاليم الرسالات السماوية السابقة وانعدم أو كاد ينعدم أثرها في إصلاح الحياة الإنسانية فجاءت دعوته الخالدة تجديداً لدعوة التوحيد التي دعا إليها جميع الرسل وقد أوضح صلوات الله وسلامه عليه أن رسالته إكمال للرسالات السماوية التي كانت قبله ففي الحديث الصحيح عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة قال رسول الله ﷺ: فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء»**[1].

ولئن كانت رسالة الإسلام قد امتدت بآفاقها إلى الماضي فاعترفت برسالات الأنبياء السابقة وأوجبت على المسلم الإيمان بهم فقد اختصت أيضاً بعمومها وشمولها لجميع الجن والإنس وقد أوضح الشيخ عبدالقادر الجيلاني ذلك بقوله:

«وأنه مبعوث إلى الناس كافة وإلى الجن عامة»[2].

ولا خلاف بين أهل الإسلام في أنه ﷺ قد بعث بالحق والهدى والنور إلى الثقلين الجن والإنس، وهذه بعض أقوال علمائهم.

١ ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «يجب على الإنسان أن

---

(١) رواه مسلم ح٢٢٨٧.

(٢) الغنية للجيلاني ١/ ٧٤.

يعلم أن الله عزوجل أرسل محمداً ﷺ إلى جميع الثقلين الإنس والجن وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته وأن يوجبوا ما أوجبه الله ورسوله ويحبوا ما أحبه الله ورسوله. ويكرهوا ما كرهه الله ورسوله.

وأن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمد ﷺ من الإنس والجن فمن لم يؤمن به استحق عقاب الله تعالى كما يستحقه أمثاله من الكافرين الذين بعث إليهم الرسول وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين: أهل السنة والجماعة وغيرهم»[١].

ويقول شارح الطحاوية: «وكونه ﷺ مبعوثاً إلى الناس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة»[٢].

وقد استدل علماء أهل السنة والجماعة بالكتاب الكريم والسنة المطهرة.

أولاً: من القرآن الكريم:

١ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٣] يقول ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: قل يامحمد ياأيها الناس، وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي «إني رسول الله إليكم جميعاً وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس

(١) فتاوى ابن تيمية ١٩/ ٩.
(٢) شرح الطحاوية ١/ ١٧٠.
(٣) الأعراف: ١٥٨.

كافة»[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[٢] يقول ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: «يقول تعالى ذكره: وما أرسلناك يامحمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة ولكنا أرسلناك كافة للناس أجمعين العرب منهم والعجم والأحمر والأسود بشيراً من أطاعك ونذيراً من كذبك»[٣].

ثانياً: من السنة:

ما ثبت في الصحيحين من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة»**[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٥٤.

(٢) سبأ: ٢٨.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير ١٢/ ٩٦.

(٤) رواه البخاري ح٣٣٥ ومسلم ح٥٢١.

المبحث الرابع
معجزاته ودلائل نبوته ﷺ[(١)]

المعجزة اسم فاعل مأخوذة من العجز المقابل للقدرة[(٢)] وهي أمر خارق للعادة داعٍ إلى الخير والسعادة مقرون بدعوى النبوة قصد به إظهار صدق من ادّعى إنه رسول من الله[(٣)].

ويعرفها بعض أهل العلم بأنها ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدي ابتداءً بحيث لا يقدر أحد على مثلها ولا على ما يقاربها[(٤)].

ولقد أقام الله الحجة على الخلق بما بثه في أنفسهم وفي الآفاق

---

(١) لشيخ الإسلام ابن تيمية تحفظ على إطلاق لفظ المعجزة على ما يؤيد الله به أنبيائه ورسله من البراهين الدالة على نبوتهم حيث يقول: (والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسميها من يسميها من النظار معجزات وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة ونحو ذلك وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب والسنة وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان إلى أن قال رحمه الله: وأما لفظ المعجزة فإنما يدل على أنه أعجز غيره وهذا اللفظ لا يدل على كون ذلك آية ودليلاً إذا فسر المراد به وذكر شرائطه ولذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمي معجزاً إلا ما كان للأنبياء فقط وما كان للأولياء إن أثبت لهم خرق عادة سماها كرامة والسلف كأحمد وغيره كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً ويقولون لخوارق الأولياء أنها معجزات إذا لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي ﷺ فإن هذا يجب اختصاصه/ التفسير الكبير لابن تيمية ٢/ ١٤٤.

(٢) لوامع الأنوار للسفاريني ٢/ ٢٨٩.

(٣) التعريفات للجرجاني ٢٨٢.

(٤) لوامع الأنوار للسفاريني ٢/ ٢٩٠.

حولهم من الآيات الدالة عليه وبما فطرهم عليه وغرز في طباعهم من ضرورة الإيمان به وأيضاً بما منحهم من العقول القادرة على النظر والتأمل إلا أنه سبحانه رحمة بعبادة وقطعاً لحجة الناس اقتضت حكمته أن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين يذكرون الناس ويستنقذون فطرهم من ركام الشهوات وطغيان النزوات.

وهؤلاء الرسل وهم يخبرون عن أنفسهم بأنهم رسل من عند الله ويطلبون من الناس فعل ما أمر الله وترك ما حرمه مما تدعو إليه الأنفس والأهواء والشهوات، يحتاجون إلى أدلة وبراهين تبين للناس صدقهم. ولذا أيّد الله رسله بالمعجزات الدالة على صدقهم. يقول عزوجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾[١].

ورسولنا صلوات الله وسلامه عليه باعتباره خاتم الأنبياء وسيد المرسلين فقد أمدَّه الله بالعديد من الآيات والمعجزات والدلائل والبينات ما فاق بها جميع الأنبياء قبله.

والمعجزات التي أجراها الله عزوجل على يدي نبينا محمد ﷺ كثيرة. أورد الشيخ عبدالقادر الجيلاني منها ثمان معجزات هي:

أولاً: معجزة القرآن الكريم:

قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني وهو يذكر ما أعطيه ﷺ من المعجزات منها: **القرآن المنظوم على وجه مخصوص مفارق لجميع أوزان العرب ونظمه وترتيبه وبلاغته وفصاحته على وجه جاوز فصاحة كل فصيح وبلاغة كل بليغ وعجزت العرب أن تأتي ولو بسورة منه مع براعتهم وفصاحتهم على أهل زمانهم فلذلك صار القرآن معجزة له ﷺ كالعصا في حق موسى وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص في**

(١) الحديد: ٢٥.

حق عيسى[١].

ومع أن دلالة المعجزات واضحة وبينة على صدق الرسل إلا أن عناد الكفار وجحودهم كان يحول بينهم وبين الإيمان ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٢] ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾[٣].

ولما كان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة ناسب أن تكون معجزات الرسل السابقين مشاهدة يرونها بأعينهم ثم تنتهي وتبقى خبراً بعد انتهائها كالنار التي جعلها الله برداً وسلاماً على إبراهيم وكالعصا التي ألقاها موسى فتحولت إلى حية تسعى: وكإحياء عيسى الموتى وإبرائه للأعمى والأبرص بإذن الله.

ولما كان رسول الله ﷺ مبعوثاً للعالمين وخاتماً للأنبياء والمرسلين شاء الله أن تكون معجزته نمطاً مخالفاً لمعجزات الرسل قبله. ولقد كان بالإمكان أن ينزل الله معجزة حسية تذهل الناس. يقول الله عزوجل: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾[٤]. لكن الله سبحانه أراد أن تكون معجزة هذا الرسول الكريم رسالة مفتوحة موجهة إلى الأمم كلها لا يحدها زمان ولا يحويها مكان تراها الأجيال ويقول كل مسلم. هذه معجزة نبي الإسلام. في حين لا يستطيع غير المسلم أن يرى الناس معجزة رسوله. وهذا على مر العصور وتكرار الدهور وقد أشار صلوات الله وسلامه عليه إلى اختلاف معجزته عن معجزات الأنبياء قبله. فقال:

---

(١) الغنية للجيلاني ١/ ٧٤.
(٢) النحل: ١٤.
(٣) الأنعام: ٣٣.
(٤) الشعراء: ٤.

«ما من الأنبياء من نبي إلا أعطي من الآيات ما على مثله آمن البشر، وإنما الذي أوتيت وحياً أوحى إليَّ وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1] ولقد تحقق رجاؤه ﷺ وكثر أتباعه على مر القرون حتى بلغوا في العصر الحاضر ربع سكان الأرض. ولو أنهم التزموا بتعاليم هذا النبي الكريم في عقائدهم وعبادتهم وسلوكهم وأدركوا مسئوليتهم في الدعوة إلى الله لهيمنت دعوة الإسلام على جميع أمم الأرض ولدخل الناس في دين الله أفواجاً بعد أن سقطت الشعارات وأفلست المذاهب وعانى الناس من التيه والضياع واللهث وراء السراب الخادع.

والقرآن الكريم هو المعجزة الكبرى التي أشار إليها الشيخ عبدالقادر الجيلاني كما ذكرنا آنفاً والتي تحدى بها الله الثقلين بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[2] تلك المعجزة الباقية ما بقي الليل والنهار. ووجوه الإعجاز في القرآن الكريم لا حصر لها. ولا حدود. يقول ابن تيمية رحمه الله:

«وكون القرآن إنه معجز ليس من جهة فصاحته وبلاغته فقط. أو نظمه وأسلوبه فقط ولا من جهة إخباره بالغيب فقط. ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط. ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضته فقط بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة من جهة اللفظ ومن جهة النظم ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى ومن جهة معانيه التي أمر بها ومعانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه

---

(١) رواه البخاري ح٧٢٧٤ ومسلم ح١٥٢.

(٢) الإسراء: ٨٨.

وصفاته وملائكته وغير ذلك ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي وعن الغيب المستقبل ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهة ما بيَّن فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾[3]، وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه ولا يناقض ذلك بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له[4].

ويقول ابن حجر رحمه الله: «ووجوه إعجاز القرآن من جهة حسن تأليفه والتئام كلماته وفصاحته وإيجازه في مقام الإيجاز. وبلاغته ظاهرة جداً. مع ما انضم إلى ذلك من حسن نظمه وغرابة أسلوبه مع كونه على خلاف قواعد النظم والنثر هذا إلى ما اشتمل عليه من الإخبار بالمغيبات مما وقع من أخبار الأمم الماضية مما كان لا يعلمه إلا أفراد من أهل الكتاب ولم يعلم أن النبي ﷺ اجتمع بأحد منهم ولا أخذ عنهم. وبما سيقع فوقع وفق ما أخبر به في زمنه ﷺ وبعده هذا مع الهيبة التي تقع عند تلاوته والخشية التي تلحق سامعه وعدم دخول الملال والسآمة على قارئه وسامعه مع تيسر حفظه لمتعلميه وتسهيل سرده لتاليه ولا ينكر شيئاً من ذلك إلا جاهل أو

---

(١) الكهف: ٥٤.
(٢) الإسراء: ٨٩.
(٣) الزمر: ٢٧ ـ ٢٨.
(٤) التفسير الكبير لابن تيمية ٢/١٥٤.

معاند.

ولهذا أطلق الأئمة أن أعظم معجزات النبي ﷺ القرآن ومن أظهر معجزات القرآن إبقاؤه مع استمرار الإعجاز وأشهر ذلك تحديه اليهود أن يتمنوا الموت فلم يقع من سلف منهم ولا خلف من تصدى لذلك ولا أقدم مع شدة عداوتهم لهذا الدين وحرصهم على إفساده والصد عنه فكان في ذلك أوضح معجزة»[١].

ومما يدل على أن القرآن الكريم أكبر معجزة للنبي ﷺ اشتماله على أعظم تشريع ينظم حياة البشرية في جميع مجالات الحياة بشكل يجعل الإنسان يجزم بأن هذا القرآن ليس من كلام ولا تنظيم البشر إذ لا يعقل أن يضع هذا التشريع المعجز في كل جزئية من جزئياته رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب وهو الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه. فلقد كان أمياً ولكنه بالرسالة أصبح معلم البشرية. وأستاذ الإنسانية وأميته ﷺ دليل من دلائل نبوته. يقول الله عزوجل: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[٢].

وخلاصة القول أن القرآن أعظم معجزة أوتيها أكرم رسول صلوات الله وسلامه عليه وهو المعجزة الباقية بقاء الدهر والتي لا تزال الأيام تظهر إعجازه وعجائبه فهو الحجة الدائمة إلى يوم القيامة الذي تكفل الله بحفظه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[٣].

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٦/ ٦٧٣ باب علامات النبوة في الإسلام.

(٢) العنكبوت: ٤٨ ـ ٤٩.

(٣) الحجر: ٩.

ثانياً: معجزة نبع الماء:

من المعجزات التي أشار إليها الشيخ عبدالقادر الجيلاني «نبع الماء من بين أصابعه صلوات الله وسلامه عليه»[١].

وهو يشير بهذا إلى ما حدث كثيراً لرسول الله ﷺ منها ما رواه جابر بن عبدالله[٢] رضي الله عنهما قال: عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة[٣] فتوضأ منها ثم أقبل الناس نحوه وقالوا ليس عندنا ماء نتوضأ به ونشرب إلا ما في ركوتك فوضع النبي ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون قال: فشربنا وتوضأنا. قيل لجابر: كم كنتم: قال: لو كنا مائة ألف لكفانا كنا خمس عشرة مائة»[٤].

ومن ذلك أيضاً ما رواه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفاً. كنا مع النبي ﷺ في سفر فقلَّ الماء فقال: اطلبوا فضلة من ماء. فجاءوا بإناء فيه قليل من ماء فأدخل يده في الإناء ثم قال: حي على الطهور المبارك والبركة من الله. ولقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يأكل[٥].

---

(١) الغنية للجيلاني ١/ ٧٥.

(٢) جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري الإمام الكبير المجتهد الحافظ صاحب رسول الله ﷺ. من أهل بيعة الرضوان روى علماً كثيراً عن النبي ﷺ وكان مفتي المدينة في زمانه شهد ليلة العقبة مع والده، مات رضي الله عنه سنة ٧٨هـ/ سير أعلام النبلاء ٣/ ١٨٩.

(٣) الركوة: إناء للماء وجمعها ركاء وركوات/ مختار الصحاح ١٠٧.

(٤) رواه البخاري ح٣٥٧٦.

(٥) رواه البخاري ح٣٥٧٩.

قال ابن حجر رحمه الله: قال عياض[١]: هذه القصة رواها الثقات من العدد الكثير عن الجم الغفير عن الكافة متصلة بالصحابة وكان ذلك في مواطن اجتماع الكثير منهم في المحافل ومجمع العساكر ولم يرد عن أحد منهم إنكار على راوي ذلك فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته.

ثالثاً: معجزة تكثير الطعام القليل:

يشير الشيخ عبدالقادر الجيلاني إلى نوع آخر من معجزاته ﷺ **(وهي إطعام الزاد القليل للخلق الكثير)**[٢].

وهذه المعجزة أيضاً وقعت أكثر من مرة وعاش أحداثها بعض الصحابة. فمن ذلك:

١ ـ ما رواه أنس بن مالك[٣] قال: قال أبوطلحة[٤] لأم سليم[٥]: لقد

(١) الإمام العلامة الحافظ شيخ الإسلام القاضي عياض بن موسى بن عياض الأندلسي ولد سنة ٤٧٦ استبحر من العلوم وجمع وألف وسارت بتصانيفه الركبان واشتهر اسمه في الآفاق توفي سنة ٥٤٤هـ/ سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢١٢.

(٢) الغنية للجيلاني ١/ ٧٥.

(٣) أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الإمام المفتي المقرىء المحدث راوية الإسلام خادم سيد البشر روى عن النبي ﷺ علماً غزيراً. حيث لازمه أكمل الملازمة منذ هاجر إلى أن مات وغزا معه غير مرة وبايعه تحت الشجرة مات رضي الله عنه سنة ٩٣هـ/ سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٩٥.

(٤) صاحب رسول الله ﷺ وأحد أعيان البدريين وأحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة واسمه زيد بن سهل بن الأسود الخزرجي. له مناقب كثيرة وغزا بحر الروم وقيل توفي في السفينة والأشهر أنه مات بالمدينة وصلى عليه عثمان رضي الله عنه سنة ٣٤/ سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٧.

(٥) أم سليم الرميصاء بنت ملحان أم أنس بن مالك مات زوجها مالك بن النضر ثم تزوجها بعده أبوطلحة الأنصاري، تعد من أفاضل النساء شهدت حنيناً وأحداً ومعها خنجراً تقول إن دنا مني مشرك بقرت به بطنه وكان صداقها في زواجها بأبي طلحة =

سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع فهل عندك من شيء فقالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير ثم أخرجت خماراً لها فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدي ولا ثتني[١] ببعضه ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ. فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد والناس معه فقمت عليهم فقال لي رسول الله ﷺ أرسلك أبوطلحة؟ قلت: نعم، قال: بطعام؟ قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: قوموا، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أباطلحة فأخبرته فقال أبوطلحة ياأم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم فقالت: الله ورسوله أعلم. فانطلق أبوطلحة حتى لقي رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ وأبوطلحة معه فقال رسول الله ﷺ هلمي ياأم سليم ما عندك فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ ففتَّ وعصرت أم سليم عكةً فأدَمَتْهُ ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء أن يقول ثم قال: ائذن لعشرة فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال: ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم قال: ائذن لعشرة فأكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً[٢].

٢ ـ ما رواه جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: انكفأت إلى امرأتي في يوم الخندق فقلت هل عندك شيء فقد رأيت بالنبي ﷺ

= الإسلام/ سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٠٤.

(١) لاثتني: أي لفتني به يقال لاث العمامة على رأسه أي عصبها والمراد أنها لفت بعضه على رأسه وبعضه على إبطه/ انظر: فتح الباري لابن حجر ٦/ ٦٨١.

(٢) رواه البخاري ح٣٥٧٨.

خمصاً[١] شديداً فأخرجت جراباً فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن[٢] فذبحتها. وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة[٣] ثم جئت النبي ﷺ فساررته فقلت يارسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعاً من شعير فتعال أنت ونفر معك فصاح النبي ﷺ: ياأهل الخندق إن جابراً صنع سؤراً[٤] فحي هلا بكم فقال رسول الله ﷺ: لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء وجاء فأخرجت له عجيناً فبصق فيه ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك ثم قال ادعي خابزة فلتخبز معك واقدحي[٥] من برمتكم ولا تنزلوها وهم ألف فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هي وإن عجيننا ليخبز كما هو[٦].

وقد جاءت الأخبار عن هذه المعجزة عن جمع كثير من الصحابة رضوان الله عليهم مما يفيد القطع بها وقد أورد بن كثير طرق أحاديثها عن أنس وأبي هريرة وابن مسعود وأم أوس وأم شريك وأبي أيوب وجابر وسمرة بن جندب وعمر بن الخطاب وسلمان وغيرهم. رضي الله عنهم[٧].

---

(١) الخَمْصَة بالفتح الجوعة والمخمص المجاعة/ مختار الصحاح للرازي ٨٠.

(٢) دجن في بيته إذا لزمه وبه سميت دواجن البيوت وهي ما ألف البيت من الشاء وغيرها الواحدة داجنة. لسان العرب لابن منظور ١٣/١٤٨.

(٣) البرمة القدر مختار الصحاح للرازي ٢٠.

(٤) أسأر فلان من طعامه وشرابه سؤراً. وذلك إذا أبقى بقية وبقية كل شيء سؤر/ لسان العرب لابن منظور ٤/ ٣٤٠.

(٥) قدح القدر إذا غرف ما فيها. المصدر السابق ٢/ ٥٥٥.

(٦) رواه البخاري ٤١٠٢.

(٧) البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ١٠٤ ـ ١٢٣.

رابعاً: معجزة كلام الذراع المسموم:

من المعجزات التي ذكرها الشيخ عبدالقادر الجيلاني كلام الذراع المسموم للنبي ﷺ وقوله: «لا تأكل مني فإني مسموم»[١].

وهذه المعجزة يذكرها ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد عند الحديث عن غزوة خيبر فيقول: وفي هذه الغزاة سُمَّ رسول الله ﷺ، أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية قد سمَّتها وسألت أي اللحم أحب إليه فقالوا الذراع فأكثرت من السم في الذراع فلما انتهش من ذراعها أخبره الذراع بأنه مسموم فلفظ الأكلة ثم قال: اجمعوا لي مَنْ هاهنا من اليهود فَجُمِعُوا له فقال لهم: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي فيه قالوا: نعم ياأباالقاسم. فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان. قال: كذبتم بل أبوكم فلان، قالوا: صدقت وبررت قال: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه قالوا: نعم ياأباالقاسم. وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا فقال رسول الله ﷺ: من أهل النار فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها أبداً. ثم قال: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه قالوا: نعم. قال: أجعلتم في هذه الشاة سماً؟ قالوا: نعم. قال: فما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك»[٢].

---

(١) الغنية للجيلاني ١/ ٧٥.

(٢) زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٣٥ والحديث رواه البخاري ح/ ٥٧٧٧.

خامساً معجزة انشقاق القمر:

يذكر الشيخ عبدالقادر الجيلاني هذه المعجزة ضمن دلائل نبوته صلوات الله وسلامه عليه فيذكر منها: «انشقاق القمر»[1].

وهذه المعجزة جاءت بعد سؤال أهل مكة الرسول ﷺ أن يأتيهم بآية تدل على نبوته فانشق القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما، وقد كان القمر عند انشقاقه بدراً وقد سجل الله ذكر هذه المعجزة في القرآن فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾[2]. وقد نقل ابن كثير اتفاق العلماء والأئمة على وقوع هذه الآية وأن الأحاديث قد وردت بذكرها بطرق متعددة تفيد القطع[3]. وساق العديد من الأحاديث نذكر منها:

١ ـ ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر[4].

٢ ـ ما رواه عبدالله بن مسعود[5] رضي الله عنه قال: انشق القمر على

(١) الغنية للجيلاني ١/ ٧٥.

(٢) القمر: ١ ـ ٥.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٧٧.

(٤) رواه البخاري ٣٦٣٧ ومسلم ح٢٨٠٢.

(٥) عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي الإمام الحبر فقيه الأمة من السابقين الأولين ومن النجباء العالمين شهد بدراً وهاجر الهجرتين، ومناقبه غزيرة وروى علماً كثيراً كان متخصصاً في معرفة القرآن الكريم وكان ضعيف الجسم قصير القامة قال عنه ﷺ: وقد تعجب الصحابة من دقة ساقيه: لهما في الميزان أثقل من جبل =

عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال رسول الله ﷺ اشهدوا[(١)].

وما أحسن ما قاله ابن كثير بعد أن ساق طرق الأحاديث فهذه طرق عن هؤلاء الجماعة من الصحابة وشهرة هذا الأمر تغني عن إسناده مع وروده في الكتاب العزيز[(٢)].

سادساً: معجزة حنين الجذع:

ذكر الشيخ عبدالقادر الجيلاني ضمن معجزاته ﷺ: «حنين الجذع»[(٣)].

يقول ابن كثير: وقد وردت هذه المعجزة بطرق متعددة عن جماعة من الصحابة تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن وفرسان هذا الميدان[(٤)].

روى البخاري من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: **أن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يارسول الله ألا نجعل لك منبراً، قال: إن شئتم. فجعلوا له منبراً فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر فصاحت النخلة صياح الصبي ثم نزل النبي ﷺ فضمه إليه يئن أنين الصبي الذي يُسكَّن قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها**[(٥)].

- أحد سير أعلام النبلاء ١/ ٤٦١.

(١) رواه البخاري ح٣٦٣٦ ومسلم ح٢٨٠٠.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٧٩.

(٣) الغنية للجيلاني ١/ ٧٥.

(٤) البداية والنهاية ٦/ ١٣١.

(٥) رواه البخاري ح٣٥٨٤.

سابعاً: معجزة كلام البعير:

شكوى البعير على رسول الله ﷺ وكلامه له معجزة ظاهرة من معجزاته صلوات الله وسلامه عليه التي ذكر الشيخ عبدالقادر الجيلاني فيقول: «وكلام البعير»[١].

وهذه المعجزة من رواية عبدالله بن جعفر قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه ذات يوم فأسرَّ إليَّ حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ بحاجته هدف أو حائش نخل فدخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه فأتاه النبي فمسح سراته إلى سنامه وذفراه[٢] فسكن فقال من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل فجاءه فتى من الأنصار فقال: لي يارسول الله، فقال: ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتدئبه[٣].

ثامناً: معجزة انقياد الشجر له صلوات الله وسلامه عليه:

ذكر الشيخ عبدالقادر الجيلاني من معجزاته ﷺ «مجيء الشجر إليه»[٤].

وهي من المعجزات الثابتة له ﷺ ففي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فاتبعته

(١) الغنية للجيلاني ١/ ٧٥.
(٢) ذفري البعير أصل أذنه/ لسان العرب لابن منظور ٤/ ٣٠٧.
(٣) رواه أبوداود ح٢٥٤٩ وقال الألباني عنه بأنه حديث صحيح الأحاديث الصحيحة للألباني ١/ ٢٨.
(٤) الغنية للجيلاني ١/ ٧٥.

بإداوة[١] من ماء فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به فإذا شجرتان بشاطيء الوادي فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما. فأخذ بغصن من أغصانها فقال: انقادي علي بإذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال: انقادي علي بإذن الله فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لأم بينهما يعني جمعهما فقال: التئما عليَّ بإذن الله. فالتأمتا.

قال جابر: فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربى فيبتعد فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتة فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلاً وإذا الشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق فرأيت رسول الله ﷺ وقف وقفة فقال: برأسه هكذا وأشار برأسه يميناً وشمالاً ثم أقبل فلما انتهى إليَّ قال: ياجابر هل رأيت مقامي قلت: نعم يارسول الله قال: فانطلق إلى الشجرتين فاقطع من كل واحدة منهما غصناً فأقبل بهما حتى إذا قمت مقامي فأرسل غصناً عن يمينك وغصناً عن يسارك قال جابر: فقمت فأخذت حجراً فكسرته وحسرته فانذلق لي فأتيت الشجرتين فقطعت من كل واحدة منهما غصناً ثم أقبلت أجرهما حتى قمت مقام رسول الله ﷺ. أرسلت غصناً عن يميني وغصناً عن يساري ثم لحقته فقلت: قد فعلت يارسول الله فعمَّ ذاك قال: إني مررت بقبرين يعذبان فأحببت بشفاعتي أن يرفه عنهما مادام الغصنان رطبين[٢].

---

(١) الأداوة: المطهرة/ مختار الصحاح للرازي ص٥.

(٢) رواه مسلم ح٣٠١٢.

وقد اكتفيت بذكر المعجزات التي ذكرها الشيخ عبدالقادر ولم أتعرض لغيرها وهي كثيرة جداً وكلها تشهد بما لا يدع مجالاً للشك بأنها إنما وقعت للنبي ﷺ للدلالة على أنه رسول من عند الله تجب طاعته ومتابعته وهذه المعجزات لا يقبلها ويؤمن بها إلا من شرح الله صدره ونور بصيرته أما المعاندون الضالون فهؤلاء لا تقنعهم الحجج ولا ترضخهم المعجزات لأنهم في الأصل قد صمموا على العناد والمكابرة كما قال الله فيهم: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[1].

---

(١) الأعراف: ١٤٦.

الفصل الرابع

اليوم الآخر

وتحته ثمانية مباحث:

المبحث الأول: عذاب القبر ونعيمه وسؤال منكر ونكير

المبحث الثاني: البعث بعد الموت

المبحث الثالث: المقام المحمود

المبحث الرابع: الشفاعة

المبحث الخامس: الحوض

المبحث السادس: الصراط

المبحث السابع: الميزان

المبحث الثامن: الجنة والنار

المبحث الأول
عذاب القبر ونعيمه وسؤال منكر ونكير

القبر أول منزل من منازل الآخرة. فبعد موت الإنسان وانقطاع حياته ينتقل إلى الآخرة عن طريق أول منازلها وهو القبر. ليبدأ الجزاء على الأعمال فمن كان محسناً كافأه الله على إحسانه بالنعيم في القبر بتحويله إلى روضة من رياض الجنة. ومن كان مسيئاً والعياذ بالله عاقبه الله في قبره بتحويله إلى حفرة من حفر النار. ثم يستمر النعيم أو العذاب في القبر إلى أن تقوم الساعة ويُبعث الناس من قبورهم للحساب ثم إلى الجنة أو إلى النار.

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يقرر وجوب الإيمان بنعيم القبر وعذابه. فيقول:

«والإيمان بعذاب القبر وضغطته واجب لأهل المعاصي والكفر وجميع الخلق سوى النبيين ثم يخفف عن المؤمنين برحمة الله. وكذلك النعيم فيه لأهل الطاعة والإيمان»(١).

كما يقرر وجوب الإيمان بمنكر ونكير وأنهما يسألان الميت في قبره فيقول:

«ونؤمن بأن منكراً ونكيراً إلى كل أحد ينزلان سوى النبيين ويسألانه ويمتحنانه عما يعتقده من الأديان وهما يأتيان القبر فيرسل فيه الروح ثم يقعد فإذا سئل سُلّت روحه بلا ألم»(٢).

---

(١) الغنية للجيلاني ١/٦٦.
(٢) الغنية للجيلاني ١/٦٦.

وما ذهب إليه الشيخ الجيلاني من إيجاب الإيمان بعذاب القبر ونعيمه هو معتقد أهل السنة والجماعة المقرر في أصولهم. وهذه بعض أقوال أئمتهم وعلمائهم:

١ ـ قال الإمام أحمد رحمه الله: عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل[١].

٢ ـ وقال أبوالحسن الأشعري بعد أن عدَّد أصول أهل السنة والجماعة التي أجمعوا عليها: وأجمعوا على أن عذاب القبر حق وأن الناس يفتنون في قبورهم بعد أن يحيون ويسألون فيثبت الله من أحب تثبيته[٢].

٣ ـ وقال محمد بن حسين الآجري: بعدأن سرد الأحاديث والآثار التي تدل على ثبوت عذاب القبر ونعيمه: ما أسوأ حال من كذَّب بهذه الأحاديث، لقد ضل ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً[٣].

٤ ـ وقال ابن عبدالبر بعد أن ذكر الدعاء: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر. وفي هذا الحديث الإقرار بعذاب القبر ولا خلاف بين أهل السنة في جواز تصحيحه واعتقاد ذلك والإيمان به[٤].

وقال في موضع آخر بعد ذكره لحديث الخسوف: وأما قوله أوحى إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم فإنه أراد فتنة الملكين منكر ونكير حين يسألان العبد مَنْ ربك وما دينك ومن نبيك. والآثار في هذا متواترة وأهل السنة والجماعة كلهم على الإيمان

---

(١) طبقات الحنابلة ١/٦٢.
(٢) رسالة إلى أهل الثغر ٢٧٩ لأبي الحسن الأشعري.
(٣) الشريعة للآجري ٣٦٤.
(٤) التمهيد لابن عبدالبر ١٢/١٨٦.

بذلك ولا ينكره إلا أهل البدع[١].

٥ ـ وعقد الشيخ الأصبهاني في كتابه الحجة في بيان المحجة فصلاً بعنوان: «الرد على من أنكر عذاب القبر» ثم ساق فيه بعض الأحاديث لإثبات عذاب القبر[٢].

٦ ـ وصنف ابن رجب الحنبلي رحمه الله كتاباً بعنوان أهوال القبور تحدث فيه في الباب السادس عن عذاب القبر ونعيمه فقال: وقد دلَّ القرآن على عذاب القبر في مواضع كثيرة ثم ساق بعض الآيات الكريمة وأقوال المفسرين حولها. كما ذكر كثيراً من الأحاديث الدالة على عذاب القبر ونعيمه[٣].

أدلة أهل السنة والجماعة:

استدل أهل السنة والجماعة على ما ذهبوا إليه من إثبات عذاب القبر ونعيمه بنصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

أولاً: من القرآن الكريم:

١ ـ قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾[٤] وقد فسرها النبي ﷺ بأنها نزلت في عذاب القبر فعن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إذا أقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت. نزلت في عذاب**

---

(١) المرجع السابق ٢٢/٢٤٧.

(٢) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني ١/٤٤٩.

(٣) أهوال القبور لابن رجب ٣٩ ـ ٨١.

(٤) إبراهيم: ٢٧.

القبر»[١].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾[٢] قال قتادة: يقال لهم: ياآل فرعون هذه منازلكم توبيخاً وصغاراً ونقيصة. وقال ابن سيرين[٣]: كان أبوهريرة يأتينا بعد صلاة العصر فيقول عرجت الملائكة وهبطت الملائكة وعرض آل فرعون على النار فلا يسمعه أحد إلاَّ تعوَّذ بالله من النار[٤].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾[٥] قال ابن جرير الطبري: اختلف أهل التأويل في العذاب الذي توعَّد الله به هؤلاء الظلمة دون يوم الصعقة فقال بعضهم هو عذاب القبر، ونقل هذا عن البراء بن عازب وابن عباس رضي الله عنهما[٦].

ثانياً: من السنة المطهرة:

١ ـ ما روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن العبد إذا وضع في قبره وتولى أصحابه إنه يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل ـ لمحمد

---

(١) رواه البخاري ١٣٦٩ ومسلم ح٢٨٧١.

(٢) غافر: ٤٦.

(٣) أبوبكر محمد بن سيرين أبوه مولى أنس بن مالك اشتراه أنس ثم كاتبه قال عنه ابن سعد: كان ثقة مأموناً عالياً رفيعاً فقيهاً إماماً كثير العلم ورعاً وهو من التابعين ولد سنة ٣٣، وتوفي ١١٠ بالبصرة روى عن أنس بن مالك وزيد بن ثابت وغيرهما) انظر: طبقات ابن سعد ١٩٣/٧، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٦٧/٩ والأعلام للزركلي ١٥٤/٦.

(٤) ذكرهما السيوطي في الدر المنثور ٢٩١/٧.

(٥) الطور: ٤٧.

(٦) جامع البيان للطبري ٣٦/٢٧.

ﷺ ـ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبدالله ورسوله ﷺ فيقال له. انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة قال فيراهما جميعاً وأما الكافر أو المنافق فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال: لا دريت ولا تليت فيضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين[(١)].

قال ابن حجر عند شرح هذا الحديث وغيره: وفي أحاديث الباب من الفوائد إثبات عذاب القبر وأنه واقع على الكفار ومن شاء الله من الموحدين[(٢)].

٢ ـ حديث عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر قال: نعم عذاب القبر حق، قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد ذلك صلى صلاة إلا تعوّذ من عذاب القبر[(٣)].

٣ ـ حديث أبوهريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال**»[(٤)].

ووجه الاستدلال بالأحاديث على إثبات عذاب القبر ونعيمه ظاهر ولله الحمد والمنة.

---

(١) رواه البخاري ح١٣٧٤ ومسلم ح٢٨٧٠.

(٢) فتح الباري لابن حجر ٣/ ٢٨٣.

(٣) رواه البخاري ح١٣٧٢.

(٤) رواه البخاري ح١٣٧٧ ومسلم ح٥٨٨.

مستقر الأرواح

تحدث الشيخ عبدالقادر الجيلاني عن هذه المسألة باختصار شديد حيث قرَّر أن أرواح الشهداء والمؤمنين في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة فقال:

«وأن أرواح الشهداء والمؤمنين في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة وتأوي إلى قناديل من نور تحت العرش ثم تأتي إلى الأجساد عند النفخة الثانية إلى الأرض للعرض والحساب يوم القيامة»[1].

وقد اختلفت أقوال العلماء في مستقر الأرواح وذلك باختلاف تفاوت درجات تلك الأرواح وقسموها إلى ثلاثة أقسام.

الأول: أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فهذه بلا خلاف عند ربها في أعلى عليين. والدليل ما ثبت في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: **«إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخيَّر فلما نُزِلَ به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة ثم أفاق فأشخص ببصره إلى السقف ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى. قلت: إذاً لا يختارنا وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا به. قالت: فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها النبي ﷺ قوله: اللهم الرفيق الأعلى»**[2].

الثاني: أرواح الشهداء الذين صرحت الأدلة بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر معلقة بالعرش منها ما ثبت في صحيح مسلم عن مسروق قال: سألنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية

(١) الغنية للجيلاني ٦٩/١.
(٢) رواه البخاري ح٦٩٠٥.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[1]

قال: «**أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال**[2] **أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعه فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا**»[3].

الثالث: أرواح المكلفين من المؤمنين وغيرهم وهؤلاء تباينت أقوال العلماء حولهم وأرجح الأقوال فيها أن أرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكافرين في النار وهو ما ذهب إليه الإمام أحمد رحمه الله فقد روى ابنه عبدالله قوله: أرواح الكفار في النار وأرواح المؤمنين في الجنة[4].

وهو ما يرجحه ابن تيمية رحمه الله حيث يقول: «وأرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكافرين في النار تنعم أرواح المؤمنين وتعذب أرواح الكافرين إلى أن تعاد إلى الأبدان»[5].

أما الفرق بين حياة الشهداء البرزخية في الجنة وحياة من عداهم من المؤمنين فقد أشار إليه ابن رجب بقوله: «والفرق بين

---

(١) آل عمران: ١٦٩.

(٢) قال النووي وهذا الحديث مرفوع لقوله إنا قد سألنا عن ذلك فقال يعني النبي ﷺ/ شرح صحيح مسلم للنووي ١٣/ ٣٤ ح رقم ١٨٨٧.

(٣) رواه مسلم ح١٨٨٧.

(٤) طبقات الحنابلة ١/ ١٨١.

(٥) الفتاوى لابن تيمية ٤/ ٣١١.

حياة الشهداء وغيرهم من المؤمنين الذين أرواحهم في الجنة من وجهين:

أحدهما: أن أرواح الشهداء يخلق لها أجساد وهي الطير التي تكون في حواصلها. ليكمل بذلك نعيمها ويكون أكمل من نعيم الأرواح المجردة عن الأجساد فإن الشهداء بذلوا أجسادهم في سبيل الله فعوضوا عنها بهذه الأجساد في البرزخ.

الثاني: أنهم يرزقون من الجنة وغيرهم لم يثبت له في حقه مثل ذلك، فإنه جاء أنهم يعلقون في شجر الجنة وروى يعلقون بفتح اللام وضمها فقيل إنهما بمعنى واحد وأن المراد الأكل من الشجر قال ابن عبدالبر وقيل رواية الضم معناها الأكل ورواية الفتح معناها التعلق ذكره ابن الجوزي وبكل حال فلا يلزم مساواتهم للشهداء في كمال تنعمهم في الأكل والله أعلم»[1].

---

(١) أهوال القبور لابن رجب الحنبلي ١٢٥.

شبهة وردها

يفترض الشيخ عبدالقادر الجيلاني ورود اعتراض على وقوع عذاب القبر ونعيمه فيما إذا لم يدفن الميت في قبر كمن تعرض للغرق أو الحريق أو أكلته السباع فيقول:

«فإن اعترضوا عليها فقالوا: كيف القول في المصلوب والمحترق والغريق ومن أكلته السباع فتفرقت بلحمه والطير معها فحصل أجزاء متعددة»[١].

ثم تولى الإجابة على هذا الاعتراض بالرد والإبطال فقال: «يقال لهم: أن النبي ﷺ ذكر عذاب القبر والمساءلة على ما هو معهود وعادة في الخلق أنهم يدفنون في القبور وإن وجد ميت على هذه الصفة البعيدة النادرة لا يمتنع أن يقال إن الله يصيِّر روحه إلى الأرض ثم تُضغط وتُسأل وتُعذَّب وتُنعَّم كما أن أرواح الكفار تُعذَّب كل يوم مرتين غدوة وعشية حتى تقوم الساعة ثم تدخل النار مع الأجساد حينئذٍ كما قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[٢]»[٣].

وبمثل ما أجاب الشيخ عبدالقادر الجيلاني على هذا الاعتراض أجاب علماء أهل السنة والجماعة يقول شارح الطحاوية رحمه الله:

«وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً. وسؤال الملكين فيجب اعتقاد ثبوت

---

(١) الغنية للجيلاني ١/٦٩.

(٢) غافر: ٤٦.

(٣) الغنية للجيلاني ١/٦٩.

ذلك والإيمان به ولا نتكلم في كيفيته إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته لكونه لا عهد له به في هذه الدار والشرع لا يأتي بما يحيله المعقول ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول. فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا».

إلى أن قال رحمه الله: «واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير فلا يُحمَّل كلامه ما لا يحتمله ولا يُقصَّر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام. وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول ولاسيما أن أضيف إليه سوء القصد والله المستعان»[1].

---

(١) شرح الطحاوية ٢/٥٧٨ ـ ٥٨٠.

المبحث الثاني

البعث بعد الموت

البعث بعد الموت حقيقة دلَّت عليه الفطر السليمة وصرحت به جميع الكتب السماوية وأخبر به جميع الأنبياء والرسل. والإيمان به أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان العبد إلا بتحقيقها.

والشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله يشير إلى وجوب الإيمان به فيقول:

«ثم إن الإيمان بالبعث من القبور والنشر عنها واجب كما قال الله عزوجل: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[(١)] وكما قال الله عزوجل: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾[(٢)] وقال جل وعلا: ﴿۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾[(٣)] سيحشرهم ويجمعهم جميعاً جل وعلا: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾[(٤)] و﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾[(٥)] وقال جل جلاله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[(٦)][(٧)].

---

(١) الحج: ٧.
(٢) الأعراف: ٢٩.
(٣) طه: ٥٥.
(٤) طه: ١٥.
(٥) النجم: ٣١.
(٦) الروم: ٤٠.
(٧) الغنية للجيلاني ١/ ٦٩.

وإلى هذا ذهب أئمة وعلماء أهل السنة والجماعة حيث يقررون أهمية الإيمان بالبعث بعد الموت لما له من تأثير عظيم في استقامة الإنسان وحمله على العمل الصالح والابتعاد عن المعاصي والظلم والعدوان والبغي والفساد. وهذه بعض أقوالهم:

١ ـ قال الإمام أحمد بن حنبل: «والصور حق ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام فيموت الخلق ثم ينفخ فيه أخرى فيقومون لرب العالمين عزوجل للحساب والقصاص والثواب والعقاب، والجنة والنار، ويعرض عليه العباد يوم الفصل والدين ويتولى حسابهم بنفسه لا يولي ذلك غيره عزوجل»[١].

٢ ـ وقال الشيخ الصابوني: «ويؤمن أهل الدين والسنة بالبعث بعد الموت يوم القيامة وبكل ما أخبر الله سبحانه ورسوله ﷺ من أهوال ذلك اليوم الحق واختلاف أحوال العباد فيه والخلق فيما يرونه ويلقونه هناك في ذلك اليوم الهائل من أخذ الكتب بالأيمان والشمائل والإجابة عن المسائل إلى سائر الزلازل والبلابل الموعودة في ذلك اليوم العظيم والمقام الهائل من الصراط والميزان ونشر الصحف التي فيها مثاقيل الذر من الخير والشر وغيرها»[٢].

٣ ـ وقال ابن عبدالبر: «وفي هذا الحديث من الفقه أن من شرط الشهادة التي بها يخرج من الكفر إلى الإيمان مع الإقرار بألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. الإقرار بالبعث بعد الموت. وقد أجمع المسلمون على أن من أنكر البعث فلا إيمان له ولا

(١) طبقات الحنابلة ١/٢٧.

(٢) عقيدة السلف للصابوني ٥٨.

شهادة. وفي ذلك ما يغني ويكفي مع ما في القرآن من تأكيد الإقرار بالبعث بعد الموت، فلا وجه للإنكار في ذلك)[١].

٤ ـ وقال شارح الطحاوية: «الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة، فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز وأقام الدليل عليه ورد على منكريه في غالب سور القرآن وذلك أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون على الإيمان بالآخرة. فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم وهو فطري كلهم يقر بالرب إلا من عاند كفرعون بخلاف الإيمان باليوم الآخر فإن منكريه كثيرون ومحمد ﷺ لما كان خاتم الأنبياء وكان قد بعث هو والساعة كهاتين[٢] وكان هو الحاشر المقفي[٣] بيَّن تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء»[٤].

٥ ـ وقال السفاريني: واعلم أن المعاد الجسماني حق واقع وصدق صادق دلَّ عليه النقل الصحيح ولم يمنعه العقل فوجب الإيمان به والتصديق بموجبه لأنه جاء في السماع الصحيح المنقول ودلَّ عليه عند الجمهور صريح المعقول وهو أن يبعث الله الموتى من القبور بأن يجمع أجزاءهم الأصلية ويعيد الأرواح إليها لقوله

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر ٩/١١٦.

(٢) يشير إلى ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» رواه البخاري ح٦٥٠٤ ومسلم ح٢٩٥١.

(٣) ثبت في الصحيحين من حديث جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي» رواه البخاري ح٤٨٩٦ ومسلم ح٢٣٥٤.

(٤) شرح الطحاوية ٢/٥٨٩.

تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[١] إلى غير ذلك من النصوص القرآنية القطعية والأحاديث الساطعة النبوية[٢].

---

(١) يس ٧٩.

(٢) لوامع الأنوار للسفاريني ٢/ ١٥٧.

أدلة البعث بعد الموت

الإيمان بالبعث من الإيمان بالغيبيات الذي هو أول ما ينبغي أن يصدِّق به المؤمن وهو الصفة البارزة من صفات المؤمنين المتقين. يقول عزوجل: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[1] ولا سبيل إلى معرفة البعث إلا عن طريق النص الموحى به من الكتاب الكريم أو السنة المطهرة.

أولاً: من القرآن الكريم:

لقد عنى القرآن الكريم بقضية البعث عناية فائقة وجاءت الأدلة الكثيرة وتعددت الأساليب المتنوعة لتقرير هذه العقيدة لما لثباتها في قلب المؤمن من أثر فعال في استقامة خطوه على درب الحياة. وسأكتفي بذكر بعض تلك الأساليب. وهي:

الأول: الاستدلال على وقوع البعث والنشأة الأخرى بما نشاهده يومياً من الخلق والإحياء الدال على قدرة الله وبالتالي القدرة على إعادة خلقهم وإلى هذا أشار الشيخ عبدالقادر الجيلاني بقوله: «**فالذي قدر على إنشاء الخلق قادر على إعادتهم**»[2]، وقد جاء هذا كثيراً في القرآن الكريم، يقول عزوجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ

---

(١) البقرة: ٢.

(٢) الغنية للجيلاني ١/٦٩.

ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾[1]. فالقادر على هذا الخلق المشاهد والمعلوم قادر على إعادته مرة أخرى.

ويقول سبحانه: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾[2].

ويقول عزوجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾[3].

الثاني: تأكيده وقوع البعث بالأمر للنبي ﷺ بأن يقسم بأنه كائن لا محالة وذلك في قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾[4]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾[6].

الثالث: عرض مشاهد لما سيكون من حوار في الآخرة بين أهل الإيمان المصدقين بالبعث وهم في الجنة يتنعمون وبين أهل

---

(١) الحج: ٥ ـ ٧.
(٢) مريم: ٦٦ ـ ٦٧.
(٣) الروم: ٢٧.
(٤) التغابن: ٧.
(٥) سبأ: ٣.
(٦) يونس: ٥٣.

الكفر والتكذيب بالبعث وهم في النار يعذبون وبيان أن كفرهم وتكذيبهم بالبعث بعد الموت أدى بهم إلى هذا المصير السيء: يقول عزوجل: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ۝﴾[1].

ويقول عزوجل: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝﴾[2].

الرابع: أن مقتضى العدل الذي قامت عليه السموات والأرض أن يبعث الله العباد ليجزيهم على أعمالهم. لأن سوق الحياة ينفض دون أن يتحقق العدل الكامل والإنصاف الشامل في تصرفات الناس فالله أرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الطريق الذي يحبه الله وقد انقسم الناس إلى فريقين فريق استقام على أمر الله وبذل نفسه وماله ومات ولم يجد ثواباً على ذلك وفريق رفض أمر الله وطغى وبغى وملأ الأرض فساداً ومات دون أن يجد عقوبة على فساده فهل يمكن أن يكون مصير الفريقين واحداً إن العقل يجزم بالبعث ويستبعد أن يستوي هؤلاء وهؤلاء. يقول عزوجل: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝﴾[3] ويقول سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ

---

(١) الصافات ٥٠ ـ ٦١.

(٢) الأعراف: ٥٠ ـ ٥١.

(٣) القلم: ٣٥ ـ ٣٦.

أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1] ويقول عزوجل: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[2]

---

(١) الجاثية: ٢١ ـ ٢٢.

(٢) ص: ٢٧ ـ ٢٨.

ثانياً: الأدلة من السنة:

أما أدلة البعث من السنة المطهرة فكثيرة جداً منها:

١ ـ حديث عمر بن الخطاب والمشهور بحديث جبريل وفيه قول النبي ﷺ فأخبرني عن الإيمان قال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»**[١].

٢ ـ قوله ﷺ: **«يبعث كل عبد على ما مات عليه»**[٢].

٣ ـ قوله ﷺ: **«إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بالعرش فما أدري أكان فيمن صعق»**[٣] ووجه الدلالة في هذه الأحاديث على إثبات وقوع البعث بعد الموت واضح ولله الحمد والمنة.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم ح٢٨٧٨.

(٣) رواه البخاري ح٦٥١٨ ومسلم ح٢٣٧٣.

المبحث الثالث
المقام المحمود

المقام المحمود من الفضائل العظيمة التي وُعد بها نبينا محمد ﷺ يوم القيامة وورد بيانها في السنة المطهرة وقررها . . . أهل السنة والجماعة.

وللشيخ عبدالقادر الجيلاني في المقام المحمود قول مرجوح يعارضه الدليل وإن كان هذا القول قد قيل قبله كما سيأتي بيان ذلك بمشيئة الله تعالى.

فأما الشيخ عبدالقادر فقد قال:

«وأهل السنة يعتقدون أن الله يجلس رسوله المختار على سائر رسله وأنبيائه معه على العرش يوم القيامة»[١].

وما نسبه الشيخ عبدالقادر الجيلاني إلى أهل السنة على العموم فيه نظر فقد ذكر ابن حجر في الفتح أن الجمهور على أن المراد بالمقام المحمود الشفاعة وأن الواحدي[٢] قد نقل فيه الإجماع[٣].

وعند تفسير الطبري لهذه الآية: «﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ قال: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك المقام المحمود

(١) الغنية للجيلاني ١/ ٧١.

(٢) الإمام العلامة علي بن أحمد بن محمد الواحدي صاحب التفسير وإمام علماء التأويل له ثلاثة تفاسير البسيط، والوسيط، والوجيز، تصدر للتدريس مدة وعظم شأنه مات سنة ٤٦٨هـ/ سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨/ ٣٣٩.

(٣) فتح الباري لابن حجر ١١/ ٤٣٤.

فقال أكثر أهل العلم: ذلك هو المقام الذي يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم ثم ذكر أسماء من نُقِلَ عنهم أنهم قالوا: إن المقام المحمود هو الشفاعة من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين رحمهم الله وهم: حذيفة بن اليمان، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، والحسن البصري، ومجاهد، وسليمان، وقتادة)[1].

ولو أن الشيخ عبدالقادر الجيلاني أشار إلى الخلاف الواقع في هذه المسألة بين أهل السنة ثم نقل أن هذا رأي بعضهم لكان هذا هو الصواب.

وقد اختلف العلماء في تعيين المقام المحمود الذي وعد الله به نبيه يوم البعث على ثلاثة أقوال:

القول الأول: وهو قول الجمهور وغالب أهل العلم كما سبق بيانه أن المقام المحمود هو الشفاعة كما صرحت بذلك الأحاديث الصحيحة فقد روى البخاري في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً كل أمة تتبع نبيها يقولون يافلان أشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود[2].

كما روى أيضاً في الصحيح عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما. أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم**

(١) تفسير الطبري ١٥/ ١٤٤.

(٢) رواه البخاري ح٤٧١٨.

القيامة»[١] قال ابن حجر: وقال ابن الجوزي: والأكثر على أن المراد بالمقام المحمود الشفاعة[٢].

وقد روى أبوهريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ وسئل عنها قال: «هي الشفاعة»[٣].

وعن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه عن النبي ﷺ قال: **«إذا كان يوم القيامة كنت أنا وأمتي على تل فيكسوني حلة خضراء ثم يأذن لي تبارك وتعالى أن أقول ما شاء الله أن أقول وذلك المقام المحمود»**[٤].

القول الثاني: أن المقام المحمود هو إعطاؤه صلوات الله وسلامه عليه لواء الحمد يوم القيامة، وقد جمع الشوكاني بين هذا القول والقول الأول فقال: ويمكن أن يقال إن هذا لا ينافي القول الأول إذ لا منافاة بين كونه قائماً مقام الشفاعة وبيده لواء الحمد[٥].

القول الثالث: أن المقام المحمود هو أن يجلس الرسول ﷺ

---

(١) رواه البخاري ح٦١٤.

(٢) فتح الباري ٢/ ١١٣.

(٣) رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن كتاب التفسير باب ١٨ ٥/ ٣٠٣ وقد صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٣٦٩، ٢٣٧٠ ورواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة ٢/ ٣٥٠.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٤٥٦ وابن أبي عاصم في السنة ٢/ ٣٥٠ وقال عنه الألباني إسناده جيد ورجاله كلهم ثقات ولطرفه الأخير شاهد من حديث جابر مرفوعاً ـ يعني به حديث البخاري رقم ٦١٤.
كما أخرجه الحاكم ٤/ ٥٧٠ وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٥) فتح القدير للشوكاني ٣/ ١٥٢.

مع الله سبحانه وتعالى على كرسيه. وقد نقل الطبري ذلك في التفسير عن عبدالله بن سلام ولكن في إسناده مجهول وهوسيف السدوسي[(١)]

كما نقل الطبري في تفسيره ذلك عن ليث عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾ قال يجلسه معه على عرشه[(٢)].

وقد دعم هذا القول الخلال في كتابه السنة ونقله عن عدد كبير من علماء عصره حتى اتهموا من لم يقل به بالكفر والتجهم والزندقة والعياذ بالله[(٣)].

وبتأمل تلك الأقوال والأدلة التي اعتمد عليها القائلون بها ونظراً إلى أن منهج أهل السنة والجماعة يعتمد في الاستدلال في أمور العقيدة وغيرها على تقديم الكتاب الكريم ثم السنة المطهرة ثم كلام الصحابة رضوان الله عليهم. فإنه يتضح ما يلي:

أولاً: أن القول الأول قد اعتمد على قول الرسول ﷺ في تفسير المقام المحمود بأنه الشفاعة يوم القيامة كما هو واضح من الأدلة الصحيحة التي أوضحناها كما اعتمد على القول الصريح للصحابي الجليل عبدالله بن عمر والذي لا يمكن أن يقول به إلا وقد سمعه من رسول الله ﷺ لأن هذه المسألة من الغيبيات التي لا مجال للاجتهاد فيها.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/١٤٨ وقد قال الألباني عن سيف السدوسي بأنه لم يجده ولكنه وجد في طبقته سيف السعدي وهو في عداد المجهولين فلعله هو لأن من المحتمل أن السدوسي تحرف على الناسخ من السعدي/ ظلال الجنة في تخريج السنة للألباني ٢/٣٥١.

(٢) تفسير الطبري ١٥/١٤٥.

(٣) انظر: السنة للخلال تحقيق الدكتور عطية الزهراني ٢٠٩ ـ ٢٦٩.

ثانياً: أن الآثار التي وردت عن مجاهد رحمه الله قد تعارضت فقد روى الطبري في تفسيره عن مجاهد أنه قال: المقام المحمود هو مقام الشفاعة يوم القيامة، وذلك من طريقين: الأول عن ابن أبي نجيح، والثاني عن ابن جريج[١].

ورواية مجاهد إن صحت؛ معارضة بالنصوص الصحيحة الصريحة عن رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة ومعارضة بروايته هو كما أسلفنا ولذاأخذ العلماء على مجاهد هذا القول وعدوه من الأقوال المهجورة فقد قال ابن عبدالبر: «ليس من العلماء أحد إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ»، ومجاهد وإن كان أحد المقدمين في العلم بتأويل القرآن، فإن له قولين في تأويل آيتين هما مهجوران عند العلماء مرغوب عنهما أحدهما هذا ـ أي القول بأن معنى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ تنظر الثواب والآخرة، وقوله في قول الله عزوجل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ قال: يوسع له على العرش فيجلسه معه وهذا قول مخالف للجماعة من الصحابة ومن بعدهم فالذي عليه العلماء في تأويل هذه الآية أن المقام المحمود الشفاعة)[٢].

فإن الراجح هو القول الأول ونعوذ بالله من الجهمية والزنادقة وبدعهم كما نعوذ به تعالى من أن ننفي فضيلة ثابتة للرسول صلوات الله وسلامه عليه بل في إثبات القول بأن المقام المحمود هو الشفاعة أعظم فضيلة يحوز عليها بشر فقد تأخر عنها حتى أولو العزم من الرسل ولم يتقدم لها إلا سيد البشر وخاتم النبيين فأي فضيلة أعظم من هذا. والله أعلم.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ١٤٤.
(٢) التمهيد لابن عبدالبر ٧/ ١٥٧.

المبحث الرابع
الشفاعة

الشفاعة لغة: هي الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه وأكثر ما تستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى[١].

واصطلاحاً: سؤال التجاوز عن الذنوب والآثام[٢].

والشيخ عبدالقادر الجيلاني يقرر وجوب الإيمان بشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة فيقول:

«والإيمان بأن الله تعالى يقبل شفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر والأوزار واجب قبل دخول النار عاماً للحساب لجميع أمم المؤمنين، وبعد دخولها لأمته خاصة فيخرجون منها بشفاعته ﷺ. وغيره من المؤمنين حتى لا يبقى في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ومن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله مرة واحدة في عمره مخلصاً لله عزوجل»[٣].

وكلامه هذا اشتمل على بيان عدة شفاعات.

الأولى: شفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر قبل دخول النار.

الثانية: شفاعته ﷺ في أهل الكبائر بعد دخولهم النار.

---

(١) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ٢٦٣.
(٢) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/٤٥٨.
(٣) الغنية للجيلاني ١/٦٩.

الثالثة: شفاعة المؤمنين لأهل الكبائر لإخراجهم من النار.

وهو بهذا يوافق ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من إثبات الشفاعة للنبي ﷺ ولغيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنين حسبما وردت به الأدلة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مع نفي الشفاعة التي نفتها الأدلة من الكتاب والسنة.

وتتم الشفاعة ابتداءً حينما يشتد الكرب على الناس في عرصات القيامة ويطول انتظار الخلائق في ذلك الموقف العظيم. فيبحث الناس عمن له منزلة عالية عند الله عزوجل كي يشفع لهم عنده سبحانه في تخليصهم مما هم فيه من الأهوال والكربات. ثم تقع أنواع الشفاعة الأخرى فيما بعد على التفصيل الذي سنذكره إن شاء الله.

وعلماء أهل السنة والجماعة كما أسلفت يثبتون الشفاعة التي أثبتها الكتاب والسنة وهذه بعض أقوالهم:

١ ـ قال الإمام أحمد عن الشفاعة: «وأن الله يخرج أقواماً من النار بشفاعة محمد ﷺ»[١].

٢ ـ وعقد ابن خزيمة باباً مطولاً في كتابه التوحيد بعنوان: «باب ذكر أبواب شفاعة النبي ﷺ ـ التي قد خُصَّ بها دون الأنبياء سواه صلوات الله وسلامه عليهم ـ لأمته وشفاعة النبي ﷺ دون غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم وشفاعةبعض أمته لبعض أمته ممن أوبقتهم خطاياهم وذنوبهم فأدخلوا النار ليخرجوا منها بعد ما قد عذبوا فيها بقدر ذنوبهم وخطاياهم التي لا يغفر الله لهم ولم

---

(١) طبقات الحنابلة ١/ ٣٤٤.

يتجاوز لهم عنها بفضله وجوده بالله نتعوذ من النار. ثم ساق الأحاديث والآثار التي تثبت الشفاعة للنبي ﷺ»[١].

٣ ـ وقال أبوالحسن الأشعري وهو يرد على منكري الشفاعة:

«وقد أجمع المسلمون أن لرسول الله ﷺ شفاعة: فلمن الشفاعة أهي للمذنبين المرتكبين الكبائر أم للمؤمنين المخلصين؟

فإن قالوا: للمذنبين المرتكبين الكبائر وافقوا.

وإن قالوا: للمؤمنين المبشرين بالجنة الموعدين بها قيل لهم: فإذا كانوا بالجنة موعودين وبها مبشرين والله عزوجل لا يخلف وعده فما معنى الشفاعة لقوم لا يجوز عندكم أن لا يدخلهم الله جناته. وما معنى قولكم: إنهم قد استحقوها على الله عزوجل واستوجبوها عليه سبحانه، وإذا كان الله عزوجل لا يظلم مثقال ذرة كان تأخيرهم عن الجنة ظلماً وإنما يشفع الشفعاء إلى الله عزوجل في أن لا يظلم على مذهبكم. تعالى الله عن افترائكم عليه علواً كبيراً.

فإن قالوا: يشفع النبي ﷺ إلى الله في أن يزيدهم من فضله لا في أن يدخلهم جناته.

قيل لهم: أوليس قد وعدهم الله عزوجل ذلك فقال تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[٢] والله عزوجل لا يخلف وعده، فإنما يشفع إلى الله عزوجل عندكم في أن لا يخلف وعده وهذا جهل منكم وإنما الشفاعة المعقولة فيمن استحق عقاباً أن

(١) التوحيد لابن خزيمة ٢٤١.

(٢) النساء: ١٧٣.

يوضع عنه عقابه، أو في من لم يعده شيئاً أن يتفضل به عليه. فأما إذا كان الوعد بالتفضل سابقاً فلا وجه لهذا.

فإن سألوا عن قول الله عزوجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[1] فالجواب عن ذلك: ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ فهم يشفعون له. وقد روى أن شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر[2]. وروى عن النبي ﷺ (أن المذنبين يخرجون من النار»[3].

٤ ـ عقد الإ مام الآجري باباً بعنوان وجوب الإيمان بالشفاعة قال فيه: «اعلموا رحمكم الله أن المنكر للشفاعة يزعم أن من دخل النار فليس بخارج منها، وهذا مذهب المعتزلة يكذبون بها وبأشياء سنذكرها إن شاء الله مما لها أصل في كتاب الله عزوجل وسنن رسول الله ﷺ وسنن الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان وقول فقهاء المسلمين. والمعتزلة يخالفون هذا كله لا يلتفتون إلى سنن الرسول ﷺ ولا إلى سنن الصحابة رضي الله عنهم وإنما يعارضون بمتشابه القرآن وبما أراهم العقل عندهم. وليس هذا طريق المسلمين وإنما هذا طريق من قد زاغ عن طريق الحق ولعب به الشيطان وقد حذرنا الله عزوجل ممن هذه صفته وحذرنا هم النبي ﷺ وحذرناهم أئمة المسلمين قديماً

---

(١) الأنبياء: ٢٨.

(٢) يشير إلى الحديث الصحيح ولفظه: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» وهو حديث صحيح رواه أبوداود رقم ٤٧٣٩ باب الشفاعة. وأحمد في المسند من حديث أنس رضي الله عنه ٣/٢١٢ والترمذي رقم ٢٤٣٧ في صفة القيامة وصححه الحاكم ٦٩/١ وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وصححه الألباني برقم ٣٧١٤ صحيح الجامع الصغير للسيوطي.

(٣) الإبانة لأبي الحسن الأشعري ص١٦٢.

وحديثاً»[١].

٥ ـ الإمام الصابوني يقول: ويؤمن أهل الدين والسنة بشفاعة النبي ﷺ لمذنبي أهل التوحيد ومرتكبي الكبائر كما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ.[٢]

وهكذا يتبين موافقة الشيخ عبدالقادر الجيلاني لما ذهب إليه أئمة وعلماء أهل السنة والجماعة إثبات الشفاعة للنبي ﷺ.

أدلة ثبوت شفاعته صلوات الله وسلامه عليه:

استدل أهل السنة والجماعة على ثبوت الشفاعة للنبي ﷺ ولغيره من الشافعين بنصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة كعادتهم في إثبات جميع عقائدهم:

أولاً: من القرآن الكريم:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾[٣].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾[٤].

٣ ـ قوله عزوجل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[٥]، وغير ذلك من الآيات الدالة على ثبوت الشفاعة بعد الإذن من الله عزوجل وفي حالة الرضا عن المشفوع.

---

(١) الشريعة للآجري ٣٣١.
(٢) عقيدة السلف للصابوني ٥٨.
(٣) النجم: ٢٦.
(٤) طه: ١٠٩.
(٥) البقرة: ٢٥٥.

ثانياً: من السنة المطهرة:

أما أدلة السنة المطهرة فكثيرة جداً منها:

١ ـ حديث أبوهريرة الطويل، قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون بم ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد يبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنوا منهم الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول بعض الناس ألا ترون ما أنتم فيه ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم. فيقول بعض الناس لبعض أبوكم آدم ثم ذكر أنهم يأتون آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة وأزكى السلام وكلهم يقول: اذهبوا إلى غيري فيأتوني ويقولون: يامحمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه، فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقال يامحمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول: أمتي يارب أمتي يارب أمتي يارب... الحديث»[١].

٢ ـ حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً»[٢].

٣ ـ حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة

(١) رواه البخاري ٤٧١٢ ومسلم ح١٩٤.

(٢) رواه مسلم ح١٩٦.

مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»[(١)].

(١) رواه البخاري ح٦٣٠٥، ومسلم ح١٩٩.

شرط وقوع الشفاعة

الشفاعة التي وردت النصوص الشرعية بإثباتها وردت مقيدة بشرطين أساسيين لا تتحقق الشفاعة إلا بوجودهما وهما:

الأول: الإذن من الله للشافع كي يشفع لأن الشفاعة ملك لله وحده ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾(1) وليس للشافع حق في طلبها إلا بعد الإذن من المالك لها وهو الله.

الثاني: الرضى عن المشفوع فيه بأن يكون أهلاً للشفاعة لأن المشرك لا تنفعه الشفاعة قال عزوجل: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾(2).

وقد جاء هذان الشرطان في قوله تعالى: ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وهو الشرط الأول ﴿وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾(3) وهو الشرط الثاني.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾(4) والمعنى أن الشفاعة إنما ينتفع بها من أذن له الرحمن وكان له قول يرضي.

---

(1) الزمر: ٤٤.

(2) المدثر: ٤٨.

(3) النجم: ٢٦.

(4) طه: ١٠٩.

أنواع الشفاعة

أشار الشيخ عبدالقادر الجيلاني في حديثه عن الشفاعة الذي سبق ذكره إلى ثلاثة أنواع من الشفاعة وهي:

١ ـ شفاعته ﷺ في أهل الكبائر والأوزار قبل دخول النار.

٢ ـ شفاعته العامة للحساب لجميع أمم المؤمنين.

٣ ـ شفاعته لأمته خاصة في إخراج من دخل إلى النار حتى لا يبقى فيها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وهذه الأنواع الثلاثة خاصة بالنبي ﷺ إلا أنه رحمه الله أشار إلى شفاعة غير النبي ﷺ ولكنها لا تقع إلا في إخراج أصحاب الذنوب من النار.

وقد تحدث علماء أهل السنة والجماعة وبسطوا القول في أنواع الشفاعة وقسموها إلى قسمين:

الأول: ما اختص به ﷺ وهي:

١ ـ الشفاعة العظمى في الخلائق كلهم ليخلصوا من هول الموقف وليقضى بينهم حين يقف الناس خاضعين أمام خالقهم ويطلبون من الأنبياء أن يشفعوا لهم إلى الله في تخليصهم من كربات هذا اليوم العظيم وينتهي السؤال إليه ﷺ فيقول: أنا لها. وقد سبق بيان دليل هذا النوع[١].

٢ ـ شفاعته ﷺ لأهل الجنة ليدخلوها بعد الفراغ من حسابهم ودليل هذا النوع حديث أنس بن مالك الذي رواه مسلم[٢] والذي سبق

---

(١) رواه البخاري ح٤٧١٢ ومسلم ح١٩٤.

(٢) رواه مسلم ح١٩٦.

ذكره.

٣ ـ شفاعته صلوات الله وسلامه عليه لتخفيف العذاب عن عمه أبي طالب لما كان يقوم به من حمايته والدفاع عنه ودليل هذا النوع إجابته صلوات الله وسلامه عليه حينما سئل عن عمه أبي طالب وقيل له: هل نفعت أباطالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك. قال: نعم هو في ضحضاح[١] من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار[٢].

٤ ـ الشفاعة لقوم استحقوا دخول النار أن لا يدخلوها ودليلها كما يقول ابن حجر في الفتح[٣] حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه والذي فيه: فيمر أولكم كالبرق قال: قلت: بأبي أنت وأمي اي شيء كمر البرق قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين، ثم كمر الريح ثم كمر الطير وشد الرجال تجري بهم أعمالهم ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ومكدوس في النار[٤].

٥ ـ شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة ودليل هذا النوع قول ابن عباس: «السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة

---

(١) الضحضاح الماء القليل على وجه الأرض والذي لا يبلغ الكعبين/ النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣/ ٧٥.

(٢) رواه البخاري ح٦٥٦٤ رواه مسلم ح٢٠٩.

(٣) فتح الباري لابن حجر ١١/ ٤٣٦.

(٤) رواه مسلم ح١٩٥.

محمد ﷺ»[١].

٦ ـ الشفاعة في رفع درجات بعض المؤمنين من أهل الجنة يدل عليها حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ دخل على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال: إن الروح إذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون، ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه[٢].

٧ ـ الشفاعة في دخول بعض المؤمنين إلى الجنة بغير حساب ولا عذاب كدعائه لعكاشة بن محصن[٣] في أن يكون من ضمن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«عرضت عليَّ الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة والنبي يمر معه النفر والنبي يمر معه العشرة والنبي يمر معه الخمسة والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير قلت: ياجبريل هؤلاء أمتي قال: لا ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير قال هؤلاء أمتك وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب قلت: ولم قال:**

---

(١) رواه الطبراني في الكبير ح١١٤٥٤ وفي سنده موسى بن عبدالرحمن الصنعاني قال الذهبي في الميزان معروف ليس بثقة فإن ابن حبان قال فيه دجال. وقال ابن عدي منكر الحديث وعد هذا الخبر من منكراته. وقال الهيثمي في المجمع ٣٧٨/١٠ بعد أن نسبه إلى الطبراني في الكبير والأوسط وفيه موسى بن عبدالرحمن الصنعاني وهو وضاع.

(٢) رواه مسلم ح٩٢٠.

(٣) أحد السابقين الأولين البدريين كان من أجمل الرجال، انكسر سيفه يوم بدر فأعطاه النبي ﷺ عرجوناً من نخل فعاد سيفاً في يده قاتل به، وشهد به المشاهد، بعثه خالد بن الوليد مع ثابت بن أقرم طليعة له فظفر بهما طليحة بن خويلد الأسدي فقتلهما سنة ١٢ للهجرة في خلافة أبي بكر أثناء حروب الردة/ سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٠٧/١.

كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم قال: اللهم اجعله منهم ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم قال: سبقك بها عكاشة»[١].

النوع الثاني: الشفاعة المشتركة التي يشاركه صلوات الله وسلامه عليه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون وهو نوع واحد فقط. وهو الشفاعة في أهل الكبائر ممن دخل النار ودليل هذا النوع حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يخرج قوماً من النار بالشفاعة»[٢]**. قال ابن كثير رحمه الله: وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة فخالفوا به في ذلك جهلاً منهم بصحة الأحاديث وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته[٣].

---

(١) رواه البخاري ح٦٥٤١ ومسلم ح٢٢٠.

(٢) رواه مسلم ح١٩١.

(٣) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ٢/١٧٩ وانظر فتح الباري لابن حجر ١١/٤٣٣ وكتاب التوحيد لابن خزيمة ٢٤١ ولوامع الأنوار للسفاريني ٢/٢١١ وشرح الطحاوية ١/٢٨٢.